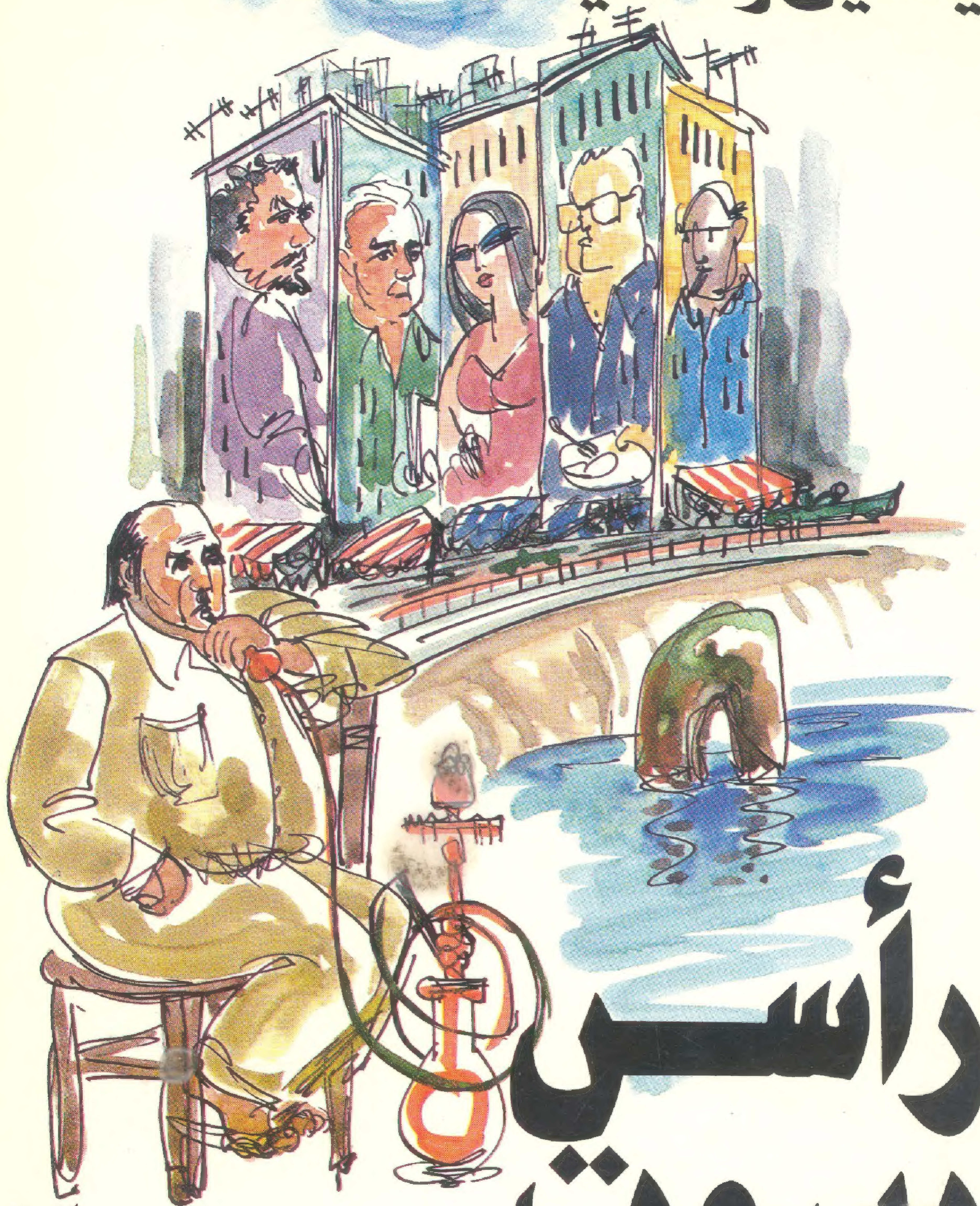
ياسين رفاعية



رأس بيروت

رواية

دار المتنبي

رَائسُ بَیرُوتؔ

ياسين رفاعية

رأس بيروت

رواية

دار المتنبي
باريس - بيروت

محتويات الكتاب

إنّ جميع أبطال هذه الرواية من نسج الخيال
وإذا صادف أن تشابهت الأسماء مع أسماء واقعية
فهذا محض مصادفة

القسم الأول

ماذا فعلت بنا الحرب؟

الفصل الأول

ما زلت أذكر ذلك الحزن الذي انتابنا يوم اختفى ذلك الطفل الذي لم يتجاوز السنوات العشر من العمر، كان يحمل لنا كل حسب رغبته صحيفة الصباح، وما أن أسمع صوت باب المصعد يغلق حتى أعرف أن جريدتي قد وضعت على باب بيتي، فأسرع وأتناول الجريدة، ثم أدخل بها المرحاض لأقرأ عناوينها الأولى، وأعرف بالتالي أهم ما حدث البارحة وفي الليل، وأين نشبت المعارك، ومن قتل، وأين انفجرت سيارة مفخخة، إذ كانت الجريدة أهم من الراديو في هذه الأيام الصعبة، نعرف من خلالها تفاصيل ما يحدث، كما نقرأ من خلالها ما وراء السطور.

ذلك الصباح ظللت أنتظر، وأنا في فراشي، صوت باب المصعد يغلق، حتى أنهض وآخذ الجريدة، كان عبد القادر، عادة يضعها أمام الباب، بين السابعة إلا ربعاً والسابعة، ها هي الآن الساعة السابعة والنصف، ولم أسمع باب المصعد يغلق، قلت في نفسي: لعل الكهرباء مقطوعة فأخذ يصعد الدرج، وبيتي في آخر طابق من بناية مؤلفة من ست طبقات. لا تزودنا الحكومة بالكهرباء إلا نادراً، فالقذائف دائماً تستهدف المعامل التي تولد الكهرباء. ولكن من النادر أيضاً أن تنقطع صباحاً بين السادسة والثامنة، حسناً، لعل الكهرباء السبب. نهضت من الفراش

وذهبت نحو الباب وفتحته، فلم أجد الجريدة، قلت في نفسي: لعلها تأخرت في الصدور. فمنذ بدأ عبد القادر يوزع الجريدة عوضاً عن والده، صار يحضر في هذا الوقت المحدد دون تأخير. ربع ساعة فقط الانتظار. بين السابعة إلا ربعاً والسابعة، وتكون الجريدة على الباب. إذن، ما الذي حدث؟ قلت في نفسي: لعل الولد مريض، سبق أن مرض مرات عدة، لكن شقيقه الأكبر كان يتولى في غيابه حمل الجريدة إليّ، العائلة بكاملها كانت تتولى توزيع الصحف على أبناء حي رأس بيروت: الأب والابن البكر وعبد القادر الأصغر، الأب يحمل الصحف إلى الطوابق السفلى، والإبنان يحملانها إلى الطوابق العليا، عبد القادر تخصص بتوزيع الصحف على البنايات الثلاث القريبة من بيتهم حتى لا يبتعد كثيراً عن الحي، في هذه الظروف الصعبة.

صرت أتردد على الباب كل خمس دقائق، وفي كل مرة أعود خائباً، حتى صاحت زوجتي من الداخل: ألا تكف عن فتح الباب وغلقه، أصبحت الجريدة حياتك، بل أهم منا جميعاً، تنتظرها كما لو أن حياتك كلها معلقة بها.

في الحقيقة أصبحت الجريدة كل شيء في حياة سكان بيروت جميعاً، فالإذاعات التي انتشرت كالجدري في المدينة، لم تكن تعبر إلّا عن رأي الميليشيات التي تشرف عليها، والخبر تسمعه من كل إذاعة، لكن في كل مرة بشكل مختلف. الصحف الحيادية نجت من هذا الخلط تقريباً، وصرنا نعرف منها حقيقة ما يحدث.

مرت ساعة أو أكثر دون أن أقرأ الجريدة، فكان لا بد أن أدق الباب على جاري في المبنى الدكتور أسعد، وما أن فتح الباب،

حتى صاح في وجهي ضاحكاً حسبت أنك الجريدة فسألته:

ــ ماذا تعتقد سبب تأخير الجريدة؟

قال ضاحكاً:

ــ لعل عبد القادر أضرب عن توزيع الصحف. لعله يطالب بزيادة مرتبه؟

لعل... ولعل.

ثم قال:

ــ اذهب يا أخي واشرب قهوتك، فليس من أخبار غير عادية هذه المرة، فخطوط التماس تتعرض للقصف المتبادل، ومناوشات في سوق الغرب، وفي الشياح وعين الرمانة.. أخبار عادية. القصف مستمر بين المنطقتين، والقتل المتبادل مستمر، وليس في هذا النفق الأسود أي أمل.

صحيح (قلت في نفسي) هذه أشياء عادية اعتدناها، وصوت المدافع والقذائف صارت النغم اليومي الذي ألفته آذان الناس. لكن.. قلت لأسعد:

ــ التفاصيل يا أسعد.. التفاصيل، هذه مهمة كي تعرف ماذا حدث من خلال السياسيين؟ ماذا كتب ميشيل أبو جودة.. أنا أرتاح لهذا الكاتب الذي يعرف الكثير من الخفايا والخبايا، ويكتب لنا ما يعرف تصريحاً وتلميحاً. فوق السطور وما وراء السطور.

كان أسعد من قرّاء طلال سلمان، وكثيراً ما كنا نتبادل الصحف، عسى نلتقط من هذه الجريدة أو تلك بعض الأمل.

عدت إلى بيتي، غسلت وجهي، حلقت، وكانت زوجتي قد صحت، فصنعت لي فنجان قهوة حملته إلى الشرفة، وجلست

بين أصص المزروعات المنزلية التي برعت في تنويعها، وظلت تخاف عليها من القصف أكثر من خوفها على كتبي وأوراقي وأثاث المنزل.

هنا زهرة الكاردينيا، وهناك الفل الأبيض، وعلى الزاوية الزنبق، وهناك الورد الأحمر، حديقة صغيرة، كان يحلو فعلاً تناول القهوة بجوارها، أو أحياناً لعب برتية طاولة، مع قاسم أو أبو زياد أو أبو إبراهيم، أو صديقي زهير الصحافي الذي يزورني بين الحين والآخر عندما يكون الوضع الأمني هادئاً، إذ يترك بيته في مار الياس ويجيء إليّ بسيارته الرينو الحمراء القديمة ليتحداني ببرتية مغربية، لكن، معظم الأحيان كنت ألعب هذه اللعبة مع محي الدين الذي كان يعد للدكتوراه من الجامعة الأمريكية، محي الدين صديق الطفولة والبدايات، عندما كنا معاً في دمشق. وعندما قرر الإعداد للدكتوراه، سكن في شقة مفروشة بالقرب من الجامعة الأمريكية، وعمل محرراً أدبياً في احدى المجلات الأسبوعية. وعندما يرهق من الدراسة كان يلجأ إليّ لننسى متاعبنا في طاولة النرد، يهزمني وأهزمه وينتصر عليّ وأنتصر عليه. وكنت مع الجميع أتبادل الهزائم والانتصارات في أحلك الأيام وأحلاها. وكانت شرفة بيتي، بسبب عناية زوجتي بها، من أجمل شرفات البيوت المجاورة حتى أن نبيل (وهو فنان ورسام معروف محلياً وعربياً) اعتبرها ذات يوم الجنائن المعلقة في السماء.

ظللت أتردد بين الحين والآخر على الباب، عسى أن يكون عبد القادر قد جاء بالجريدة دون جدوى، فناديت على زوجتي وقلت لها:

ـ هيا أيقظي بسام ليجلب لي الجريدة..

فاعترضت قائلة:

ـ لن أفعل.. أخاف أن أرسله إلى الحمراء ويحدث شيء ما.. لا أريد أن أخسر ابني بسبب الجريدة.

قلت في نفسي: «الحق معها».

كنا جميعاً في الحي نخاف على أولادنا، وفعلاً، عندما يكون الوضع آمناً، والمدرسة فاتحة أبوابها، كنت أذهب ببسام ولينا إلى مدرستهما بنفسي، وأعود ظهراً لاصطحابهما إلى البيت.

أطللت بعد طول صبر من الشرفة، فرأيت أبو زياد صاحب بقالة الحي يتمشى قلقاً من أول الرصيف إلى آخره. ثمة ما يوحي أن شيئاً يقلقه، ناديت عليه:

ـ أبو زياد.

رفع رأسه، ولوّح بيده، ثم سأل:

ـ ماذا تريد؟

ـ هل رأيت عبد القادر؟

لم يسمع أبو زياد السؤال جيداً، فأنا أخاطبه من الطابق السادس، وضجيج السيارات العابرة يضيّع نصف صوتي، فرفع يده ووضعها خلف أذنه:

ـ ماذا؟

ـ عبد القادر... والجريدة... عبد القادر...

رسم بسبابته دائرة، ثم حركها، عرفت أنه يطلب مني مخاطبته بالهاتف.

وبسبب انقطاع الكهرباء المتواصل، كان الهاتف شبه معطل، كان الواحد منا يرفع السماعة ربع ساعة أو أكثر، حتى إذا جاء

الخط وطلب الرقم الذي يرغب به، غالباً لا يتلقى إلا الصمت. لأن الهاتف الآخر يعاني نفس المشكلة. حدث معي هذا وأنا أهتف إلى (أبو زياد)... لا جواب... لا جواب.

ــ هل للجريدة كل هذه الأهمية؟ تردد زوجتي، فأجيب: لا.. لكن لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟ نريد أن نعرف من قتل ومن جرح.. إن أسماء جديدة تضاف كل يوم يا عزيزتي، أعزاء علينا وأحباب، هنا أو هناك.

ترتسم على وجه زوجتي غمامة حزن، ثم تفتح الباب نيابة عني، فتصادف جارنا الدكتور أسعد يفتح الباب ويقول لها ضاحكاً:

ــ جريدتي لم تأت.. هل أتت جريدتكم؟

نفت زوجتي وصول الجريدة، وعادت لتخبرني لا جريدة الدكتور جاءت ولا جريدتي.

أطللت ثانية من الشرفة، فشاهدت أبو زياد رافعاً رأسه نحوي، ويشير مراراً إلى الهاتف راسماً شكل دائرة بسبابته. فأشرت أن لا حرارة في الهاتف.. فهز رأسه متبرماً، ثم عاد يذرع الرصيف بخطوات نزقة وقلقة.

قررت أن أرتدي ملابسي وأنزل إلى الشارع، وفيما كنت أتناول الجاكيت من المشجب، دوّت قذائف في السماء. وأصوات انفجارات متتابعة، ثم بدأ مدفع قريب يضرب قذائفه بشكل رتيب.

قال ابني بسام الذي استيقظ للتو:

ــ لا تخف يا أبي هذا المدفع يضرب من عندنا.

في الحقيقة، صرنا خبراء بأنواع الأسلحة التي تستخدم في

الحرب، كباراً وصغاراً، وصرنا نعرف إن كانت هذه القذيفة قد خرجت من عندنا، أو تلك التي سقطت بالقرب من عندهم. صرنا نعرف أنواع الرصاص إن كان رصاص بندقية، أو كلاشينكوف أو مدفع مضاد للطائرات. عندما تنشب معركة (والمعارك سجال) تستخدم فيها جميع الأسلحة دون فرق، كل فريق في اتجاه الفريق الآخر، مدافع مضادة للدبابات، مدافع غير مرتدة، مدافع هاون، مدافع ٦١ مليمتراً أو ١٢٠ ميليمتراً. . الخ، قذائف من كل الأنواع، راجمات صواريخ، من أين جاءت كل هذه الأسلحة؟ من يدفع ثمنها؟ من يقدمها إلى هذا الفريق أو ذاك؟ وهل الحرب لعبة؟

في الحقيقة صارت لعبة حتى بين الصغار، في أيام الصحو والهدوء، نشهد حرباً أخرى من شرفات بيوتنا، بين أطفالنا أنفسهم الذين صنعوا من مساطر مدارسهم ومن قطع خشب مختلفة أشكال بنادق ومسدسات، وجعلوا من السيارات المحطمة بفعل القذائف المتساقطة، أمكنة لاختفائهم، ثم يبدأون بالهجوم على بعضهم بعضاً، ودائماً هناك مهزوم بينهم وهناك منتصر. . إلا في تلك الحرب الحقيقية، سنوات طويلة مرت، ولم يقتحم هذا الفريق أو ذاك مناطق الآخر. . عبث وموت ودمار ولا من رادع، وكنا نخاف على أنفسنا وعلى الأولاد الذين يعيشون هذا الجو الفاحم، حتى اعتادوا على رؤية القتلى والجرحى، وكانوا دائماً يتضاحكون وراء نعوش القتلى التي أصبحت مشهداً يومياً ومتكرراً. وكان ابني بسام يقول متفاخراً:

ـــ عندما أكبر سأذهب إلى الحرب.

تؤنبه زوجتي وأحياناً تصفعه صفعة خفيفة:

ـ اسكت يا ولد. . هل تتصور أن الحرب سيطول أمدها؟ الحرب ستنتهي غداً، هم يقولون أن الحل على الأبواب.

تلتفت زوجتي نحوي وهي تردد هذه الكلمات، فأبتسم بمرارة. أعرف أن موضوع الحرب معقد إلى حد كبير. . وإنها حرب مستمرة، وربما سيشارك فيها ابني ابن العاشرة وحفيدي أيضاً. تتقدم زوجتي مني وتهمس:

ـ بماذا تفكر؟

قلت لها:

ـ بكلماتك المتفائلة يا أمنية. . حتى اسمك يعبر عن التفاؤل وأمنيتك بانتهاء الحرب. . الله يسمع منك. . لكنها ستستمر مائة عام.

ـ كم أنت متشائم يا رجل. . وجبان في الوقت نفسه، الحرب طالت وأنت قابع في بيتك. لم تحمل مسدساً، لا تعرف كيف تحمل سكيناً.

ـ هل كنتِ تريدينني أن أشارك في الحرب؟ مجنونة أنتِ، هذه الحرب عبثية، حتى الذين يتقاتلون لا يعرفون لماذا يتقاتلون. . مرة لإخراج الفلسطينيين من البلد، ومرة للإصلاح السياسي، وأخرى لإلغاء الطائفية. . في كل مرة يطرحون شعارات متناقضة ومختلفة، ضيعونا وضيعوا البلد. ثم، حتى لو شاركت فيها، فأنا غريب، يعتبروننا غرباء، أنت وأنا والأولاد، وأمثالنا مئات الألوف. . . كم كانت بيروت جميلة عندما اخترناها وطناً، هل تصدقين أنني كنت أحلم باختيار بيروت وطناً منذ عشرين عاماً. قبل أن أتزوج منك، كنت وأنا ولد أحمل من فرن أبي بضعة أكياس تزن عشرين كيلو غراماً من الكعك، وأركب

الباص من دمشق حتى أصل إلى بيروت، وأبيع الكعك في ساحة رياض الصلح أمام كراج العلمين بعشر دقائق فقط، فأربح ضعف الثمن. وأعود في نفس اليوم إلى دمشق. لم تكن هناك حدود بين البلدين، كان الواحد منا يأخذ الباص من دمشق الساعة السابعة ويصل بيروت الساعة الثامنة والنصف دون توقف، كنا بلداً واحداً، عملتنا واحدة، واقتصادنا واحد، وأنا فتى أحببت البحر، هذا الأزرق الممتد إلى الأفق، هدير موجه، إتساعه العظيم، هيبته أمام الأرض، ومناجاته اليومية منذ ملايين السنين، مع الشواطىء والمدن والرمال الذهبية.. مع الطبيعة، والنوارس، وهو حتى أعماقه مليء بالأسرار.. انه حالة راهنة رائعة. كنت منذ ذلك الحين أحب بيروت وبحر بيروت، والناس والشوارع، ومقاهي الرصيف.. وظللت أتردد على هذه المدينة باستمرار، وتعلمت السباحة في البحر، وغالباً في أيام الصيف لم أكن أغادر الشاطىء: رمل ولعب وصندويش وسباحة حتى التعب، ومع الأيام، أصبحت من غير أن أقصد كاتباً. آه يا لتعاسة الكاتب. وعملت في الصحافة، وصارت امنيتي ذات يوم أن أجلس وراء طاولة في جريدة النهار أو الأنوار أو الجريدة وأكتب. وتزوجتك، وأنت حامل ساءت ظروفنا معاً، بسبب الخضات السياسية والتناقضات المذهلة التي كانت تلعب بمصائر الناس، وأنا العامل ابن العامل، نشأت في حي فقير، من أب مكافح، يحمل كيس الطحين على ظهره من عند بائع الطحين إلى فرن يستأجره ساعات، ليصنع منه كعكاً يشتري لنا بثمنه قوت يومنا وملابسنا ومدارسنا، أنا وسبع أخوات بنات ثم تبنى ولداً، وأنجب في نهاية العنقود ولداً. كان يحب الأولاد، يعتبرهم خيراً وبركة، وكان

يتفاءل بالبنت أكثر من تفاؤله بالولد «وجه البنت خير يا ابني . . انها ضلع قاصر . . والله يحب أن نكرّم البنات ونسعى لهن بالحياة السعيدة» . وكنت أنا بعمر ابنك، أحمل الكعك من دمشق إلى بيروت كل يوم جمعة ـ وهو عطلتي المدرسية ـ أبيعه وأعود مطمئناً وقد حملت ثمنه وربحه الحلال. كان أبي يقول عني سأصبح تاجراً مهماً، وكانت أمي تعتقد أنني سأنقذهم ذات يوم من الفقر، وأنت ترين ويا للأسف أنني لم أحقق لهما أمنيتهما. لأنني صرت كاتباً وتاركاً بلدي لأعيش بقية عمري في بيروت.

وعندما قررت نهائياً أن أحملك وطفليك إلى بيروت، قررت ألا نتدخل في السياسة، وبيروت مفتوحة لكل التيارات. عندما كنت أتردد عليها، وقد أصبح لي فيها أصدقاء، لاحظت أن المثقفين فيها يعيشون في بحبوحة الحرية، كانوا يلتقون في الأماسي على الروشة في الدولتشفيتا، أو في الهورس شو في الحمراء، بكل انتماءاتهم يتناقشون بأمور البلد. يتضاحكون. ويشربون العرق معاً، ثم يتفرقون بين البارات والكازينو، والبعض يعود إلى بيته، ليصبحوا في اليوم التالي وهم يهاجمون بعضهم بعضاً على صفحات الجرائد التي يعملون فيها: الشيوعيون والراديكاليون والقوميون العرب والقوميون السوريون. . لعل بيروت كانت جميلة بسبب ذلك، ولعل بيروت احترقت فيما بعد بسبب ذلك أيضاً.

تعبت من الكلام أمام أمنية، التي قالت بسخرية:

ـ كم مرة رويت لي هذا الكلام . . . سمعته منك ألف مرة.

تذكرت، صحيح، مراراً رويت لها هذه القصة، إنها رحلة المر في حياتي، رحلة، اللا استقرار. منذ كنت طفلاً إلى الآن،

وأنا في الأربعين، عشت القلق والصراخ الداخلي، وما كنت أرى إلا الوجه المظلم للقمر. . كان لدي حدس عجيب إن هذه المنطقة مقدمة على حروب وانقلابات وسفك دماء، وخلط الحابل بالنابل. منذ بدأت أقرأ وأفهم، صرت أرى المستقبل المظلم الأشد ظلاماً كلما تقدم الزمن، وما حدث فيما بعد أكد لي صدق حدسي. بل ربما كنت أكثر تفاؤلاً . . فما الذي يحدث الآن في بلادنا؟. ها قد أصبح الانسان خرقة معصورة، غصناً مكسوراً، لا قيمة له، رقم هامشي بيد السلطة، لا يقدر أن يتفوه بكلمة. عدت وقلت لزوجتي:

ــ هل تسمعين هذه النكتة يا أمنية؟

قالت:

ــ هل هذا وقت التنكيت والقذائف تصم آذاننا؟

قلت:

ــ اصبري علي واسمعي.

قالت:

ــ هات.

قلت:

ــ دخل مريض وقد التهبت لوزتاه على الطبيب الجراح وطلب منه أن يجري له عملية لنزع اللوزتين. . فطلب الطبيب مبلغاً كبيراً، فاستغرب الرجل وقال له: العملية بسيطة يا دكتور. . فلماذا هذه التكاليف الباهظة، أجابه الدكتور مبتسماً: إنني سأبدأ بك من تحت، وتدخل المشارط والخيوط والأدوية عبر أمعائك ثم معدتك، ثم صدرك، ثم نلتف حول قلبك لنصل إلى عنقك وهنا ننزع اللوزتين. . فسأله المريض. . ولماذا هذه الرحلة الطويلة. .

لماذا لا ندخل من فوق؟ فقال الطبيب بحزم: ومن يسمح لـك أن تفتح فمك..

ضحكت زوجتي حتى كادت تنقلب على قفاها.. ثم قالت: إياك أن ترويها إلى أحد.. وإلا نزعوا رقبتك لا لوزتيك فقط.

* * *

لم أنزل إلى الشارع، لأن القصف عنف، وصـارت القذائف تقترب منا أكثر وأكثر، خشيت على نفسي وعلى أسرتي، فتركت الشرفة وطلبت من زوجتي وولـدي أن يتبعاني حيث قبعنـا معاً في ممـر البيت وبين جـدارين سميكين. وكـانت زوجتي كلمـا فعلنـا ذلك، تصطحب معهـا محفظة تضم الأوراق والهـويات وجـوازات السفر، بالإضافة إلى ألبومات الصور. وكنت أنهرها:

ـ ولماذا ألبومات الصور؟

ـ إنها ذكرياتنا، صور عرسنا، ورحلاتنا، وصور ولدينا وهما طفلان، أنت لا تزعج نفسك بكـل هذه الأمـور. دعني أتصرف، إن هذه الصور أعز علي من كل مال الدنيا.

صمتَتْ قليلاً ثم أردفت:

ـ ربما عرف عبـد أن النار تحت الـرماد فلم يخـرج لتوزيـع الصحف لا هـو ولا أولاده.. اقتنعت بهـذه المـلاحـظة وقلت في نفسي: يلعن أبو الجريدة.

دق الدكتور الباب علينا، كنـا نستأنس ببعضنـا أثناء القصف، نتكوم جميعاً، سكان البنايـة، في ممرات بيـوتنا، أو على الـدرج بين الشقق، وأحيـاناً نهبط جميعـاً إلى الطوابق السفلى لأنهـا أكثر أمناً، نتحدث في أمور كثيرة. وندخل في متـاهات من الأحـاديث المختلفة، هي في الواقع هربـاً من الخوف. عنـدما فتحنـا الباب

للدكتور، اقترح علينا أن نهبط إلى الطابق الثاني أو الأول. أسرعت زوجتي وارتدت كامل ملابسها واحتضنت محفظتها وألبوماتها وهبطنا إلى الطابق الأول، حيث تجمع سكان البناية، أمام شقة أبو إبراهيم المحبوب من الجميع، كانت على وجهه إمارات قلق على غير عادته، فهو رجل مؤمن، يؤمن بالقضاء والقدر «والذي يأتي من عند الله هو المكتوب على ألواحنا» ويردد «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» قال موجهاً كلامه لي وللدكتور:

ـ الولد عبد القادر اختفى. أخذ صحف الصباح نيابة عن أخيه محمد المريض ليوزعها على بنايات كراكاس (وهو شارع آخر يقع خلف شارعنا) ولم يعد إلى الآن.. أبوه بحث عنه. زار البنايات كلها التي يوزع على بيوت أصحابها الصحف بيتاً بيتاً.. لم ير أحد منهم الولد. ذهب إلى مخفر الشرطة وسجل محضراً بأن ابنه اختفى.. وما زال يلف الشوارع هو وزوجته وأخوه وأسرتهم جميعاً ومنير خال الولد. لم يجدوا له أثراً.

قال الدكتور أسعد:

ـ من الخطأ أن يرسلوه بعيداً عن الحي.. البلد فوضى يا أبو ابراهيم.. وولد جميل مثل الفلة.. ألا يخافون عليه؟.. على كل حال أعتقد أن الولد سيعود.. ولد فلهوي وذكي لا أخاف عليه. ربما يلعب مع أقرانه على الروشة، أو بالقرب من مقهى شاتيلا.. كثيراً ما رأيته هناك. ربما التجأ إلى ملجأ احدى البنايات ليتفادى القصف كما نتفاداه نحن هنا.. أظن أن الولد سيعود.

رفع أبو ابراهيم رأسه إلى أعلى وفتح كفيه إلى السماء ودمدم

ببضع كلمات. . ثم وجه الكلام لنا:

ــ في هذا الوقت المبكر لن يذهب إلى اللعب. عادة يوزع الصحف ثم يعود إلى البيت لتناول الفطور مع أهله. . لا. . لا. . ربما حدث شيء غريب.

قالت لوريس موجهة الكلام إلى الدكتور وإليّ همساً:

ــ ربما خطفوه.

فسأل الدكتور أسعد:

ــ يخطفونه. . ولماذا يخطفون ولداً صغيراً مثل عبد القادر؟ . . لا. . لا أظن.

في الحقيقة كان الخطف سمة هذه الحرب، خطف متبادل بين الفئات المتقاتلة والطوائف، وبين الفلسطينيين أنفسهم وتنظيماتهم، لكن لم نسمع أبداً، أن ولداً في العاشرة من عمره قد خطف أو اختفى مما أشاع في نفوسنا بعض الاطمئنان أن الولد سيعود.

لكن لوريس اقتربت من زوجتي وعلى مسمع مني همست:

ــ الدكتور غلطان. . أنا أقرأ في الصحف الأجنبية أن أطفالاً وأولاداً يخطفون ويباعون لأسر محرومة من الأولاد، عصابات من المافيا تشكلت في البرازيل والأرجنتين ومعظم بلدان العالم مهمتهم خطف الأولاد وبيعهم. . ولماذا لا تكون في بيروت عصابة من هذا النوع استفردت بعبد القادر وخطفته؟

مر وقت طويل ولم ينحسر القصف، بل ازداد عنفاً ووحشية، فاندفع ناس جدد نحو المبنى، ودخل علينا أناس غرباء، ومن جيراننا أيضاً، في الأبنية القديمة المجاورة وفي ظنهم أن المبنى الذي نقيم فيه أكثر تماسكاً، إذ ذات يوم كنا نتعرض للقصف

روى لنا قاسم الداعوق، وهو أحد سكان البناية ومتعهد بناء: أن هذه البناية أشرف على بنائها هو بنفسه في الستينات، وقد صممها المهندس على أساس أن تكون ضد الزلازل.. إذ قبل ذلك بفترة، تعرضت بيروت لزلزال عنيف دمر نصف أبنيتها، وخصوصاً منطقة العازارية التي دمرت تماماً، فصعد في مكانها بناء ضخم حمل اسم «بناية العازارية» وهي أيضاً بنيت بأسس متينة محصنة تحسباً لأي زلزال آخر وكان عمل قاسم قد انحسر بسبب الحرب، فأصبح لا يفارق منزله إلا لماماً، اسوة بنا جميعاً.

تكاثرت الناس حولنا، بعد أن اشتد القصف، ثم رأينا عبد يدخل علينا باكياً وعلى وجهه ملامح التأثر والقلق وخاطب أبو ابراهيم وهو يشهق بدموعه:

ــ لم نجد الولد يا أبو ابراهيم.. هل حدث له مكروه؟

قال أبو ابراهيم بلهجته الهادئة والمطمئنة:

ــ يا شيخ وكّل الله.. عبد القادر ولد ذكي.. لا تخف عليه.. سيعود.

مرت الساعة تلو الساعة وعبد الله ينظر إلى الوجوه المحيطة به، كأنه يحس أننا نخفي عنه شيئاً. وكنا بالفعل، جميعاً مثله، قلقون على الولد.. ومع تكاثر القصف كنا نسمع أصوات سيارات الإسعاف وهي تعبر مسرعة، فأدركنا أن هناك ضحايا وجرحى، مستشفى الجامعة الأمريكية قريب منا، إنه إلى جانب الجامعة التي كانت سبباً في ازدهار منطقة رأس بيروت.

تركنا الدكتور أسعد وتقدم خطوات من باب البناية الرئيسي، ثم تراجع مسرعاً مصفر الوجه وقال:

ــ يا جماعة.. هناك حريق قريب من مركز الأبحاث.

رفعت لوريس يديها إلى أعلى وقالت:

ـ يا رب احمنا.

قال أبو ابراهيم:

ـ دائماً يستهدفون هذا المركز. . هل يخافون من الكتب إلى هذا الحد؟

كان مركز الأبحاث، مركزاً للوثائق الفلسطينية والمخطوطات، وألوف الكتب التي طبعها المركز لدارسين واختصاصيين في القضية الفلسطينية، وكان يجمع في طوابقه الستة ثروة ضخمة من هذه الكتب والخرائط والوثائق.

دخلت بعد قليل أم عبد القادر تنتحب بمرارة، ودخل خلفها شقيقها منير. لم تستطع أن تقول شيئاً، كلما حاولت اختنقت بالبكاء، غير أن منير صاح بملء صوته: يا جماعة لم نجد أثراً للولد.

أبو ابراهيم ظل متفائلاً وقال:

ـ انتظروا حتى يتوقف القصف فنرى الولد عائداً.

مرّ الوقت سريعاً، الناس حيارى، الرجال يدخنون، النساء مرتعبات واجمات لا يعرفن ماذا يفعلن. خرجت إلينا أم ابراهيم وبيدها صينية عليها بعض الصندويشات وقالت:

ـ يا جماعة. . كلوا. . اشغلوا أنفسكم بهذه الصندويشات.

البعض مد يده، والبعض لم يفعل.

بيت أم ابراهيم في الطابق الأرضي، وهو أكثر أماناً في المبنى، وكانت أم ابراهيم عندما يزدحم الممر ومدخل المبنى بأهل الحي وبعابري السبيل أثناء القصف، تسرع وتصنع عدداً كبيراً من الصندويش توزعه على الجميع دون استثناء، حتى أن

قاسم كان أيضاً يضاحكها قائلاً لها:

ـ إنك تشغلين نفسك بالصندويش من شدة الخوف أليس كذلك؟

وترد أم ابراهيم التي حجت إلى بيت الله الحرام قبل سنتين:

ـ قل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا.

* * *

جاء الغروب، ثم أخذت العتمة تتسلل لتغمر البلد والحي بسوادها. فلا كهرباء ولا مصابيح غازية. صار الغاز مفقوداً في تلك الأيام، لم تعد من وسيلة إلى النور إلا الشموع. لكن عبد القادر لم يعد حتى الآن. صاحت أمه بزوجها:

ـ هل أنت خائف على نفسك أكثر من خوفك على الولد.. رح وابحث عنه مجدداً.

حاول عبد الخروج، إلا أن أبو ابراهيم منعه:

ـ انتظر يا عبد الله.. انتظر.

تعبنا ذلك اليوم، لكن القصف بدأ ينحسر بعد منتصف الليل ولم يعد عبد القادر، خرجت مع الدكتور إلى الطريق فوجدنا أبو زهير يكركر بنرجيلته على الرصيف الآخر، فصاح به الدكتور:

ـ ولك أبو زهير متى خرجت، ومتى صنعت نفس نرجيلتك.

ضحك أبو زهير وقال:

ـ لا أنا خرجت ولا أنا دخلت.. لم أترك مكاني من الظهر. أنتم جبناء... ألم أقل لكم أننا محروسون، وأن اخوتي الجان تحت الأرض يزيحون القذائف عن حينا؟

فقال الدكتور:

ـ وصهم بنا دائماً. . والله نحن محظوظون باخوتك هؤلاء. . وغمزني الدكتور جانباً.

ثم قال له:

ـ الولد. . ماذا تعتقد حصل له؟

أشار أبو زهير لنا أن نقترب ثم همس:

ـ الولد راح يا رجال. . ولد مثل الوردة. . والبلد فلتانة. . هل تتصورون انه سيعود. . اخوتي تحت الأرض قالوا لي: الولد ذهب إلى غير رجعة.

تفقدنا أنا والدكتور الحي بأطرافه، وحمدنا الله أن الأضرار كانت قليلة، أما حريق مبنى الأبحاث، فقد أخمد، وتبين لنا أن حرسه ومجموعة من السكان تعاونوا على اخماده، كما أن سيارات الإطفاء جاءت وساعدت في ذلك.

عدنا إلى المبنى ثم صعدنا معاً درج البناية على مهل، وكان الدكتور يحدثني عن هلوسات أبو زهير، وقال: هذا الرجل مجنون يتخيل أشياء غير واقعية. تصور أنه لم يغادر الرصيف، بينما نحن قابعون مختبئون. .

قلت:

ـ الحياة حلوة يا أسعد. . والخوف في العقلاء شيء طبيعي.

وعندما وصلنا إلى الطابق السادس، ودعني أسعد، وما ان دخلت منزلي حتى وجدت زوجتي وولدي نياماً. عذرتهم. . كان يوماً قاسياً، لعن الله الجريدة.

* * *

الفصل الثاني

نشرت الصحف اللبنانية جميعها تقريباً نبأ اختفاء عبد القادر، ولعل عبد القادر كان أول ولد يختفي من المدينة، خاله منير قال لا بد أن تكون هناك جريمة وراء اختفاء ابن أخته، لأن عبد القادر كان جميلاً كالبنات، لكن الدكتور استبعد ذلك وقال: ربما خطف من احدى الميليشيات المسلحة، سيغسلون دماغه، ثم يعلمونه استعمال السلاح، وبعد سنوات يصبح مقاتلاً فيهم لا يسأل عنه أب ولا أم. أو ربما خطف من ميليشيات الطرف الآخر لنفس القصد.

فسأله أبو ابراهيم مستفهماً:

ـ غسيل دماغ.. ما هو غسيل الدماغ؟

قال الدكتور ساخراً:

ـ يا أبو ابراهيم أنت لا تعرف كيف يغسلون الأدمغة، هناك من يستطيع أن يغسل دماغك وأنت في هذا العمر ويجعلك تنسى كل ماضيك.

قال منير:

ـ يا جماعة الولد واع ويعرف أمه وأباه وكل أهله.. وهذا غسيل الدماغ خلط بخلط.

قال نبيل:

ـ لا تقل هذا خلط بخلط، هذا شيء علمي تستخدمه أجهزة المخابرات المتقدمة في كل أنحاء العالم.

صمت قليلاً ثم أردف:

ـ لعلكم نسيتم أن في البلد عملاء لإسرائيل مثلهم مثل الدول الأخرى.. أظن أن الولد خطفه إسرائيليون وعبروا به الحدود.. هناك سيفعلون به ما تفكرون فيه.. غسيل دماغ.

قال أبو زياد:

ـ تصوروا يا جماعة، قد تغزونا إسرائيل ذات يوم وعبد القادر أحد جنودها، وقد يدخلون علينا في هذا الحي الذي سيدافع عنه أخوه محمد مع الآخرين، لكن عبد القادر يطلق الرصاص عليه ويرديه.. تصوروا ما أفظع هذه الصورة.. الأخ يقتل أخاه ولا يعرف أن القتيل هو أخوه.

قال الدكتور أسعد:

ـ كل شيء ممكن يا أبو زياد.. كل شيء ممكن وقابل للتحقيق..

قال نبيل ساخراً:

ـ هل تتحدثون عن فيلم سينما.. ولو أعطيتم هذه الفكرة لمخرج سينمائي لحققها في السينما.. إنها صالحة للسينما.. وليست صالحة للواقع.

قال الدكتور:

ـ بل ممكن أن تحدث، في الحياة الكثير من القصص المشابهة.. ولو يا نبيل ألا تذكر القناص الذي كان يقنّص الناس ببندقيته الرشاشة عبر المنطقة الشرقية.. ولا يخيب.. كان كل يوم يقتل عدة أشخاص. هكذا لله لله، لا سلاح في أيديهم لا

يقاتلون أحداً، عابرون في شارع بشارة الخوري إلى لقمة عيشهم.. ومع ذلك كان لهم بالمرصاد، يصطادهم كالعصافير.

ـ أذكر.. أي والله أذكر.

تابع أسعد قائلاً:

ـ ثم أنه ذات يوم اصطاد أخاه وأرداه.. وعندما عرف ما جنت يداه.. انتحر..

قال أبو زياد:

ـ وبشر القاتل بالقتل.. هؤلاء هم الذين يولّعون الحرب. إنهم موجودون هنا وهناك، لا تقل نحن أفضل.. قناص من عندنا قتل امرأة حاملاً كانت ذاهبة إلى المستشفى، ولم يكتف بقتلها بل صوّب رصاصة إلى بطنها حتى يقتل الجنين.

قال نبيل باشمئزاز:

ـ حصل هذا نعم.. حصل هذا، الحرب تأخذ من قلوب المقاتلين الرحمة، يصبحون مثل بنادقهم قساة عميان لا يرون إلا الأبرياء طعماً لرصاصهم.

أبو زياد تدخل قائلاً:

ـ حرب غير مبررة، طعمها الذين يموتون على قارعة الطريق، والذين يموتون داخل بيوتهم، والذين يذهبون إلى تحصيل الرزق.. أما المقاتلون أنفسهم، القتلة بالأحرى أنفسهم، فهم المحميون وراء أكياس الرمل، داخل الأقبية والخنادق، وبسترات واقية من الرصاص.. إنهم الأقل ضرراً دائماً.

* * *

في المساء اجتمعنا في دار أبو ابراهيم، واتخذنا قراراً بوضع جائزة قيمتها خمس وعشرون ألف ليرة لبنانية لمن يرشد إلى عبد القادر أو يعيده إلى أهله سالماً، وقررنا جمع هذه الجائزة من أهل الحي قاطبة، وأسندت مهمة جمع المال إلى أبو زياد باعتباره موجوداً في الحي باستمرار من خلال عمله اليومي في البقالية التي يملكها، وبإشراف مباشر من أبو ابراهيم والدكتور أسعد. وفي نفس الوقت وزعنا إعلاناً على الصحف لمن يرشد إلى عبد القادر وينال الجائزة. وجميع هذه الصحف كرّمتنا، فرفضت أن تتقاضى منا ثمن الإعلان، إذ راحت تنشره يوماً بعد يوم مجاناً. لكن عبد القادر ظل مختفياً وبعيداً، وكنا نرى أسرته فرداً فرداً يسألون كل عابر طريق إن كان رأى عبد القادر أو عرف شيئاً عن اختفائه، وكنا في الحي نتألم جميعاً، كأن عبد القادر أحد أولادنا حقاً، أحببناه، كان لطيف المعشر، وذكياً، لا يتذمر مهما تعب من توزيع الصحف. كان أبوه مسؤولاً عن توزيع الصحف في حي رأس بيروت، وخصوصاً نزلة أبو طالب والسادات والتنوخيين وكراكاس والروشة ومحيط الجامعة الأمريكية. في حين كان جار آخر يدعى أبو المجد مسؤولاً عن توزيع الصحف في عين المريسة والزيتونة والأسواق القديمة التي أصبحت في الحرب خطوط تماس بين المتحاربين.

قال لنا أبو المجد أنه حذر عبد الله كثيراً من إرسال إبنه بعيداً في توزيع الصحف: «ولد حلو كالسكرة، يجب أن تخاف عليه يا عبد الله، والبلد على كف عفريت، ما في دولة.. ولا أمن. والبلد في حرب لا تعرف لماذا تشتعل ولماذا تنطفىء».

لكن عبد الله يرد: «أنا لا أرسله بعيداً عن الحي، وكل الحي

يعامله كأنه أحد أولاده».

وبالفعل، فقد كان اختفاء عبد القادر إنذاراً لنا جميعاً، فصرنا أكثر حرصاً على أولادنا، لا ندعهم يتحركون بعيداً عن أنظارنا.

* * *

وفي صباح أحد الأيام، أرسلت إبني ليجلب لي قمصاناً من المصبغة وهي على مرأى عيني من شرفة المنزل. وحذرته: إنتبه، لا تقترب من أحد، خذ الرصيف والتصق بالجدران، وكن حذراً لأي شيء غير طبيعي. ضحك بسام قائلاً لي: يا أبي أنا صرت رجلاً. لا تخف علي، أستطيع أن أتدبر أمري، وقد فرحت أن يكون إبن العشرة، بهذا الوعي.

ظللت أراقب بسام حتى دخل إلى المصبغة، ثم خرج بعد قليل ومعه القمصان، توقف قليلاً. اقترب من سيارة مرسيدس متوقفه إلى طرف الرصيف. انتبهت أن في المرسيدس رجالاً. أحدهم يناديه، توجست خيفة. كنت سأترك مكاني وأنزل إلى الشارع. تجسدت أمام عيني فوراً مأساة عبد القادر.

ما زال بسام واقفاً أمام المرسيدس. كأن هناك من يحاوره من داخلها. أدركت سريعاً أن المأساة ستتكرر. صرخت من الشرفة على أبو زياد. رفع رأسه. قلت بفزع: الولد.. الولد يا أبو زياد.. الولد عند المصبغة.. أدرك الرجل ما أعني. فشهر مسدسه وهرول عبر الحقل. كان هناك حقل صغير يفصل بين المصبغة والحي، غالباً نقطعه سيراً على الأقدام إلى الطرف الآخر عند الحاجة.. هبطت درج المبنى ومسدسي في يدي إلى الشارع. إنتبه أبو ابراهيم ومنير والدكتور أسعد، صرخ أبو ابراهيم: شو القصة أبو بسام. صحت: ابني يا أبو ابراهيم،

المرسيدس، رجال في المرسيدس. أدركوا ما أنا فيه، لحقوا بي ومسدساتهم في أيديهم، التقينا بابني وسط الحقل وهو يركض، رمى القمصان بعيداً، اخترق الحقل من بين الأسلاك وراح يغوص في الأرض الموحلة ويركض بصعوبة. لمحنا رجلاً طويل القامة يركض خلفه. ما إن رآنا حتى انكفأ مسرعاً إلى المرسيدس. صرخت ببسام: عد إلى البيت.. عد إلى البيت. أسرعنا إلى المرسيدس التي أخذ قائدها يقودها بسرعة إلى الخلف. أطلق أبو زياد بضع طلقات نحوها. شهر أحد ركابها مدفعاً رشاشاً. صوب نحونا زخات من الرصاص. انبطحنا أرضاً وأطلقنا الرصاص باتجاه المرسيدس. سرعان ما انتبه بقية رجالات الحي. راحوا دون أن يعرفوا ما حدث يطلقون رصاص مسدساتهم صوب المرسيدس التي اصطدمت بسيارات متوقفة، رجالها جميعاً راحوا يطلقون الرصاص صوبنا. أصيب زجاجها. أصيب هيكلها. لكنها ظلت تتراجع وتشحّط دواليبها فوق الاسفلت الأسود، انعطفت من شارع فرعي كالبرق، واختفت.

حدث هرج ومرج في الحي، وخرج عبد الله وإبنه محمد يستفهمان ما حدث. فأدرك أن بسام كان سيتعرض للخطف.. وحاول عبد أن يركض صوب المصبغة وهو يردد: إبني معهم.. هؤلاء خطفوا إبني. وهرول خلفه محمد السمين جداً، فكانت خطواته بطيئة ومترددة. إلا أن أبو ابراهيم أوقف عبد الله أخيراً وصاح به: إلى أين تركض.. هل تتصوّر أن المرسيدس ستنتظرك.. إنهم لن يعودوا إلى هنا أبداً. لو كان أحدنا في سيارته لاستطاع اللحاق بهم.. أما الآن، لم يعد من أمل. لكن سنعطي أوصاف السيارة للمخفر وهم يعممونها فوراً. لعل

وعسى . . عد يا أخي عد لنفهم من الولد ما حدث.

التف الجميع حول بسام. كان يلهث مرعوباً، وجهه أصفر. يرتجف كعصفور مبلل بالماء. ثم طفر يبكي. تركناه قليلاً وأنا أضمه إلى جانبي ليستعيد بعض روعه. بينما راحت أمه تصيح من الشرفة: اسقوا الولد ماء، وأخذت تصرخ وتبكي كأن الولد مات أو قتل. صرخت من تحت: اسكتي . . اسكتي يا امرأة. الحمد لله حدث خير. لكنها لم تفارق الشرفة، بينما وقفت ابنتي لينا إلى جانبها تبكي بصوت عال.

داعب أبو ابراهيم بسام قائلاً:

ـ صرت رجلاً يا بسام. برافو. أنت بطل شجاع.

هدأ بسام عن البكاء متشاوفاً ومسروراً بكلمات أبو ابراهيم، وانتظرنا أكثر، حتى يستعيد هدوءه تماماً، تجمع حوله معظم أهل الحي نساء ورجالاً وأولاداً بمن فيهم عبد الله وزوجته وإبنه محمد وخاله منير. . شعر بسام بأهميته، شد من قامته ونظر نحوي كأنه يستأذن . . قلت له:

ـ تكلم يا حبيبي.

ثبّت نظراته نحو عبد الله وابنه محمد خاصة، لقد كان عبد القادر رفيقه في الحي، يلعبان معاً في الساحة كرة القدم عندما تكون الأحوال الأمنية هادئة. ويتسامران معاً على درج البناية عندما يندلع القصف. وغالباً ما اشتريا زجاجة بيبسي وشرباها معاً، وعندما اختفى عبد القادر وأدرك بسام ما حدث بكى. وكلما تذكره بكى . .

قال:

ـ خرجت من المصبغة وبين يدي قمصان البابا، فإذا برجل

من داخل السيارة المرسيدس ينـاديني : يا ولـد. . يـا ولـد. من فضلك تعال. ظننت أنهم يريدون أن يسألوني عن عنوان مـا. عن شخص. عن بيت ما. واقتربت، فلمحت أسلحة بأيـديهم، وكان أحدهم يلوّح لي بمائـة ليرة وهـو يقول: تعـال. . أنت ولد فقيـر. خـذ هذا المبلغ واعـطه لأهلك، أو اشتر لـك شيئاً. عـرفت فوراً أنهم هم. . هـم أنفسهم الذين خطفوا عبد القادر. فوليت هـارباً. لكن شعـرت أن أحدهم تـرجـل من السيـارة ولحق بي. فـأدركت أنهم يريدون خطفي مثل عبد القادر. الملاعين. ألقيت بالقمصان أرضـاً، ودخلت الحقل حتى أمنـع المـرسيـدس من اللحـاق بي. وهكذا وصلت إليكم.

صفق الجميع، بينما راح الدكتور يربت على ظهره مهنئاً:

ـ عفارم يا بطل. . أنت منذ اليوم بطل الحي.

رفـع بسام رأسـه مزهـواً بنفسه. . بينمـا كـان عبـد الله يبكي قائلاً:

ـ لا شك أنهم هم الذين خطفوا عبد القادر.

صاح منير:

ـ يا جماعة. . لماذا نحن واقفـون. . هيا إلى سيـارتي نلف فيها شوارع المنطقة علنا نصادفهم ثانية.

رحب الجميع بالفكرة وصعدنـا سيارة منيـر، واصطحبنـا معنا بسام الذي ظل يردد على مسمـع عبد الله: أنـا سأنقـذ عبد القـادر عمو. . بالقرآن سأنقذ عبد القادر.

سررت كثيراً بما حصل. وأدركت أن تنبيهاتي لابني أثمرت، وفرحت بهذه الشجاعة التي يتحلى بها.

قال بسام: أعرف مواصفات السيارة، إنهـا مرسيـدس طحينية

اللون، عتيقة، يعلوها الصدأ.

انطلق منير نحو الروشة حيث اختفت المرسيدس، وفتشنا شوارعها شارعاً شارعاً. كنا نحدق بكل سيارة مرسيدس تمر بنا.. ونسأل بسام.. فيقول ليست هي.. ليست هي. قلت لكم أن لونها طحينيٌ..

ذهبت جهودنا سدى، فاقترح الدكتور أن نذهب إلى مخفر الشرطة ونشكو لهم ما حدث.

في المخفر وضع الضابط شرطياً بتصرفنا ليسجل أقوالنا، وراح يدون ما نرويه.. ثم قال ضاحكاً بسخرية:

ـ هناك ألف سيارة وأكثر تحمل هذه الأوصاف، أنصحكم أن تديروا بالكم على أولادكم. صدقوني ما زلنا نحقق بجريمة خطف عبد القادر.. لم نهمل هذه القضية، لكن البلد فلتانة، والحرب خربت البلد وخربت الأخلاق أيضاً.. وخربتنا نحن الشرطة.. إذ ماذا نستطيع أن نفعل إزاء بلد كل من فيه مسلح من الآباء إلى الأبناء إلى النساء. لو قمت الآن وفتشتكم لوجدتكم تخالفون القانون.. بالله عليكم ألا تحملون أسلحة؟

كشف منير عن جنبه، فرأى الشرطي ذلك المسدس الضخم الذي يتمنطقه فقال:

ـ هه.. أنا صادق إذن.

ـ قال منير.

ـ وماذا تريدنا أن نفعل، نحن مثلكم نريد المحافظة على حياتنا، وأرزاقنا، وأسرنا. على الأقل بمسدس.. لكن ماذا يفعل المسدس أما الكلاشينكوف والمدافع الرشاشة التي يحملها المقاتلون إلى جانب اللصوص والمرتزقة وخاطفي الأولاد الذين لا

يملكون رحمة في قلوبهم.

أشار الشرطي إلى دفتر ضخم وقال:

ـ هنا، في هذا السجل آلاف الشكاوي التي تشبه شكواكم. لكن الحكومة معطلة والبلد فلتان يا اخوان، وما بيدنا حيلة. لعلكم تذكرون أيام كانت البلد بأيدينا. بيروت كالساعة. كانت لا تنام الليل، والناس إذا ناموا تركوا أبواب بيوتهم مفتوحة. الآن، أفلت كل شيء من أيدينا، ويدي هذه (رفعها عالياً) تعبت من كثرة ما سجّلت من قضايا أهم من قضيتكم.. لقد تعبنا يا اخوان.. ليس أمامكم إلا أن تدافعوا عن أنفسكم. هذا قدرنا. ولا نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك.

قال الدكتور أسعد:

ـ نعرف.. نعرف يا أخ، كل ما تقوله صحيحاً. لكن، على الأقل، نريد أن نسجل هذه الشكوى كوثيقة، يمكن لباحث يوماً أن يحتاجها.

«ضحكت في سري، الدكتور دائماً يفكر تفكيراً أكاديمياً».

عندما انسحبنا من المخفر، أجال الدكتور فيما حوله، وفعلنا مثله. البناء المواجه للمخفر مدمر تماماً ومهجور. كما أن واجهة المخفر نفسها ثقبها الرصاص ودمرت القنابل بعض أطرافها. في الزاوية الأخرى تبدو الحياة ما زالت منتصرة داخل الجامعة الأمريكية، فلم تطلها الحرب بعد، حدائقها خضراء. والطلاب يتحركون بنشاط.

قال الدكتور:

ـ رزق الله على أيام زمان يا أبو بسّام.. إيه.. كيف أدخلوا بيروت في هذا المنقلب.. ماذا فعلت بنا الحرب؟ بيروت

الجميلة التي كانت حلمنا وحلم كل الأحرار في هذا الوطن التعس.. هل تتذكر كيف كان يلجأ إليها رجال الفكر والكتاب والشعراء والفنانون، حتى كادت تصبح مدينة الشعر والفن. اليوتوبيا التي يحلم بها الفنان. بل صارت هكذا حقاً. الكاتب يكتب ما يشاء دون خوف. دون رقابة. دون خشية من أن يدفع الإنسان ثمن كلمته غالياً. أين بيروت الآن من تلك.. أين رائحة هذه من شذا تلك؟.

قلت له:

ـ ستعود يا أسعد.. صدقني ستعود كما كانت.

صمت الدكتور، أشعل سيكارة وراح يمجها بعنف، وفيما رأسه وعنقه يدوران حول المكان، لمحت تلك الدمعة الكبيرة في عينيه اللتين بدتا لي الآن كأنهما جمرتان من نار.

كانت بيروت بالنسبة للدكتور الحلم الذي انطفأ، وكان متأكداً باستمرار أنها لن تعود كما كانت من قبل. لن يعود شارع الحمراء نظيفاً ومتألقاً، لن تعود مقاهي الرصيف فيه حيث تنتشر الناس على الأرصفة مطمئنة إلى كتابها، أو كأسها، أو فنجان قهوتها:

ـ إنها تخيفهم، كانت رعبهم دائماً، ففي صحفها وأنديتها ومسرحها ومقاهيها تفضح كل الممارسات ضد الإنسان في هذه العاصمة أو تلك. كانت حريتها رعبهم الدائم، ديمقراطيتها خوفهم، في النهاية اتفقوا جميعاً على تصفيتها، على قطع رأسها.

* * *

الدكتور نفسه تعرض للخطف والاختفاء نحو تسعين يوماً. ولكن قبل فترة الحرب الأهلية بيوم واحد. عاد بعد غياب ثلاثة شهور محطماً، نحيلاً متعباً. ولم يروِّ لأهل الحي ما حدث. لكن مع الأيام، كان يروي نتفاً من قصة اختفائه، ثم تشكلت قصته كاملة، إذ كان ضحية وشاية كاذبة أعدت باتقان للإيقاع به، ثم اكتشف الجهاز الذي خطفه بأنه بريء، فأطلق سراحه، إلا أن الدكتور منذ ذلك الوقت صار حذراً، لا يكاد يخرج من بيته إلا إضطراراً. وانصرف إلى التأليف في المجال نفسه الذي ظل يكتب فيه: المسألة الفلسطينية، وبسبب موضوعيته في الكتابة عن هذه القضية، فصل من الجامعة الأمريكية، في وقت كانت الجامعة لا تسمح لأساتذتها بالكتابة في الشؤون السياسية المباشرة.

عندما نشبت الحرب الأهلية، صار سكان حي رأس بيروت أكثر تماسكاً، وصارت سهرات البيوت تسلية الجيران الوحيدة. لأن التجول والانتقال من مكان إلى مكان أصبح غير مأمون، وخصوصاً في الليل.

سكان بنايتَيْ العالول وشاتيلا في حي التنوخيين، صاروا شبه عائلة واحدة، وهم خليط من مختلف الطوائف المتعددة التي تتوزع في البلد. في المساء يتحلقون حلقات حلقات حول اثنين يلعبان لعبة الطاولة. أو حول أربعة أو خمسة يلعبون الورق: لعبة الأربعة عشر، أو الطرنيب. وأحياناً يقامرون بمبالغ صغيرة، وتمتد سهراتهم حتى الخيوط الأولى من الفجر، إلا في حالات القصف المتبادل.

كانت الحرب في البداية مقتصرة على أحياء بعيدة عن رأس

بيروت، بين حيّ الشياح وعين الرمانـة، حيث في الأول الأكثريـة المسلمة وفي الثانية الأكثرية المسيحية. من هناك انطلقت الشرارة الأولى، كانت مجموعة من الفلسطينيين تـركب باصـاً، وهي تتجه إلى مخيم تل الزعتر في المنطقة الشرقية بكامـل أسلحتها. فكمن لها حزب الكتائب اللبناني، وأطلق رجاله الرصاص على الباص. وهكذا، تطورت الأمـور، إلى أن حدثت الصـدامات الكبيـرة بين الفلسطينيين ورجال حـزب الكتائب.. وكـالنار تمتـد في الهشيم، امتــدت إلى الجميـع فــانحـازت بيــروت الغـربيــة إلى جـانب الفلسطينيين وانحازت بيروت الشرقية إلى الكتائبيين..

تـوقفت الحرب فيمـا بعـد، خمسـة شهـور، وظن النـاس أن الحرب انتهت فعلاً.. لكن النار كانت ما تزال تحت الـرماد.. إذ عادت الحرب أعنف وأشرس، تحت طرح شعارات مختلفة، كـل مـرة تتجه بـاتجاه.. وشكلت لجـان هنـا وهنـاك، مهمتهـا السعي لإيقـاف إطلاق النـار. تنجح تـارة، وتفشل تـارات، حتى صارت هـذه الحكايـة مملة، ولم يعد أحـد يهتم باخبـار هذه اللجـان ولا باخبار قرارات وقف اطلاق النار.

في البــدايـة، ظلت أحيــاء رأس بيـروت بمنــأى عن هــذه الحرب، محافظة على الاختلاط الأخـوي بين الطوائف. وشـارع الحمراء الذي أصبح ملتقى الطبقات المثقفة خـلال أيام السـلام، قـام كرديف للجـامعة الأمـريكية، وحتى الأيـام الأولى من الحرب كـان أجمل شـوارع المـدينـة التجـاريـة، وعلى أرصفتـه تـوزعت المقاهي الأنيقة، وإلى خلف الشـارع جهة البحـر، تقع الجـامعة الأمريكية بـأبنيتها ذات الـطراز الأميركي الخـاص، بسعتها وسعـة واجهتها المطلة على البحر، وفي الطرف الآخر من الشارع جامعة

أخرى يطلقون عليها الـ «B.U.C» وكان اسمها بالعربية «كلية بيروت الجامعية للبنات» وعندما سمح للاختلاط فيها، سميت كلية بيروت الجامعية. وفي مدخل الشارع من جهة الشرق كلية الحقوق التابعة للجامعة اللبنانية، والتي كانت أول كلية للجامعة المذكورة، ومع نمو الشارع، انتقلت إليه أهم الصحف والمجلات اليومية. وتزايدت الحركة في الشارع حيث انتقلت إليه سفارات ومراكز ثقافية تابعة لدول خارجية، وشيدت فيه مسارح ودور سينما، ومكتبات، ومطاعم على أفخم طراز، ومحلات تجارية تبيع بضاعات باريس ولندن قبل باريس ولندن. حتى أصبح مركز المدينة وصار شارعاً لا ينام طوال أيام الإزدهار، بل وحتى السنين الأولى من الحرب.

* * *

الفصل الثالث

كـانت هناك محـاولات كثيرة لإيقـاف الحرب دون جـدوى، وبعد أن فشلت القوى المحليـة في وضع حـد لها، تـدخلت قوى خارجية، حتى أن جيشاً كاملاً دخل البلاد من سوريـا في محاولـة لإيقافها، وبالفعل استـطاع هذا الجيش لفتـرة بضعة أشهـر إيقاف شلال الدم، ومثـل كل مـرة، اعتقدت النـاس أن الحرب انتهت، لكنهـا في الواقـع كـانت عبـارة عن هـدنـة، ومـرحلة استـراحـة، استعدت كل الأطراف خلالها لجلب السلاح الأكثر خطورة والأكثر فتكاً، وعادت الحـرب من جديـد أشد شـراسة وأقسى. وأخـذت تكبـر وتنتشـر، إلى أن عمت كـل البلد من أقصـاه إلى أقصـاه، وقـامت في مناطقـه المتعددة دويـلات داخل دويـلات. ثم نشأت عصابات تقتل وتنهب وتشيع الفوضى والخوف في كل مكان.

في هـذا الإطار، أخـذ الناس يعتـادون هـذا الجـو الخـانق، وصاروا يتكيفون مع الواقـع. بعض الناس انتمى إلى الميليشيـات المسلحـة، بعضهم عن إيمـان وبعضهم من أجـل لقمـة العيش. لكن الملفت أن معظم سكان حي رأس بيروت ظلوا يرفضون هذه الحـرب، وظل شبـانه بمنـأى عنها إلا القليـل القليل منهم، لكن الحرب بدمارها وحريقها وجحيمها انعكست على الجميع.

في معـظم الأحيـان، كـان سكـان رأس بيـروت يتعـرضــون

لهجمات العصابات التي دأبت على ترويعهم وسرقة سياراتهم والاعتداء عليهم داخل بيوتهم، مما إضطرهم للدفاع عن أنفسهم أن يتسلحوا أيضاً، وأن يحصنوا أبنيتهم بأبواب من الحديد والفولاذ تمنع هذه العصابات من اقتحام منازلهم.

في تلك الفترة كان يزورنا في الحي بين الحين والآخر رجل مقاومة وضابط كبير فيها يدعى أبو محمد، أحببناه، وأعطيناه ثقتنا، كان يجلب معه في كل مرة، مواد غذائية نوزعها على العائلات التي فقدت معيلها، أو على الأسر الفقيرة، خبزاً وزيتاً وأرزاً وعلب سمنة، وبرغل، ومعلبات مختلفة. كانت هذه الأشياء شبه مفقودة، وعندما كان يجيء بها أبو محمد تفرح تلك العائلات كثيراً، وترفع العجائز فيها أيديهن إلى السماء ويدعون الله أن ينصر أبو محمد ضد الأعداء. وعندما شكونا له من وضع الحي والخوف من العصابات، اقترح علينا أن يجلب لنا سلاحاً يدربنا عليه، فكبرت محبتنا له..

وفعلاً لم يخلف بوعده، حمل لنا ذات يوم صندوقاً من البنادق الرشاشة ساعدته فيها مجموعة رجال من معاونيه.. وبدأ كل ليلة يدربنا على السلاح، وكيف نفك البندقية ثم نجمعها من جديد، إلى أن حدد يوماً يأخذنا فيه إلى حقل رمي يدربنا فيه على إطلاق الرصاص. وقسّمنا عدة مجموعات، كل مجموعة من ثلاثة أو أربعة أشخاص، وكان حقل الرمي الذي تسيطر عليه منظمة أبو محمد يقع على هضبة في منطقة السعديات التي تبعد عن بيروت بضعة كيلومترات في اتجاه مدينة صيدا.

أعطانا أبو محمد أرقام هواتف يمكن الاتصال بها ساعة نشاء إذا احتجنا إلى دعم أو إلى حاجات أخرى. ومنذ ذلك اليوم

أصبح أبو محمد كأحد أبناء الحي، يتعشى عند هذا ويتغدى عند ذاك، وغالباً، إذا اشتد القصف يبقى عندنا حتى يهدأ، يلعب معنا النرد أو الورق طوال الليل، وأحياناً يصطحب ابنته الصغيرة عبير لتلعب مع إبنتي أو إبني بسام أو بقية أطفال الحي.

ومنذ ذلك اليوم اتفق الجميع على التناوب على حراسة مساكنهم بمظاهر توحي أن كل السكان مستعدون للتصدي، مما حدّ فعلاً من اعتداء هذه العصابات على حيّنا بالذات، أو محاولتها الإقدام على سرقة سياراتنا.. ومع ذلك فإن أكثر من سيارة سُرقت في غفلة منا.

كان الدكتور أسعد أحد الذين يتناوبون الحراسة، كذلك الشبان الصغار، وإبني بسام الذي صار أهل الحي ينادونه «يا بطل» صار يشاركنا في الحراسة، البندقية أطول منه، ومع ذلك كان مصرّاً، أن يكون معي، عندما تحين فترة حراستي، حتى ابنتي لينا كانت تراقب الطريق من الشرفة، وتصفّر لنا إذا رأت شبحاً يتحرك، أو دخلت الحي سيارة مسرعة.

وعندما كانت سيارات رجال المقاومة تمر سريعاً من أمام المبنى، يشاهدون الولد الذي اعتمر خطته المرقعة، وحمل بندقيته الرشاشة يجوب المكان من أول المدخل حتى نهايته، تماماً، كما يفعل العسكري في نوبة حراسته، يحيونه بإشارة النصر، منادين عليه: مساء الخير يا بطل.. ويزداد تشوفاً بنفسه فينفخ صدره ويشد من قامته ويتحرك أمام المبنى كحارس شجاع لا يهاب الموت، بالطبع، أكون معه دائماً، لكن بعض الأحيان أسمح لنفسي بإغفاءة قليلة، خصوصاً عندما تكون فترة حراستي بعد منتصف الليل، أما هو فيظل صاحياً ومتنبهاً، وإذا لمح سيارة

غريبة تقطع الشارع، يأخذ حذره منزوياً إلى طرف الجدار من داخل الممر، ومستعداً لأي حركة.

كانت الميليشيات التي اتخذت حديثاً مكاتب لها في المنطقة، تتصارع على النفوذ ويتحول الصراع أحياناً إلى قتال شرس في شوارع الحي وأزقته، يذهب فيه غالباً، ضحايا من غير المقاتلين، إذ يتراشق رجال الميليشيات بالأسلحة تراشقاً عشوائياً، فتقتحم صواريخ الأربي جي المنازل وغرف النوم وتنهدم على رؤوس أصحابها. وكان السكان المنبطحون على أرض الممرات في منازلهم يسمعون صراخ المتقاتلين وشتائمهم القذرة، بل أحياناً يكون أحد أخوين في هذه الميليشيا والآخر في الطرف الآخر.. وهي مشاهد تكررت كثيراً هنا وهناك. وكان سكان الحي يعرفون المتقاتلين من أصواتهم وهم يتبادلون الشتائم، وعندما تتدخل اللجان لإيقاف إطلاق النار، وينجحون بعد أخذ ورد، نرى حلقات من هؤلاء وأولئك، معاً، يلعبون القمار، أو يتسللون إلى شاطىء البحر وراء الحمام العسكري ليدخنوا الحشيشة، أو يتعاطوا المسكرات.. وإذا عاد التأزم بينهم، أسرع كل واحد إلى فريقه ليلعبوا اللعبة ذاتها.

كان الدكتور أسعد يتساءل، هل الحرب لعبة؟ هل هي لمجرد حمل السلاح والتعامل معه واطلاق الرصاص والقنابل عشوائياً على الناس. الحرب مفسدة، تعطل القلوب والضمائر، وتخلط الحابل بالنابل.

ويتذكر الدكتور حرب فيتنام، فيروي لنا منها قصصاً، تكاد تكون شبيهة بما نرى هنا كل يوم.

هذه الصورة القاسية لم تكن تتكرر في هذا الطرف من

المدينة، بل هناك أيضاً، وفي كل مكان. حتى أن موزع الصحف الآخر أبو المجد كان يروي لنا قصصاً وحكايا عن أحوال المتقاتلين في هذا الجانب أو ذاك في عين المريسة والأسواق التجارية وخطوط التماس. روى لنا أن المتقاتلين في هذا الجانب وذاك، وأثناء توقف القتال كلما نجحت إلى ذلك اللجان، يتبادلون السكائر المعبأة، ويشربون العرق، ويغنون الأوف والميجانا، ويتحسرون على لبنان القديم، وإذا سمعوا صوت القذائف من جديد تراكضوا إلى خلف متاريسهم دون أن يطلق أحدهم رصاصة على الآخر من الخلف.

ثم يبدأ التراشق فيما بينهم هم أنفسهم الذين كانوا يسكرون ويغنون معاً الأغاني الشعبية، ويتحاربون بالزجل ذي الإيقاع الجميل، مثل الفرق المحترفة لهذا الفن اللبناني المميز، والذي كان اللبنانيون في الجبل، وفي زحلة والبقاع، وفي بيروت وكسروان، يقضون سهرات ممتعة حتى الصباح وهم ينصتون إلى التباري بين زغلول الدامور وفرقته والفرق الأخرى، أو محمد مصطفى في الجنوب، هم أنفسهم يعودون إلى القتال فيقتل من يقتل ويجرح من يجرح.

كان أبو ابراهيم يعلق على حكايا أبو المجد قائلاً: آه لو أن الحرب كلها زجلاً، حرب كلامية دون رصاص وقنابل.

فيرد نبيل (ونناديه عادة بأبو النبل):

ـ لقد تخلى الله عنا يا أبو ابراهيم.

فيجيب:

ـ لا تقنطوا من رحمة الله يا ابني.

* * *

ذات يـوم اختفى أبـو المجـد، كـان يسكن بيتـاً قـديمـاً في الحي ، ظل على حاله منذ نصف قرن إلى جانب البنايات الشاهقة التي صعدت أيام الطفرة الاقتصادية في بدايات عام ١٩٧٠ وحتى ١٩٨٠ ، بيته كان من طـراز البيوت الجبليـة ، بيت عتيق ذو قرميـد أحمر، مؤلف من غرفتين ومطبخ وحمـام. كانت مهنـة أبو المجـد في توزيع الصحف قد ورثها أباً عن جد، كان متزوجـاً، وكان لـه ابن واحد اسمه مجد، لكن الموت عاجله مع أمـه عندمـا قتلا في بداية الحرب، بسقوط قذيفة صغيـرة على رأسيهما وهمـا يشربـان الشـاي في الحديقـة الصغيرة، لم يسقط سـواهما في الحي حتى الآن. . حزن أبو المجد مثل بقيـة أهل الحي ، ومـع تكاثـر القتلى يـوماً بعـد يوم، بـدأنـا نتنـاسى ، ونحـرص ألا نـذكّـر أبـو المجـد بمأساتـه. وظل على عهـده في توزيـع الصحف، يخاطـر بحياتـه لتـوصيـل الصحف إلى أكبـر عـدد ممكن من النـاس، وكـانت الصحف التي يتـولى بيعهـا، الأكثـر مبيعـاً بين جميـع البـاعـة الآخرين.

أبو ابراهيم الذي يعتبر أبو المجد أخـاه، وتربيـا معاً في هـذا الحي منذ كانا طفلين، ظل يسأل باعة الصحف، وشركة التوزيـع التي كان يأخذ الصحف منها، لكن أحداً لم يعرف ما هو مصيره. بـل أن أحد رفـاقه قـال ذات يوم أن أبـو المجد قتـل على خطوط التماس، وهو يوزع صحفه كالمعتاد. أكد أنه رأى جثته أما عينيه، وأن المقاتلين الذين أحبوه دائماً. توقفوا عن القصف المتبـادل، وأقاموا له مجتمعين جنازة شيعوه خلالهـا، وأطلقوا رصـاصاً كثيـراً في الفضـاء تحية لجثمـانـه وهم يعبـرون بـه المنـطقـة إلى مقبـرة الشهداء.

أبو ابراهيم الذي صدّق هذا الكلام، زار مقابر بيروت مقبرة مقبرة دون أن يعثر على قبر له. وعاد ليسأل رفيقه: هل رأى جثة أبو المجد بأم عينيه؟ كما ادعى ـ فتردد الرجل ثم قال: أنا لم أرها.. لكنهم قالوا لي.. واكتشف أبو ابراهيم أن الرجل مشهور بكذبه بين أصحابه.. ولكن أين أبو المجد؟

أبو ابراهيم يتذكر أنه نصحه تكراراً الكف عن الذهاب إلى خطوط التماس، إلّا أن أبو المجد كان يقول أن مقاتلي خطوط التماس هم الأكثر قراءة للصحف من بقية الناس، إنهم يبحثون عن مصيرهم عبر الأخبار المتناقضة، ويريدون جميعاً أن تقف الحرب ليذهب كل منهم إلى حياته العادية. وبسبب هذا التوزيع، كان يوفر دخلاً جيداً. فحذره أبو ابراهيم:

ــ ربما تدفع حياتك ثمناً لذلك.

لكن أبو المجد يجيب:

ــ طز على هذه الحياة، كل يوم أراهم، شباناً بعمر الورد بموتون يقتلون، ولا أحد يلمّهم من الطريق، والله يا أبو ابراهيم أنا رجل مؤمن، يأتيكم الموت لو كنتم في بروج مشيّدة. ألا تتذكر أم المجد ومجد؟ لقد قتلا داخل البيت، قذيفة من آخر الدنيا لم تسقط إلّا فوق رأسيهما. قذيفة صغيرة واحدة، لم تتكرر، لم تصطدم بالمبنى الضخم الذي يجاور البيت، كأن مطلق القذيفة كان هدفه فقط أن يأخذ مني إبني الوحيد وزوجتي المسكينة.

* * *

شهور عديدة مرت دون أن نسمع شيئاً عن أبو المجد، حتى بدأنا في الحي نعتقد أنه قتل على خطوط التماس، ولم يجد من يلمه من الطريق، ربما أهالوا عليه التراب وهو في المكان الذي

قتل فيه، كان يحدث ذلك كثيراً لأمثاله، ثم تنشر الصحف أن الشرطة وجدت جثة لقتيل مجهول الهوية، الفقراء كانوا يترصدون القتلى، لأخذ كل ما في جيوبهم، حتى الهوية، حتى جواز السفر، ليستطيع الواحد منهم أن يدعي أنه هو صاحب هذه الهوية أو جواز السفر، ففي لبنان سكان أصليون ولدوا ونموا في البلد ولم يعطوا جنسية، أمثال عرب وادي خالد، والكرنتينا، والأكراد أيضاً، كان في حساب السلطة أن لا يخل التوازن الطائفي، وكان هؤلاء أفقر من في البلد. أحدهم لا يكاد يحصل إلّا بصعوبة على جنسية كانوا يسمونها «جنسية قيد الدرس»، وكانت معاناة هؤلاء بسبب ذلك قاسية ومهينة.

اضطر أبو ابراهيم أخيراً أن يسمح لسيدة فقيرة مع ابنها أن تسكن منزل أبو المجد بعد أن قتل زوجها في سوق الخضار في حي مار الياس بحادث سيارة مفخخة، ثم فقدت بيتها فيما بعد بقذيفة دمرته وأحرقته، ولم تكن ذلك الوقت في بيتها بل في الملجأ، وخرجت لتشهد الفجيعة الثانية بحياتها، وهي لا تملك شروى نقير لبناء ما تهدّم.

* * *

في صبيحة يوم حار، فوجىء أبو ابراهيم، كما فوجىء أبو زهير نفسه وكل سكان الحي، بسيارة مرسيدس فخمة تقف على الرصيف الملاصق لحديقة أبو ابراهيم الرصيفية ويترجل منها شخص سرعان ما تبين للجميع أنه أبو المجد، حليق الذقن والشوارب، يرتدي بذلة أنيقة وتتدلى من عنقه ربطة فاقعة، ليس في لباسه أي ذوق، لكن كل ما كان يرتديه دليل على الغنى. وأسرع ليعانق أبو ابراهيم، وبين دهشة الجميع وتساؤلاتهم قال

أبو المجد:

ــ والله يا أبو ابراهيم التجارة أفضل.. تشتري وتبيع. وفي كل مرة تربح أكثر.

وهنا تدخل أبو زهير صائحاً:

ــ تجارة يا أبو المجد. تجارة ماذا والبلد خربانة.. بالله أخبرنا، نحن أولاد حي، وأنت تعرف الحال، أصبحنا على الحصيرة.

قال أبو المجد:

ــ والله تجارة.. تجارة خفيفة ناعمة.. بين بعلبك والبلد.

ولعل الدكتور أسعد أدرك وحده ما قصد الرجل، عندما همس في أذني:

ــ هذا والله يتحدث عن الحشيشة.

أبو ابراهيم أدرك أيضاً، فصاح بالرجل:

ــ إن كنت تقصد... والله هذه تجارة حرام، عليّ الطلاق لا أقرب تجارة من هذا النوع لو مت من الجوع.

لم يأبه أبو المجد لكل هذا الكلام، صعد إلى سيارته الفخمة، أدار محركها، ثم رجع بها إلى الوراء صاعداً نحو بيته القديم. فأسرع أبو ابراهيم للحاق به، وما إن ترجل أبو المجد، حتى بادره أبو ابراهيم قائلاً:

ــ إسمع يا أبو المجد، لا تتحرك قبل أن أقول لك.. بعد أن فقدنا الأمل بعودتك سمحت لسيدة مهجرة مع طفلها أن تسكن منزلك. إذا أردت أطلب منها بنفسك أن تترك المنزل.

قال أبو المجد:

ــ لا والله، إنت تمون يا أبو ابراهيم، خيراً فعلت، لكن

لدي أوراق ضرورية في المنزل أريد الحصول عليها.

وطرقا على المرأة الباب، وعندما فتحته رمقها أبو المجد، إنها امرأة جميلة، ممتلئة الجسد.. كانت ستسأل غير أن أبو ابراهيم قال لها:

ـ يا ست.. أبو المجد، صاحب البيت.

فتوجست المرأة خيفة، وترقرقت عيناها بالدموع، فأسرع أبو المجد يطمئنها:

ـ لا تخافي.. لا تخافي.. ستبقين في البيت إلى أن يشاء الله.. لكن هنا بعض الأشياء الخاصة يجب أن آخذها إذا سمحت.

ترك أبو ابراهيم المكان منسحباً، فيما دخل أبو المجد منزله وغاب فيه طويلاً، وعندما خرج.. ودعته المرأة، وقد بدا على وجهها ارتياح كبير.

* * *

أصبح أبو المجد بعد هذه الزيارة، حديث الحي بكامله، بل أن بعض الشبان تمنوا أن يتعاونوا معه. فنهرهم أبو ابراهيم الواحد تلو الآخر. قال الدكتور أسعد:

ـ على كل حال زيارته لنا ظاهرة وفاء. في كل حرب تنشأ طفيليات من هذا النوع، وفي كل حرب نسمع عن أغنياء حرب اغتنوا بسببها: أما بتجارة السلاح، أو بتجارة الحشيش.. هذا يحدث دائماً، وأبو المجد، يبدو، أنه أمسك بالقناة التي ستجعل منه ثري حرب.

* * *

الفصل الرابع

مع هدير المدافع، والرصاص والمتفجرات والصواريخ، كان سكان الحي لا يسمعون في لحظات الهدوء إلا كركرة نرجيلة أبو زهير التي كانت لا تفارقه، وهو يستند إلى جدار كوخه الخشبي، مشمراً سرواله القصير عن فخذيه، متضاحكاً، وأحياناً، محاوراً أشباحاً ما بكلمات غير مفهومة. أشباح، كان يقول عنها أنها رفاقه تحت الأرض:

ــ ومن هم الذين تحت الأرض يا أبو زهير؟

فيبتدرك بالقول:

ــ استغفر الله.. استغفر الله.. هل أنت كافر يا ولد. إنهم الجان، إخوتي تحت الأرض.. ألست مسلماً؟ ألا تقرأ القرآن.. يا ولد.. القرآن ذكرهم في آياته البينات.

الغريب أن معظم السكان يصدقون أبو زهير، بل، لعل الوقائع كلها تؤكد أن له حظوة عند هؤلاء، يحمونه من كل سوء. وقصة سيارة التاكسي التي كان يملكها، لم يجد أحد لها تفسيراً؟ وإنها قصة تروى.

كان أبو زهير يعمل على سيارة أجرة يمتلكها بين بحمدون وبيروت، ينقل فيها الركاب صعوداً ونزولاً بهمة الشباب. وذات يوم، كان يقود السيارة نحو بيروت، وما إن وصل إلى مدخل

الحازمية، حتى أوقف السيارة جانباً، وتركها بركـابها ومضى مشيـاً على الأقدام نحو المـدينة. . أحـد الركـاب نادى عليـه، ثم لحقه وأمسك به قائلاً: «وين يا أبو زهير تركتنا. تعال وقـد السيارة» لكن بدا للرجل أن أبو زهير كأنه مسكون بشيء قاس، إذ لم يـأبه لـه، ولم يتفوّه بكلمة، وظل يبتعد بخطوات ثابتة متجهاً نحو المدينة.

عاد الرجل إلى بقية الـركاب وقـال لهم: «لعل خبـلاً ما مسّ أبو زهير يا إخوان. . فماذا تقترحون»؟ قال أحدهـم: نقود السيـارة نحن، وعندما نصل بيروت نسلم السيـارة إلى أبو زهيـر. . أعرف أين يقيم وأعـرف أسرتـه. وبالفعـل قاد الـرجل السيـارة. ومـا إن انعطف نحو المدينة نزولاً حتى فقد السيـطرة عليها، واصـطدمت بعمـود الكهربـاء ثم، انقلبت على نفسها. قتـل السائق، أمـا بقية الركاب فقد أصيبوا بجروح، ونقلوا إلى المستشفى. وعندما ألقت الشـرطة القبض على أبـو زهير ليحققـوا معه، قـال لهم: إخـوتي تحت الأرض حذروني، قالوا أن السيارة ستصطدم، وسأمـوت إن بقيت فيهـا، فتركتهـا ممتثلاً لأوامـرهم، أنا لا أستـطيع أن أعصي أوامـرهم، والذي حـدث فيمـا بعـد هـو الـذي حـذروني منـه. . ولا شـك أن الشـرطـة استغـربت الأمـر، واعتقـدت أن الـرجـل مجنـون. . وعنـدمـا حققـوا في الأمـر، سمعـوا من سكـان الحي ترهات من هذا النوع، وان حكاية الجان والعفاريت متلبسة الرجل تماماً لا يحيد عنها، وغير ذلك فليس هو مجنون، إنه يتصرف كما يتصرف العقلاء، بل ويتصرف بشجاعة في الأوضـاع التي تتطلب شجاعة فـائقة، لأنـه يعتقد أن هـذه الأشباح تحميـه، وكان دائمـاً ينجـو من موت محقق، فتكـون مفاجـأة حقيقية للنـاس المحيطين بـه، حتى باتـوا يصدقـون كل مـا يقول. وإن مسـاً ما قـد نال من

أبو زهير، مساً أو معجزة تحيطه بالرعاية والعناية. هل كان ذلك حقيقة؟ لا أحد يدري . . وكانت علاقة أبو زهير بالحرب علاقة عجيبة، فهو يتصرف كأنه يعرف كل شيء، ويدرك ما يحدث . . بل كان والحرب سجالاً، إذا صرخ صرخته المدوية «إضرب» سمع أهل الحي صوت القذائف من جديد. وكان بعض الأحيان يصرح كلمته المرادفة «عالتمر»، فإذا سأله أحد ما معنى هذه الكلمة، قال ضاحكاً: هذه كلمة السر. وبها يساعدنا الله على حمايتكم.

حتى نبيل (أبو النبل) أقسم بالله، أنه رأى بأم عينيه قذيفة ملتهبة تقترب من مبنى شاتيلا. فصرخ أبو زهير «عالتمر» . . فإذا بها تنحرف بشدة لتسقط في بؤرة على الروشة. لكن الدكتور فسر ذلك تفسيراً علمياً، وقال: إنه الحدس، أو التوجس أو الإحساس المبكر بالخطر. قبل كل إنفجار وآخر . . ويرد أبو النبل: ولكن ماذا تفسر انحراف القذيفة عن البناية عندما صرخ عالتمر. ويصمت أسعد، ويحار ماذا يجيب . . ثم يقول: والله هذا ما يحيرني . . هل رأيت يا نبيل القذيفة تنحرف . . أم أنك كنت تتخيل ذلك؟ . . يصمت نبيل ويفكر كثيراً . . ثم يقول: لا أدري . . لا أدري . . ثمة سر هائل في الموضوع . . سر هائل لا ندرك كنهه لا أنا ولا أنت.

أما إبني بسام الذي كان يصغي دائماً لأحاديثنا فقال ببراءة طفولته: ربما شيفرة سرية يا أبي . . واستغربت من أين يعرف حكاية الشيفرة . . فسألته: ولك بسام ما هي الشيفرة السرية ـ ماذا تعرف عنها؟

قال ضاحكاً: تذكرت عمو أبو محمد، كان يتحدث من

سيارته بالووكي توكي كلمات ما عرفت لها معنى، وعندما انتهى سألته: عمو أبو محمد.. ماذا كنت تتكلم؟ فقال لي ضاحكاً: أنت ما بتعرف.. هيدي شيفرة سرية عمو.. يعني يا بابا الكلام غير المفهوم هو يعني شيفرة سرية... فعلق أسعد وهو يربت على كتف بسام: انتظر من هذا الولد مستقبلاً باهراً في مجال الحرب والأسرار.. فرحت أردد في سري: لا سمح الله.. لا سمح الله.

وفي الحقيقة، فان الجميع في الحي كانوا يلاحظون كأن ثمة عناية إلهية تشمل هذا الزقاق الضيق من حي التنوخيين، فلم تسقط القذائف فيه إلا نادراً، ولعلها القذيفة الوحيدة التي أودت ذات يوم، بزوجة أبو المجد وابنه، ومن الغريب الدهشة المذهلة التي أصابتنا ذلك اليوم.. إذ لم يكن أبو زهير موجوداً في الحي لحظة سقوط القذيفة.. حتى أن أم ابراهيم سبحت بالله وحمدته، وقالت تخاطبنا: عليكم ألا تسمحوا لأبو زهير بمغادرة الحي.. إسعوا أن تجلبوا له كل ما يريد دون أن يتزحزح من الحي.. يا أولادي.. إن الله شمله بعنايته، ولعلنا مشمولون بعناية الله بسببه. وبالفعل، فقد صرنا نجلب لأبو زهير التبغ.. وكل الأشياء التي يريدها من مواد غذائية وما أشبه.. وصرنا نعامله كأنه الملك ونحن تابعوه، وصار هو مزهواً يضاحك الجميع، ويروي حكايا غريبة، حدثت له في الليل لا يكاد يقبل بها العقل، حتى أنه ذات يوم قال أنه منع بعصاه دخول سيارات المسلحين حتى لا يزعجوا الأولاد النائمين.. ومن كان يصدق أن سيارة مسلحين تمتثل لعصا كهل مثل أبو زهير.. لولا أن إخوته تحت الأرض، وبالفعل، يمدّونه بالقوة الخفية؟

ذات ليلة، نشبت معـركـة بين تنـظيمين محليين، فـارتـد الجـالسـون عن شـرفـات بيـوتهم إلى الـداخـل، وأطفـأ السكـان الشموع الموقدة، ومصابيح الغاز. صاح الدكتـور أسعد من شـرفة بيته: اغلقوا النوافذ يا ناس، وانبطحوا وراء الجدران.

عنفت المعركة حتى خيل للجميع أنهـا صارت داخـل البيوت وبين الممـرات، وبالتـأكيد، فـان جميع السكـان انبطحـوا أرضـاً داخل بيوتهم، واتخذوا المواقـع الأكثر أمنـاً، خوفـاً من صواريـخ الأربيجيات التي تطلق عشـوائياً دون هـدف، فحملتُها من أبـطال هذه الحرب، صبيـة صغار، لم يعـد الأهل يستـطيعون منعهم من اللعب بهـذا العبث القاتـل، إذ صـارت الحـرب جزءاً من حيـاة النـاس، وصـار اليـوم الـذي لا يسمعـون فيـه أُصـوات المـدافـع والرشاشات يشعرهم بالقلق، لأن ذلك كـان يعني معركـة من نوع آخر مثل اقتحـام بيوت النـاس وسرقتهـا، أو معارك التصفيـة على النفوذ في الأحياء المختلفة من المدينـة، والتي امتدت لاحقـاً إلى أحياء رأس بيروت بالذات.

وفيما كانت المعركة محتـدمة، سمـع السكان ومن بينهم أبـو زهير نفسه، الذي دخل كوخه الخشبي تلافياً للرصـاص الطائش، من ينادي على أم خضر بهلع: يا أم خضر.. يا أم خضر.. إبنك خضر مضرج بدمائه على الناصية قرب الصيدلية، تخـرج أم خضر إلى الشرفة وهي تولول وتبكي.. فيصـرخ أبو زهيـر وقد أطـل من كوخه الخشبي الذي يقع ـ تقريباً ـ تحت شـرفة أم خضـر: أدخلي يا امرأة.. أدخلي إلى بيتك.. أنا سأجيء به.

وكما روى أبو زهير فيما بعد، خلع قبقابـه الخشبي، وركض نحو نزلة كراكـاس، وهو يصـرخ بصوت غـريب على أسماء أكثـر

غرابة، التقط السكان بعضها ومنها: «حمروش يا شوش بـوش، يا شاهوا شـاهوا، يـا شلوش يا نـوش، يا إخـواني. . يا إخـواني. . تعالوا. . تعالوا. . تعالوا ساعدوني».

وكان أبو زهيـر ـ كما روى أبـو النبل وهـو يشاهـده من نافـذة المرحاض الصغيرة في بيته ـ يمرق بين التماع الرصاص كـالبرق، لم يكن همه سوى الوصول إلى خضـر. . لمح خضـر ملقى على الزاوية لا حراك فيه، أدرك أنه ميت لا محالة، تردد. . هل يستمر أم يتـراجع؟ كـاد يتراجـع. . فهل يـدفع حيـاته ثمنـاً لشخص آخر مات؟ ولعل أبو زهير تساءل في تلك اللحظة مـاذا سيقولـون عنه؟ أم خضـر بالـذات شقيقـة زوجتـه مـاذا ستقـول عنـه؟ أولاده مـاذا سيقـولـون عنـه؟ ثم أين هم إخـوتي تحت الأرض. . أين أنت يـا شنبورش. . يا حمروش. . يا شوش بوش. . قـالوا لـه: نحن هنا يا أبو زهير. . تقدم. . لا تخف. . فصـرخ أبو زهيـر بالمتقـاتلين: أنا أبو زهير يا شباب، خضر أخوكم على الأرض، دعوني أسحبـه فقط، غيـر أن مقاتـلاً صرخ بـه ساخـراً: عالتمـر. . وراح يـطلق الرصاص بالقرب من قدميه الحـافيتين. . وصاح آخـر بأبـو زهير: ولك أبو زهير أين إخوانك تحت الأرض يحمونك؟ ثم وجه نحـوه بندقيته الرشاشة وأطلق الرصاص. . وأقسم الشاب بـالله وبالقـرآن وبكـل الأنبياء أنـه أصيب بهلع ورعب، لأن كل الـرصاص الـذي أطلقـه على أبو زهيـر لم يصبه، ولكن بـدا له أبـو زهير أثنـاء ذلك يرقص رقصة الجنـون وهو يحـاول تحاشي الـرصاص، كـان يقفز رغم ثقل جسده بين طلقات الرصاص بخفة، وبدا المشهد مـرعباً للطرفين، فكفوا عن إطلاق النار، ثم راح البعض، مجدداً يـطلق الرصاص في الفضاء أو على الأرض. . وظن أبو زهيـر أن الشبان

يمازحونه، فظل يرقص بين طلقات الرصاص، كما لو أنه راقصة محترفة، لكنه، في نفس الوقت، كان يتقدم نحو خضر، حتى وصل إليه، وما إن حمله بيني ذراعيه حتى تأكد أن خضر مات، فتقدم وسط الشارع ببطء شديد، ثم راح يصرخ بصوت عال مخنوق بالبكاء: هذا الولد قتلتموه يا شباب، أخوكم خضر. . شو ذنبه. . عمره ما حمل سلاح. . بعده ولد عمره ست عشرة سنة. . حرام تقتلون بعضكم دون هدف. . هل أنتم مجانين؟

معظم سكان الحي كانوا يسمعون حوار وصراخ أبو زهير، مع المقاتلين. . إذ عقب ذلك توقف الرصاص تماماً. ساد صمت رهيب. أقسم أكثر من واحد من المقاتلين أنهم شاهدوا مجموعة أشباح بقامات طويلة نحيلة. . تحيط بأبو زهير إحاطة السوار بالمعصم، فارتعبوا جميعاً وانسحبوا الواحد تلو الآخر.

ضم أبو زهير جثة خضر إلى صدره ومشى مبتعداً، لم يأخذ القتيل إلى أهله وإلى أمه، بل دخل زقاقاً خلفياً، ومضى به إلى مستشفى الجامعة الأميركية، وهو يفكر لعلهم يجدون فيه نبضاً ينبض أو قلباً يخفق. . قالوا له: العوض بسلامتك. . أدرك أن الحياة انتهت عند خضر إلى الأبد. . بكاه بحرقة الأب والعم والجد، فخضر كان دائماً قريباً إلى قلبه، ولد مهذب، حبّوب، كما كان يلقبه دائماً، تركه في مستشفى الجامعة واعداً مسؤوليه المرور غداً لتشييعه.

عاد أبو زهير إلى الحي متباطئاً. . حافياً. . حزيناً كما لم يكن حزيناً في أي لحظة مضت. .

صاح أحد السكان: عاد أبو زهير يا إخوان. . وفعلاً أخذت الوجوه تطل على أبو زهير تباعاً من النوافذ والشرفات. . كان

البعض يحاول سؤاله عن خضر. . لكن الجميع أدركوا أن خضر مات. . كان هذا واضحاً من خلال أبو زهير الذي دخل الحي مطأطأ الرأس منحنياً وحزيناً. . لكن السكان فجأة، ارتدوا مجدداً إلى داخل بيوتهم. . لأن قذائف خطوط التماس عادت تلتمع في السماء ثم تنفجر بين البيوت والشوارع.

* * *

شاع خبر مقتل خضر، وحزن الحي بأكمله، وظل السكان يسمعون ولولة أمه طوال ثلاثة أيام، فيما كان الخياط موسى يضع في مسجلته شريطاً اثر شريط للشيخ عبد الباسط عبد الصمد وهو يرتل القرآن.

والد خضر عاد من السعودية بعد أن أبرقوا له الخبر الفاجع، حيث كان هناك عمل في احدى الشركات بعد أن سدت الأبواب بوجهه في بيروت. كان خضر وحيد أبويه، بالإضافة إلى ثلاث شقيقات، إحداهن تزوجت فيما بعد.

في اليوم الثالث لمقتل خضر، قرر شبان الحي تشييعه إلى مثواه الأخير، فجاءوا بنعشه من المستشفى محمولاً على الأكف، ومزداناً بأكاليل الورد. . كان أبو خضر أثناء ذلك مستنداً إلى جدار المبنى شبه منهار، ووقف أبو زهير إلى جانبه، وقد ارتدى ملابسه كاملة هذه المرة، ملتاعاً مثل أبيه، لأن خضر كان مثل ابنه، وكان خضر نفسه يعامله كأنه عمه، يجلب له تبغ نرجيلته ويشعل له الفحم، ويجلس طويلاً أمامه مستمعاً إلى حكاياته الغريبة.

في الساحة، دار الشبان بالنعش سبع مرات وهم يهزجون بأهازيج الشهداء. بينما كان موسى يرفع صوت مذياعه بتراتيل القرآن. . أما النساء فكن بملابسهن السوداء يملأن شرفات

منازلهن وهن يبكين خضر زين الشباب، ويرمين بالورد وحبات الأرز على النعش الذي بدا خفيفاً على أكف الشبان. . أم خضر راحت تشد شعرها مولولة باكية، وهي تصيح :

وين رايح يا قرة عيني. . وين رايح يا خضر. . أبو خضر كان يبكي بصمت ولا يعرف ماذا يفعل؟ وقبل أن يوسّد النعش في السيارة السوداء، أخرج أحد رفاق خضر بندقيته الرشاشة وأطلق من الرصاص تحية للشهيد. . وسرعان ما تجاوب الرصاص في الأحياء القريبة.

وفيما كانت أصوات الرجال تهدر وراء النعش كصوت الرعد، بوتيرة واحدة شديدة النطق: لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله. . ظل الرصاص يملأ الفضاء متزايداً من حي إلى حي.

عندما تحرك الموكب، تحركت خلفه عشرات السيارات، وحيثما مر كانت رشقات من الرصاص تطلق نحو السماء تحية له.

وكنت أحد المشيعين إلى جانبي إبني الذي كان يبكي بحرقة، فخضر هو الآخر كان صديقه وإن كان يكبره ببضع سنوات، وكان خضر يعتبر نفسه البوليس السري للحي، فلا يدع الأولاد الأصغر سناً من مغادرة الحي، لئلا يخطفون كما خطف عبد القادر ذات يوم.

* * *

ظل الحي أياماً طويلة، حزيناً، إذ كان خضر شاباً محبوباً من الجميع، كان يساعد النساء على جلب الخبز لأسرهن، أو حمل الماء لهن إلى الطوابق العليا حيث لا يصل الماء بسبب انقطاع الكهرباء. كان خضر يعتبر نفسه ابن الجميع. . ما إن يطلب أحد مساعدته في أمر ما حتى يلبيه دون تردد.

وعلى مدى ثلاثة أيام توافد الرجال والنساء على مبنى شاتيلا، حيث فتحت أبواب الطوابق الثلاثة الأولى فيه لأفواج المعزين من الأحياء المجاورة، وكان الجميع يتحسرون على مقتل هذا الفتى الذي ما اقترف ذنباً، ولا انتمى إلى حزب، أو ميليشيا ـ كما كان يردد الجميع ـ. ولم يكن أبو خضر أو أبو زهير وأولاده يستقبلون المعزين وحدهم، بل معظم رجال الحي كالدكتور أسعد وأنا وأبو زياد وأبو جورج وخاتشيك وأبو ناصيف ومنير وعبد الله وإبنه محمد وغيرهم.

أبو خضر، فيما بعد، قرر عدم العودة إلى السعودية، وقال لأبو زهير:

ـ لا أستطيع ترك زوجتي وبناتي وحدهن، كنت أعتمد على خضر كنت أتصور أنه لن يتدخل مع هذا أو ذاك، ويظل أميناً على ما أوصيته به قبل السفر.

فيتدخل منير قائلاً:

ـ لا يا أبو خضر. . لا تظلم الولد. . رحمة الله عليه، ظل ممتثلاً إلى وصيتك حتى رحيله. . لقد روى لي أبو خالد الذي كان يقاتل مع تنظيمه، أن خضر كان ماراً مصادفة من هناك. . لم يكن يقاتل مع أي تنظيم. . كان عائداً إلى البيت من صالة الفليبرز التي كان يحلو له اللعب فيها أثناء فراغه. . لقد كان مغرماً بلعبة الفليبرز التي ألهته عن الالتحاق بأي تنظيم. . لكن. . هذا كان قدره أن يستشهد بريئاً من هؤلاء وضحية لهم. أنا أعرف كل شيء عن خضر. . كان يتصرف أكبر من عمره. كان عاقلاً فلم يخضع لأي إغراء، ظل بعيداً عن هذا الهيجان القاتل. . أتريد أن أقول لك أنه لو انتمى إلى ميليشيا لما قتل؟ ألا ترى معي

يا أبو خضر أن معظم الذين يستشهدون، هم أمثال خضر وزوجة أبو المجد وابنه، هم الذين تتساقط القذائف عليهم في بيوتهم، أو ينالهم رصاص المتقاتلين أو القناصين، وهم يسعون إلى لقمة عيالهم. . يا ليته ظل داخل صالة الفليبرز، لما حصل له ما حصل.

قال أبو زهير مشاركاً في الحوار:

ــ والله انشغاله عن أمه وأخواته هو الذي دفعه إلى أن يغامر ليصل إلى البيت.

ويصمت أبو زهير، سرح بنظره بعيداً كأنه يستطلع شيئاً في الفضاء، ثم نظر إلى أبو خضر نظرة حب وعطف وقال:

ــ أكثر من عشر رصاصات أُخرجت من جثته، أُصيب بعدة منها في كل أنحاء جسده، لعل المتقاتلين جميعاً صوبوا رصاصهم نحوه. . لم يكن يحمل سلاحاً. . وما كان في وضع مريب، عندما حملته كان مستنداً إلى جدار الصيدلية، كأنه كان مختبئاً يتحاشى الرصاص. . . رحمة الله عليه، كان هذا قدره.

* * *

الفصل الخامس

بدأ سكان الحي ينتبهون إلى أن أبو المجد، صار يتردد بين يوم وآخر، على بيته القديم في الحي، وكان يعتمد القدوم ليلاً، ويغيب ساعات في منزله، ثم يخرج إلى سيارته المرسيدس ويغادر الحي، وإذا صادف أحد الرجال تحاشاه. إلاّ أن الدكتور أسعد، من صومعته العالية، ينتبه بين الحين والآخر إلى تسلله المنتظم إلى البيت القديم، وحتى المولجين بالحراسة كانوا ينتبهون إليه وهو يتسلل ليلاً إلى بيته دون أن يلقي التحية على أحد. وعندما ردد البعض ما كانوا يرونه أمام أبو زياد قال أبو زياد: «لعله على نية زواج» وأشار إلى أن طلبات السيدة أم خالد من المواد الغذائية قد كثرت في الآونة الأخيرة، بينما كانت في الماضي لا تأخذ إلا الخبز والشاي، وأحياناً كرتونة بيض، وغالباً لا تستطيع إيفاء ثمنها إلاّ بعد أن يتاح لها أن تخدم في البيوت. ولكن، منذ بدأ أبو المجد يتردد عليها، كفت عن خدمة البيوت، وصارت تدفع ثمن ما تأخذه نقداً، بل تنوعت طلباتها بين الحليب والأجبان، وزجاجات المياه المعدنية، والشكولا، والمعلبات المتنوعة، وصار حسابها في الأسبوع الواحد يتجاوز الثلاثمائة ليرة.

ويتضاحك أسعد وأبو زياد الذي يتابع قائلاً: لقد بدأت تظهر

عليها آثار النعمة أولاً بأول، من الاعتناء بمظهرها إلى الاهتمام بزينتها وتصفيف شعرها.. والله إنها امرأة جميلة يا دكتور.

ولا يستغرب الدكتور أسعد، ويعلق أن من حق الاثنين أن يبدءا حياة جديدة، خصوصاً تشابه مأساتهما معاً، هو فقد الزوجة والابن، وهي فقدت زوجها وبيتها، تفعل الحروب عادة كثيراً مثل هذه الأمور.. والمشاهد متشابهة في كل الحروب، فإذا انسجم أبو المجد مع أم خالد، وانسجمت هي معه، من حقهما أن يسارعا إلى الارتباط.. ليس في الأمر أي شيء شاذ.

أنظر يا أبو زياد كيف يلعب القدر بأقدار الناس. أنظر كيف يلتقي إنسان مع إنسان تتشابه مآسيهما فيقتربان من بعضهما، هذا جميل والله.. ولعل أبو المجد يفكر أننا نلومه في هذا التصرف. لا، والله عندما التقيه سأبارك هذا الانسجام.. سأطلب منه أن يعجل بالزواج من هذه السيدة وان يعتبر ابنها ابنه.. لقد عوضه الله بالمال وبسيدة تشبه ظروفها ظروفه. وبولد أيضاً. وهذا خير. في الحقيقة خير. ويوافق أبو زياد على كلام أسعد ويقول له:

ـ والله.. أبو المجد رجل محظوظ يا أسعد. ستنسيه أم خالد مأساته كما سينسيها مأساتها.

لكن الهمس تكاثر عند البعض دون أن يعوا ما وعاه الدكتور وأبو زياد، خصوصاً بين النسوة اللواتي صرن يستغبن السيدة أم خالد.. أما غيرة أو حسداً.. وبالفعل فقد التقى الدكتور بأبو المجد على قارعة الطريق، كان أبو المجد يحمل سلالاً من الخضار والفاكهة.. فتوقف كلاهما ليسلم على الآخر، قال الدكتور:

ـ اشتقنا لك يا أبو المجد.. أين أنت يا رجل؟

ـ والله شغل يا دكتور.

ـ حسناً. الشغل عظيم كما يبدو.

ـ الحمد لله.. الحمد لله.

ـ والله يا أبو المجد إذا كانت أوضاعك ممتازة عليك أن تفكر ببنت الحلال.

ـ إن شاء الله ستسمع خبراً جميلاً في القريب.

وأدرك الدكتور أن أبو المجد يفكر مثله هو وأبو زياد، وخصوصاً عندما أعلن أمامه أنه ينوي هدم بيته القديم وإشادة بناية كبيرة مكانه، فشجعه الدكتور على ذلك، لكنه استدرك قائلاً: والحرب يا أبو المجد.. الحرب قد تتوسع وتدمر كل شيء.. فيرد أبو المجد قائلاً: لا أظن أنها ستتوسع أكثر مما توسعت الآن.. ألا ترى أن أكثر من بناية ترتفع في المنطقة.. معظم سكان خطوط التماس وعين المريسة وفرن الشباك أصبحوا بلا مأوى.. والذي يعمر اليوم أفضل من الذي يعمر غداً، وأنا أفكر بأكثر من مشروع بناية في رأس بيروت والروشة والحمام العسكري.

إلّا أن أبو ابراهيم قال فيما بعد:

ـ والله.. هذا أبو المجد أصبح بلا حياء.. تصوروا يجمع المال بالحرام.. ويريد أن يصبح تاجر بناء أيضاً..!

كان مثل هذا الكلام يتردد باستمرار عن الرجل الذي صار يزور الحي نهاراً وليلاً وفي أي وقت يحلو له. أحياناً يلقي التحية على أبو زهير الذي ما أن يرى أبو المجد حتى يصرخ كلمته الأثيرة «عالتمر».. وأحياناً يتجاهل أبو المجد الجميع، خصوصاً عندما يريد أن يصطحب أم خالد وإبنها إلى خارج الحي،

ويعودون في المساء، وأحياناً لا يعودون إلا بعد يوم أو يومين أو ثلاثة أيام.

لم يتدخل أحد بما يفعله أبو المجد، وإن تكاثرت الأحاديث حوله سراً وعلناً، وأبو ابراهيم نفسه صار يتجاهله، لأنه لم يكن راضياً عن كل ما يفعله، بل صار أكثر التصاقاً بأصغر أبنائه أحمد وأحبهم إلى قلبه، وأحمد كان صديق خضر وبسن متقاربة من سنه. ومنذ مقتل خضر كبرت خشية أبو ابراهيم، فصار لا يفارق أحمد، يصطحبه إلى المدرسة الثانوية صباحاً، ثم ينتظر انتهاء الدوام ليعود به إلى البيت، مانعاً إياه الاختلاط بأحد من جيله، مشدداً على إخوته الأكبر سناً أن ينتبهوا له.. وكان السكان يدركون أن أبو ابراهيم خائف على ابنه، مثلنا جميعاً نخاف على أولادنا.. وكنت أردد: الحق معه.. من منا ليس خائفاً على ولده.. لن أسمح أن يلقى إبني المصير ذاته، مصير خضر أو عبد القادر. وفي الحقيقة صرت أكثر خوفاً على ابني الذي صار مولعاً بالسلاح والبنادق، منذ أخذ يشاركنا حراسة بيوتنا. إلّا أنني باستمرار، صرت أزرع برأسه كره الحرب والعنف وأوصيه بالسلام والهدوء والسكينة هامساً في أذنه: «هؤلاء يلعبون بالموت يا ولد، دون هدف ومن أجل لا شيء».

وفي جلسات السمر أيام الهدوء، وهرباً من حر الصيف اللاذع تتحلق مجموعة من الرجال حول أبو ابراهيم بين أصص حديقته الرصيفية ومعهم أغلب الأحيان أولادهم، يتسامرون، ويتحدثون في السياسة، وجميعهم يتفقون على أن هذه الحروب القائمة لا هدف لها إلّا تدمير البلد وقتل الناس قتلاً مجانياً. لكن محمد أحد أبناء أبو ابراهيم يرفض هذا المنطق ويقول إن هؤلاء

الفلسطينيين إخواننا يا أبي، وعلينا أن نكون سنداً لهم ليعودوا إلى بلادهم، فيعترض أبو ابراهيم: لا نستطيع نحن البلد الصغير أن نكون سنداً لهم. إنهم يقتلون ونقتل معهم دون أن تحاول دولة عربية مساعدتهم أو مساعدتنا. من انتصر على من يا محمد؟ ها هي إسرائيل تغير علينا بطائراتها. تغزونا أياماً ثم تنسحب ثم تعود لتغزونا من جديد. دمر اقتصادنا، دمر مستقبل أولادنا. . والمخفي أعظم. فيرد محمد: كأنك تردد منطق الفئات الأخرى التي تحاربنا. . فيعترض أبو ابراهيم قائلاً: هل أقول لك الحق؟ لقد شبعنا قتلاً وتدميراً. نريد لبنان يا ولد. . نريده أن يبقى لنا لا أن يصبح أرضاً محتلة. . ثم لا نستطيع تحريره. . أنا أرى هذا المصير الأسود قاب قوسين أو أدنى. . لو كنا متحدين لقلت لك عال. أنظر التشرذم وهذه التناقضات التي تتوزعنا جميعاً. . ألف حزب وألف تنظيم والخير لقدام من التقسيم والاقتسام. . كل هذا بسبب وجود دولة داخل دولة، وجيوش لها أهداف متناقضة، أما الذين يدفعون الثمن فهم أمثال خضر وأمثالنا جميعاً.

كل حرب تنتهي لأن لها أهدافاً محددة تنتهي بتحقيقها. . ما هي أهدافنا هنا يا ولد؟ انتصار الثورة الفلسطينية؟ لا تستطيع الثورة الفلسطينية أن تنتصر بمثل هذه الأساليب وعدونا آلة عسكرية متماسكة إذا لم نقاومه في داخل أرضنا المحتلة. . إذا لم تستطع دولنا أن تتوازن وآلته العسكرية فسوف نظل تحت رحمة مدافعه ورصاصه وقتله واغتياله إلى الأبد. كل ما يحدث فوق هذه الأرض غلط يا محمد. هنا وهناك، شرقاً وغرباً. . شمالاً وجنوباً، الأخطاء تتراكم والناس يموتون. . وما من هدف. . وما من وضوح رسالة. . !

الدكتور أسعد الذي تختلف أفكاره كلياً عن كل ما يطرح كل ليلة، فهو الأكثر ثقافة والأكثر فهماً للمشكلة، والذي كان دائماً يقول لي على إنفراد: المؤامرة أكبر من كل ما يفكر به هؤلاء الناس، مؤامرة متوسعة الأطراف، وكبيرة، وفيها دول عديدة وأجهزة مخابرات، إنها ليست فقط للقضاء على الثورة الفلسطينية، إنها أكبر من ذلك بكثير.. إنها مؤامرة خلق كيانات طائفية تدور في فلك إسرائيل الدولة الأقوى.. مؤامرة تقسيم مذهلة ليس مكانها فقط هذا البلد بل البلدان المجاورة أيضاً.

في مثل هذه الأمسيات يغيّر الدكتور دفة الحديث، فهؤلاء ـ كما يقول ـ ناس بسطاء، يفسرون الأمور حسب ما تواجههم الأحداث.. إنهم وقود الحرب من غير أن يشعروا، والأهم الآن هذا التغيير الذي حدث في حياة أبو المجد.. إنه الحدث الأكثر سخونة من كل ما يجري في البلد.. فيقول أبو زياد: أبو المجد تغيّر يا إخوان.. غيرته الحرب، صار لا يسلم إلاّ إذا تلاقت نظراتنا عيناً بعين. فيرد أبو ابراهيم: أنا شخصياً صرت أتحاشاه.. لأن كل ما يفعله حرام بحرام.

* * *

الفصل السادس

شغل الحي اليوم التهديد الذي تلقاه أبو جميل صاحب معمل الخياطة في قبو البناية الذي هو أحد سكانها أيضاً. كان التهديد عبارة عن رسالة دست تحت الباب تطالبه بالرحيل عن الحي فوراً، وإلا نسف هو ومعمله ومنزله أيضاً، وعندما أطلع أبو جميل الدكتور أسعد على الرسالة كان يبكي كالأطفال: كيف أترك هذا الحي وأنا هنا منذ ولدت أباً عن جد، كنا أهل يا دكتور.. عمري ما أسأت إلى أحد.. وكانت حياتي كلها معكم وبينكم، فإلى أين الرحيل؟ هل أرحل إلى الطرف الآخر من المدينة؟ لا أحد يعرفني هناك، وأنا الآن في الستين من عمري، لا أستطيع تأسيس معمل جديد. زبائني يأتون إلى هنا. وأنت تعرف أنني من البيت إلى المعمل ومن المعمل إلى البيت، أعمل كل ساعات النهار ومعظم ساعات الليل، ليس لي أعداء ولم أعتد على أحد كل حياتي. لم يضبطني شرطي بمخالفة سير. لا أخرج من هذا الإطار إلا لماماً كي أشتري مواداً تخص شغلي.. أو إلى صلاة الأحد في كنيسة سانت ريتا التي لا تبعد عنا أكثر من خمس دقائق مشياً، أولادي ولدوا هنا وتربوا بين أولادكم.. ودرسوا في مدارس رأس بيروت وهم الآن طلاب في الجامعة الأميركية.. زوجتي أهلها في شارع فردان.. هذه هي حدود وطني لا أذهب أبعد من ذلك متراً

واحداً.. زبائني الذين يترددون علي كلهم من رأس بيروت.. كيف أترك كل هذا وأذهب.. أرحل.. لا.. لا أستطيع.. لا أستطيع.

كان أبو جميل يبكي، فيما راح الدكتور أسعد يفكر بهذا الموضوع الطارىء، إذ لم يسبق حتى الآن أن تلقى أحد مثل هذا التهديد في رأس بيروت كلها. وظن الدكتور، مبدئياً أن في الأمر مزحة ما، فأبو جميل ابن المنطقة، وأسرته كلها من هذه المنطقة، أهله، إخوته، أخواله. حتى أهل زوجته بالكامل. وأبو جميل ظل مع أهل المنطقة ضد هذه الحرب، يدينها باستمرار.

ويتذكر الدكتور أبو جميل منذ طفولتهما. كانت هذه البناية التي يقطنان بها، أول بناية ترتفع على الطراز الحديث في رأس بيروت التي كانت من قبل صخوراً وأحراشاً من الصبار، تتوزع الهضبة المطلة على صخرة الروشة، ثم أصبحت أحياء وشوارع.. وصخرة الروشة يتندر عليها سكان رأس بيروت ويسمونها: صخرة الانتحار، فكم من عاشق خاب أمله ألقى بنفسه من أعلى قمتها حتى مياه البحر ولا يصل إلى المياه إلا ميتاً.. لأنه لا يسقط مباشرة في الماء.. بل فوق الصخور الناتئة التي لا تجعله يصل إلى الماء إلاّ مهشماً، وسرعان ما تبتلعه أعماق البحر.. وما زال السكان يستغربون كيف تختفي جثث المنتحرين تحت صخرة الروشة دون أن يعثر لهم على أثر، ودون أن تلفظهم أمواج البحر فيما بعد. حتى أن الحكومة أيام السلم، جعلت من قمة الصخرة مخفراً لحرس من البلدية يراقبون محيطها لمنع أي محاولة انتحار. كما أن علم لبنان رفع عليها، تباهياً بجمالها، كما لو أنها تمثال ضخم صنعته يد فنان حاذق وسط

المياه العميقة. الصخرة ما زالت مشهداً لصور بطاقات البريد التي يتبادلها اللبنانيون في مناسبات الأعياد أو يرسلونها إلى أصدقائهم في الخارج.

أبو جميل كان واحداً من زبائن مقهى دبيبو أو مطعم نصر.. كلاهما مطلان على مشهد الصخرة من عل وعلى البحر الأشد زرقة بسبب عمق المياه.. ولا تبعد صخرة الروشة عن حي التنوخيين أكثر من مسيرة خمس دقائق.

في هذا المقهى أو ذاك، يأخذ أبو جميل نفس نرجيلة، ويشرب القهوة في أيام الصيف أو أيام الآحاد متمتعاً مثل غيره بهذا المشهد الآسر، والذي يعتقد أن لا مثيل له في الدنيا قاطبة.

معظم أيام الآحاد، يتمشى أبو جميل من البيت إلى دبيبو أو نصر ثم يجلس في شرفة مطلة على البحر، يشرب القهوة أو يتسلى بلعب النرد إذا اصطحب معه قاسم أو أحد رجالات الحي.. حتى إذا جاءت الظهيرة، لحقت به أسرته لتناول طعام الغذاء على طاولة مازة وكأس عرق. وعندما وقعت الحرب، كان أبو جميل، مثله مثل بقية أهل الحي، يعتبرها حرباً قذرة، حرباً لإحراق البلد. ومع توسع الحرب والقصف المتبادل الذي عندما يشتد يشمل المدينة شرقها وغربها، أصبح معمل أبو جميل هو المكان المفضل كملجأ لسكان البنايتين المتجاورتين، فهو نظيف، وفيه غرفة جلوس أنيقة، كان أبو جميل يستقبل فيها عادة زبائنه. بينما بقية الأقبية في البنايات المجاورة عبارة عن مستودعات أو مخازن وقود لتدفئة المياه الخاصة بالاستحمام أيام كان الوضع سليماً في البلد.

لم يشعر أحد من سكان البنايتين، ولا البنايات المجاورة، أن

أبو جميل تضايق ذات يوم من أحد، عندما يتدفق الجيران إلى القبو، حيث يقع معمله هرباً من القصف وخوفاً من الأذى. بل كان دائماً مضيافاً، مرح النفس، يلهي الناس الخائفين بحكاياه الضاحكة في محاولة منه ليتناسوا ما يحدث في الخارج من اقتتال ومذابح. بل كان إبريق الشاي وركوة القهوة على استعداد دائم لتفريج كرب الهاربين واللاجئين إليه من الدمار والموت. وغالباً ما يصنع نفس نرجيلة ضخم يتناوب بعض الرجال على تدخينه ما عدا أبو زهير، الذي ـ عندما يشتد القصف ـ ينتقل من رصيف كوخه الخشبي، إلى الرصيف الملاصق لنوافذ المعمل، حيث كان الجميع يسمعون كركرة نرجيلته وصراخه بين الحين والآخر صرخة الإنذار المألوفة: اضرب.. فلا يسمع الناس بعد هذه الصرخة سوى القذائف تنهمر هنا وهناك، وأبو ابراهيم المؤمن الشديد الولع بحكايا التراث يدمدم: محروسة باذن الله.. أما أم ابراهيم فتكاد تؤمن أن الحراسة الالهية التي تشمل أبو زهير، تشمل الحي بأكمله من كل سوء ومصاب، بل كان الجميع، بقدرة قادر، يطمئنون إلى كون أبو زهير من سكان الحي. إن إخوانه تحت الأرض يفعلون المعجزات.. ألا يرى الجميع أن القذائف تسقط في كل مكان إلاّ في حي التنوخيين، وإذا سقطت قذيفة ما بالقرب من الحي تكون خسائرها أقل الخسائر؟

كنا، معظم السكان، نفصل بدلاتنا عند أبو جميل، وغالباً، كل عام، كان أبو جميل يفصّل بدلات هدية للأطفال وفتيان الحي الفقراء، ولعل أول بذلة فصّلها أبو زهير في حياته، كانت عندما ربح ورقة يانصيب قيمتها خمسون ألف ليرة، وعندما جاءه بائع أوراق اليانصيب الأبله بالخبر السعيد، ضحك أبو زهير كثيراً. ثم

قال: والله إخوتي تحت الأرض قالوا لي خذ ورقة يانصيب، أخذتها على عماها، ومنذ ذلك الحين صار سكان الحي لا يشترون ورقة يانصيب إلا إذا اختارها أبو زهير. إلاّ أن أحداً منهم لم يربح قرشاً واحداً. أبو زهير كان يضحك ويسخر من الجميع: ما في واحد طاهر فيكم.. ما في واحد فعل خير بحياته. الله يعطي للذي يعطي.. ويعترض أبو ابراهيم: حرام يا أبو زهير تتكلم بهذه الطريقة، إن الله يرزق من يشاء ويمنع عن من يشاء. وبعد كل هذا اليانصيب حرام يا أبو زهير.. إنه مثل القمار.. هنا يتدخل أبو زياد قائلاً: أموال اليانصيب تذهب للمشاريع الخيرية يا أبو ابراهيم.. المفتي حللها وما اعترض عليها.

المبلغ الذي ربحه أبو زهير سمح له أن يشتري مع عديله سيارة شحن قسّطا بقية ثمنها على دفعات، ولكن العائلة لم تسمح لأبو زهير بالعمل عليها، خشية أن يتركها في الطريق كما ترك سيارة التاكسي ذات يوم. كان أبو زهير يطلق على شريكه وعديله لقب «بطاطا» مازحاً، لأنه كان يعتبره جباناً يخاف ركوب المخاطر.. وكان أبو محمد سعيد (وهو اسم العديل) يتقبل المزاح دون انزعاج.. بل كان جميع سكان الحي يتقبلون مزاح أبو زهير حتى النساء منهم، أبو محمد سعيد وابنه محمد كانا يتعاونان على قيادة سيارة الشحن حتى في أشد أيام الحرب شراسة، ينقلان فاكهة لبنان عبر سورية إلى الأردن والعراق والكويت والسعودية. وفي آخر كل شهر يأخذ أبو زهير حصته التي تسمح له بسد تكاليف المعيشة لأسرته ونرجيلته أيضاً، إذ كان يدخن النرجيلة على مدار الساعة دون توقف، إلا في ساعات النوم القليلة. كان يحلو له السهر على أرصفة الحي مع نرجيلته

إناء الليل وأطراف النهار، وغالباً يستضيف رجال الحي على كأس شاي يصنعه بنفسه، فيجلسون على مقاعد واطئة من القش، يتسامرون معه أطراف الحديث، ويشاركونه بعض الأحيان تدخين نرجيلته التي تنتقل من واحد إلى آخر، بعد أن يعقم كل واحد فيهم وصلة النربيش الخشبية بعود ثقاب مشتعل، ويحلو لأبو زهير في مثل هذه الجلسات الحميمة، أن يتحدث إلى ضيوفه عن ذكرياته في رأس بيروت، وخصوصاً شارع الحمراء، الذي كان مأوى للكلاب الضالة والأفاعي الضخمة التي جعلت من صخور تلة رأس بيروت أمكنة للاختباء تختفي في الشتاء وتظهر في الصيف، ويقول أبو زهير عن هذه الأفاعي «والله قتلت منها بعدد شعر رأسي» فيضحك أبو النبل ويقول: وأين شعرك يا أبو زهير؟ أسكت يا ولد.. أسكت (يقول أبو زهير) عندما كنت في عمرك كنت زين الشباب، وشعري الأسود أكثف من شعرك.. لكنه هرّ من الأهوال يا ولد.. أنا عشت السفر برلك، وأنت لا تعرف تلك الأيام السوداء.. رغيف الخبز بليرة عثمانية.. أنتم الآن في نعمة يا أولاد.. ويقاطعه أبو النبل: وهذه الحرب يا أبو زهير.. وهذه الحرب.

أبو زهير لا يجيب للوهلة الأولى، ثم يقول: هذه حرب حارات مع بعضها، ما رأيتم شيئاً بعد يا شباب.. أيامنا شفنا الحرب الأولى والثانية وحربنا مع اليهود.. وشفنا الجوع.. كان الواحد يذهب إلى السفر برلك ولا يعود.. مات ناس كتير في اليمن وتركيا واليونان.. وفي مثل تلك الأيام جاء مهندسون ونظفوا هذه المنطقة من الأفاعي.. والله، والعهدة على الراوي، قتلوا أكثر من عشرة آلاف أفعى، وأخذوا مثلها أفاعي حية صغيرة

للإستفادة من سمها وجلدها. هؤلاء حسب ما روي لي اغتنوا من هذه المهنة أكثر من أي مهنة أخرى. مثلما اغتنى أصحاب أراضي شارع الحمراء.

هكذا، كان أبو زهير في كل مرة، يروي حكايا يسرح فيها خياله كما يشاء، وفي كل مرة يتذكر أكثر ويضيف أحداثاً أخرى.. كان بارعاً في الرواية، يجذب الجميع إلى لهجته الرأس بيروتية، حيث تختلف عن لهجات بقية الأحياء قليلاً، كانت حكاياه مسلية وجميلة، تجعل أي مستمع لها، مهما كانت ثقافته، ينجذب إليها حتى النهاية، وكان أبو زهير يظهر في بعض الأحيان ذكياً وخبيثاً، غالباً يترك الجميع في وسط حكاية جذابة.. يدخل قدميه بقبقابه وينسحب نحو الروشة تاركاً ضيوفه مذهولين.. وما ان يبتعد خطوات حتى يلتفت، ثم يقول: بكره البقية يا شباب.

وأحب الناس إلى أبو جميل الخياط أبو زهير نفسه، إذ، عندما يتعب من عناء العمل، يأخذ قسطاً من الراحة فيصعد إلى الرصيف، ويجلس إلى جانب أبو زهير يتناوبان على تدخين النرجيلة. ويرويان لبعضهما ذكرياتهما القديمة.

أبو زهير، عندما علم بالتهديد الذي تلقاه أبو جميل، صرخ أمام جمع من الرجال: فشر.. والله أفديه بروحي.. والله الذي يقترب منه أقتله. ولم ير أحد أبو زهير غاضباً كما رآه ذلك اليوم وهو يصرخ: «من هذا الذي يتجرأ ويطرد أحد سكان الحي.. نحن أهل يا إخوان.. جورج.. وخاتشيك وأبو نصيف وإخواننا، ولو.. ما عاد في رجال. هذا الحي حينا. الذي دس هذا التهديد ليس من حينا ولا علاقة له بنا.. يا أبو جميل لا تهتم، وأنا على بابك منذ اليوم ليلاً نهاراً. وان شاء الله سأمسك هذا القواد الذي

يهددك وأذبحه بيدي هاتين.

هذا الكلام لم يطمئننا جميعاً، خصوصاً عندما عرفنا أن أكثر من ورقة تهديد، وبنفس اللهجة، دست تحت أبواب بيوت مجموعة من المسيحيين في المنطقة.. وأدركنا، منذ ذلك الحين أن الحرب تتقدم من بيوتنا وأسرنا، وأن صيغة رأس بيروت في العيش المشترك ستتغير. قال الدكتور أسعد: هذه حملة منظمة يا اخوان.. إن الشرخ يكبر، كلهم متشابهون.. أولئك طردوا الفلسطينيين وجميع السكان المسلمين.. وها نحن نفعل مثلهم.. ونحاول طرد إخواننا هنا في هذا الحي وفي الأحياء المجاورة.. إن البلد كله سائر نحو الفرز.. وهذا الفرز هو بداية التقسيم.. الفاجعة تقترب يا إخوان.

* * *

الفصل السابع

كان التهديد جدياً، ففي حين كنا نحمي أبو جميل، ولا يكاد أبو زهير يفارق مدخل المبنى الذي يقع فيه المعمل والبيت، وفي الليل تكون الحراسة المعتادة قد شملت أيضاً الانتباه إليهما، وقع ما لم يكن بالحسبان، إذ خطف الإبن الأكبر لأبو جميل من أمام مدخل الجامعة الأمريكية، واختفى لبضعة أيام، لم نترك وسيلة إلّا اتبعناها للسؤال عنه دون جدوى، ولم نكن وحدنا الذين نسأل عنه، بل زملاؤه أيضاً في الجامعة الذين تنادوا إلى إضراب شمل الجامعة كلها احتجاجاً على خطف زميلهم، كذلك أبرقت التجمعات الطالبية إلى الجهات المسؤولة محتجة، إلّا أن أحداً لم يرد، ولم تعلن أي منظمة عن وجوده.. ولم نترك تنظيماً مسلحاً إلّا وذهبنا إلى مسؤوليه، وكان الجواب دائماً سلبياً: «ليس عندنا هذا الإسم، نحن لا نعتدي على أحد، ليس من مهامنا الاعتداء على حريات الناس»، هذه الأجوبة وما شابهها كنا نسمعها هنا وهناك، حتى عجزنا تماماً عن الوصول إلى نتيجة.

الدكتور أسعد قال: إنهم بلغونا الرسالة الأقسى، أرجو ألا يصيب جميل أي مكروه.

أبو جميل أصابه فزع كبير، فمنع أفراد أسرته من مغادرة البيت: ولداه الآخران وابنته سوزان. وضع جائزة كبرى لمن يرشد

إلى مكـان إبنه. وظـل كل يـوم يرفـع الـرقم إلى أن أصبـح مبلغ الجائزة ربع مليون ليرة.

ما توقعه أسعد، حدث ذات ليلة. كان محمد ابن أبو ابراهيم يقضي فترة حراسته من منتصف الليل حتى الخامسة صبـاحاً أمـام المبنى، عنـدما شـاهـد سيـارة مسـرعـة تختـرق الشـارع. فـروى المشهد كما يلي:

«كنت قد تعبت من التجوال أمام المبنى، فجلست على درج البناية مستنـداً إلى الجدار، وغفـوت بعض الوقت، ثم استيقـظت على صوت تشحيط دواليب سيارة مسرعة، حـدث كل شيء مثـل لمح البصر. فما أن وقفت على قدمي حتى ترنحت من المفاجأة، كنت سأتناول بندقيتي استعداداً. . لكن، كل شيء حدث بسـرعة البـرق، فما ان تمـالكت نفسي حتى اقتـربت السيـارة، فـراملهـا شحطت على الإسفلت، ثم فتح الباب، وألقى من فيها شيئاً ثقيلاً مـا على الـرصيف، ثم ابتعـدت تنهب الأرض مبتعـدة، للوهلة الأولى لم أستـطع الحراك دب بي ذعـر. فرحت أصـرخ على أبي واخوتي: يا أبي. . يا إبراهيم. . يـا وليد. . كـان الظلام حـالكاً. ترددت قبل أن أتقدم خطوة لأعرف ما هو هذا الشيء الكبيـر الذي رمـوه على رصيف المبنى. عنـدمـا استعـدت روعي، رحت أدق على نـافذة منـزلنا منـادياً على أبي وأخـوي. سمعت صوت أبي: ماذا بك يـا محمد؟ قلت لـه على عجل: تعـال يا أبي. . تعـال. خرج أبي ثم أخوي واتجهوا نحوي. قال أبي: خير يا ولد. . ماذا في الأمـر؟ فأشـرت بيدي نحـو الشيء المتكوم على الـرصيف. . اقترب أبي حذراً ولامس الشيء. ثم رفـع يده يـردد: أعوذ بـالله. أعوذ بالله، هـذه جثة يـا أولاد فأسـرع ابراهيم وجلب من المنـزل

بطارية الضوء واضاءها نحو الشيء المتكوم، فإذا به ملفوف ببطانية زرقاء ملطخة بدماء كثيرة. اقترب أبي وجلاً ورفع البطانية بحذر، ثم راح يردد بصوت مرتجف: أشهد أن لا إله إلّا الله.. أشهد أن لا إله إلّا الله.. هذا جميل يا أولاد.. هذا جميل.. لا حول ولا قوة إلّا بالله.. لا حول ولا قوة إلّا بالله.

فزعنا جميعاً. ويبدو أن أبو زهير انتبه إلينا، كان هو الآخر نائماً في كوخه الخشبي، فخرج نحونا مستطلعاً: شو الخبر يا إخوان.. خير أبو ابراهيم.. ثم انتبه إلى الجثة.. فقال: ما هذا؟ أجابه أبي بكثير من الحزن: هذا جميل يا أبو زهير.. هذا جميل.. فتقدم أبو زهير من الجثة وهو يردد: فعلوها أولاد الحرام فعلوها.. يا ليتنا كنا أكثر حذراً.. وكشف أبو زهير البطانية جيداً عن الجثة، فاقتربنا جميعاً منها. إنه جميل، جميل نفسه مهشم الجمجمة، ومثقوباً بالرصاص في أكثر من مكان في جسده. كان مقيد اليدين إلى خلفه بقميصه الأبيض وبنطاله الكحلي وعلى القميص مغلف أصفر مربوط بأحد الأزرار.

قال أبو زهير: إفتح هذا المغلف يا محمد. إفتحه... فمنعني أبي وقال: لا تقربوا شيئاً.. اتركوا هذا الأمر للشرطة. وهنا اقترح أبو زهير أن يوقظ والد جميل، فمنعه أبي وقال: أترك الرجل بهَمِه.. ليعرف من غيرنا. ثم أمر إبراهيم أن يذهب إلى مخفر الشرطة ويخبرهم بما حدث.

عاد ابراهيم بعد قليل في سيارة الشرطة ومعه شرطيان. وعندما عرفا ما حدث، اقترحا حمل الجثة إلى مستشفى الجامعة الأمريكية ليحدد الأطباء كيفية مقتل الشاب ومتى قتل لكتابة محضر بالجريمة، والصباح رباح.. نخبر أهله.

وبالفعل غادر الشرطيان المكان، وعادا بسيارة الإسعاف، كانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحاً، أخذوا الجثة، أما نحن فقد بقينا في أمكنتنا مذهولين. . كيف نخبر أبو جميل. . كيف يكون وقع الخبر عليه؟ أما أبو زهير فقد أخذ يدبك على الأرض كمن يريد أن يوقظ أحداً نائماً تحتها. ثم راح يردد كلمات غير مفهومة، كلمات ما كان يتفوه بها إلا في الحالات الصعبة، تذكرتها. . كانت تشبه الكلمات التي رددها وهو يركض نحو كراكاس ليجلب جثة خضر، إنها كلماته التي يخاطب بها إخوته تحت الأرض. كان غاضباً أشد الغضب، حتى أننا خفنا منه حقاً. إنه لم يكن في تلك اللحظة أبو زهير الذي نعرفه. . كان رجلاً آخر. كان ذلك الشيطان الذي تنبع النار من عينيه. لم أر أبو زهير بمثل تلك الصورة أبداً. . ظل يدبك على الأرض حتى ابتعد عنا ودخل كوخه الخشبي، أشعل مصباح الغاز وراح يزمجر كوحش داخل قفص: أولاد الحرام. . أولاد الحرام. . فعلوها. خرجت أم ابراهيم من المنزل فروينا لها ما حدث، بكت، ثم عادت إلى المنزل وأخرجت سطل ماء سفحته فوق الدماء المتبقية على الرصيف، كررت ذلك أكثر من مرة وهي تردد: لا يجوز أن يرى الأولاد الدماء في الصباح وخصوصاً أسرة أبو جميل. لم يكن الصباح رباحاً كما يقولون. فلا أنا نمت ولا أبي أو أخوي أو أمي. وكان أبي يردد آيات قرآنية، يغمض عينيه ويضرب كفاً بكف وهو يقول: لا حول ولا قوة إلاّ بالله. . لا حول ولا قوة إلاّ بالله».

* * *

في الصباح علم الجميع بالحادث. الشرطة أخبرت أسرة القتيل، فعلا صراخ النسوة في المبنى، أما أبو جميل فقد كان يبكي ولده بحرقة وألم: يا زهرة الشباب.. يا جميل كيف قتلوك هؤلاء الذين لا رحمة بقلوبهم. وعرفنا من الشرطة أن المغلف الأصفر كان يحتوي التهديد الأقسى. كان عبارة عن كلمات معدودة: أخرج من المنطقة.. أو تخسر أولادك ولداً بعد ولد. احتفظت الشرطة بالمغلف لمتابعة التحقيق، لكن هناك من سرب الخبر إلى أبو جميل الذي راح يعبر عن ندمه الشديد لأنه لم يغادر المنطقة منذ تلقى التهديد الأول.

كانت الأيام التي أُعقبت ذلك ثقيلة على الحي كله، ومارسنا ضغوطاً عديدة لإقناع أبو جميل بالبقاء دون جدوى. وما حدث كان إنذاراً لجيراننا من الطائفة الأخرى، صاروا حذرين، وبدأوا يفكرون جميعاً بالمغادرة إلى المناطق الشرقية حيث توجد طائفتهم. أبو ابراهيم نفسه كان حزيناً ومنزعجاً.. لكنه ظل يردد: هم الذين بدأوا بالتهجير.. هجَّروا الجميع بالقوة، بالسلاح. بالاعتداء على حرمات الناس. وأخذ أبو ابراهيم يذكر الجميع بما فعلوه في الكرنتينا وكيف مسحوها مسحاً وسووها مع الأرض تماماً، كل البيوت التعسة هناك أزيلت، وقتل المئات من سكانها الفقراء.. من عرب المسلخ وعرب وادي خالد. من الأكراد وبعض الفلسطينيين.

في الحقيقة كانت الكرنتينا مدينة البؤس الملاصقة لبيروت، مدينة كاملة من التعاسة والفقر والجوع والألم.. كانت مجمعات سكنية من التنك نمت كالفطر على فترات متقطعة امتداداً إلى البحر. ولم تكن تختلف عن بقية المخيمات الفلسطينية الأخرى

مثل تل الزعتر ومار الياس وصبرا وشاتيلا. لكن الفرق أن معظم سكان الكرنتينا كانوا من الفقراء اللبنانيين ومن عرب وادي خالد الذين كانوا يطلقون عليهم لقب عرب المسلخ، ومن الأكراد، ومجموعة من العمال السوريين الذين كانوا يعملون هناك بالسخرة، وعلى سواعدهم شيدت بيروت الحديثة. وبالإضافة إلى ذلك، مثل أي مجتمع من هذا النوع، حوت الكرنتينا اللصوص والمرتزقة ومهربي المخدرات ومحترفيها ومدمنيها، والمطلوبين بجرائم القتل، حيث لم تكن لرجال الأمن هناك سيطرة كاملة. وعندما نشبت الحرب، كان أول عمل أقدمت عليه الكتائب إزالة هذا المشهد تماماً، وبكل ما فيه، من الناس والبيوت والأكواخ القذرة، فهرب من هرب، وقتل من قتل، وشرد من شرد، عائلات بأكملها أزيلت بالرصاص، وبدون رحمة.

ونقمة أبو ابراهيم على هذا الأسلوب لم تمت أبداً. وكان دائماً يذكرنا بها، وعندما وقعت حادثة أبو جميل تألم كثيراً، لكنه ظل يردد باستمرار: هم الذين بدأوا والبادىء أظلم، فكنا نعاتب أبو ابراهيم على هذا المنطق، ويقول الدكتور أسعد: ما كان يجب ان نفعل مثلهم، بالعكس يا أبو ابراهيم، كان يجب أن نثبت لهم أننا أكثر انسانية.. أننا لسنا طائفيين مثلهم.. فينرد أبو ابراهيم: أنت تقول هذا.. وأنا أقوله.. ولكن ما بالك بالذين قتل لهم هناك أهل وأقارب وآباء وأبناء.. أسر كاملة أزيلت بالبلدوزرات يا أسعد. سحقت وهي حية.. نساء وأطفال ورضّع.. دون أي ذنب اقترفوه. كل جريمتهم أنهم أبناء هذا الوطن. وأنهم بحكم المصادفة كان بيتهم هناك، مثلما كان بيت أبو جميل عندنا.. راجعوا ذاكرتكم يا إخوان.. من بدأ بمثل هذه

الجـرائم. . نحن أم هم؟ لا أقول لكم أنهم جميعـاً راضون عمـا حدث. . أعرف. . أعـرف أن لنا هنـاك إخوانـاً وأصدقـاء وأحبابـاً ومعـارف. . أبو جـورج الذي يـزورني دائماً وأزوره بـاستمـرار لم يكن من هؤلاء. . كـان حزينـاً مثلنا على مصيـر مئات المهجـرين الـذين كانـوا جيرانـه مثلما أبـو جميل جـارنا. . نعم. . نعم، بـل ألوف من إخوانـنـا هناك لم يكـونوا راضين عن تهجيـر أبناء بلدهم والـذين لم يكن ذنبهم سوى أنهم من طـائفة أخـرى. . كان هـذا خطأً شنيعاً يا إخوان. . هذا الفرز الطائفي إنه يقـودنا إلى التقسيم شئنا أم أبينا. . حرام أن يتركنا أبو جميل. . وإذا كنا قـادرين على منـع الأذى عنه فلنبقـه. . لكن، لا أعتقد أننـا قادرون بـدليـل مـا حدث رغم كل الاحتياطات والحراسة.

هـل كان علينـا أن نمنع أولاد أبـو جميل من متـابعة دراستهم في الجامعة حتى نمنع ما حدث لجميل؟ مهمـا كنا حـذرين، فان هؤلاء السـاعين إلى تهجير أمثـال أبو جميـل، لأقدر منـا على دب الـذعـر في قلوب من تبقى هنـــا من اخـوانـنـــا. أصـارحكم، في الحقيقة، منذ تلقى أبو جميل ذلك التهديد، توقعت أن يحـدث ما حـدث. . لـو سـألتمـوني رأيي وقتـذاك لأشـرت على أبـو جميـل بالرحيل. . لأنني وبالقرآن كنت أتوقع له هـذا المصير بـل أكثر. . لكنني خفت أن تتهمـوني أنني راض على مثل هـذا الأسلوب في تهجير الناس وطردهم من بيوتهم.

ويتدخل أبو النبل قـائلاً: هم ظلمـوا. . وهل علينـا أن نصير مثلهم؟

فيـرد الـرجــل: لا تحـدثني عن الــظلم. . لا تحـدثني عن الظلم. . ارجع إلى التاريخ يا ابني. . ستجد مئات الأحداث التي

تشبه ما يحدث عندنا.. من الأندلس وحتى الحاضر.

فيسأل أسعد: وهل يؤخذ البريء بجريرة المجرم.. إنني أستغرب هذا المنطق؟ أبو ابراهيم قال: لا تستغرب.. لا تستغرب يا أسعد.. أليسوا هم الذين فعلوا ذلك أولاً؟ هل ناقشوا الأمر كما نناقشه نحن الآن؟ ألم يأخذوا البريء بجريرة المذنب.. والذين هجروا كانت بيوتهم هناك أباً عن جد.. ولدوا وعاشوا هناك مثلما ولدنا نحن وعشنا هنا.. إنهم أبناء هذا الوطن مثلما نحن أبناء هذا الوطن.. ألا أحمل أنا الهوية اللبنانية والجنسية اللبنانية، وأولادي ألا ينشدون في مدارسهم كل صباح النشيد الذي ينشده أولادهم هناك: كلنا للوطن.. للعلا للعلم؟ إذا، لماذا هذا الفرز المجرم؟ لماذا دفعوا بنا أن نفعل مثلهم؟ والله يا إخوان أنا حزين أكثر منكم على فراق أبو جميل.. هذا أخي، تربيت معه يوماً بعد يوم.. تزوجنا معاً في فترات متقاربة، أراه أكثر من رؤية بقية أقاربي. وجهي بوجهه كل يوم.. أولاده مثل أولادي وأولادي مثل أولاده.. كنا نعيش كعائلة واحدة، لم أزعل منه يوماً ولم يزعل مني يوماً، نأكل جميعاً على مائدتي أو مائدته، تخاوينا بالخبز والملح منذ أكثر من نصف قرن.. هل تتصورون أنني أفرح إذا رحل عنا مع أسرته؟ هل تتصورون أنني أفرح لمن يلحق به من جيراننا.. لا والله.. لا والله. لكن هذا هو قدره، وان منعناه من الرحيل.. من يضمن أن لا يعتدي عليه أحد.. أو يقتل أحد أولاده مثلما قتلوا جميل.. هل أقول لكم أن مقتل جميل برقبتكم.. لكن هذا قدر الله.. هذا قدر الله.

كانت حجة أبو ابراهيم قوية، فاسقط في يد الجميع، ولم يعد أحد يمانع في رحيل أبو جميل. إلا أبو زهير ظل يعلن أنه

سينتقم لجميل . . وأن رفاقه تحت الأرض سيدلّـونه على المجـرم وسيقتص منه بنفسه.

* * *

القلائل جداً من أبناء الحي كانوا يعرفون قسـوة وقع المـأساة على اثنين فقط أكثر من غيرهما: سوزان ابنة أبو جميـل ووليد ابن أبو ابراهيم، عاشقان يتـواعدان على الـزواج بعد انتهـاء دراستهما الجامعية، وكم من مرة شاهدناهما معاً على الكـورنيش كفاً بكف وأنامل متشابكة مع الأنامل. . وما من مرة كان الهـدوء يخيم على المـدينة إلاّ ورأينـاهما معـاً على الكورنيش. كـان الدكتـور أسعد يعرف. . وأنا أعرف. ونبيل يعرف. . بل لعـل الأكثريـة في الحي تهمس بهـذه العلاقـة الجميلة بين الشـابين. . ولم يكن اختـلاف الـدين بينهما سببـاً لفصم هـذه العـلاقـة الجميلة. لم نكن نفكـر بذلك أبـداً. كان أسعـد يقول لي أنهمـا يليقان ببعضهمـا كثيراً. . ولأسعد دور جميل في جمع شملهما دائماً عنده في البيت ليراجعا بعض دروسهما، ويرشدهما إلى مـا يستعصي عليهما وهـو الأستاذ الخبير منذ أن كان أستاذاً في الجامعة الأميركية.

وعندما قرر أبو جميل مغادرة الحي نهائياً شهـد أسعد الـوداع الأخير بين الحبيبين، قال أسعد أنه كان وداعاً مـراً ومعذبـاً، حتى أنه بكى معهما وهما يبكيان الـواحد على كتف الآخـر. قال وليـد أنه لن ينساها أبداً، وأنه سيظل وفياً لها ما عاش. ولن يفكر بغيرها أبداً، وقالت سوزان: سيعذبها فراقه، لكنها ستهتف له كل يوم إذا كانت خطوط الهاتف تعمل. بل كانت سترسل له رسالـة كل يـوم بالبريد ـ كما روى أسعد ذات ليلة على كأس صومعته وهو يتذكر ـ أن المشهد كان قـاسياً، لـو صور بـالسينما لكـان أروع مشهد بين

عاشقين اضطرتهما ظروفهما أن يفترقا، كانا طفلين وديعين لا يريد أحدهما الإنفصال عن الآخر، أو كجسدين في روح واحدة لا يريدان الإنفصام. . وكان أسعد كلما تذكر هذا المشهد إزداد ألماً وحزناً، فكانت الكأس هي التي تخفف عنه بعض هذا الوجد. قال أنه لو كان كاتباً روائياً لوصف المشهد بلغة واقعية تبز من غير شك جميع المشاهد المماثلة التي قرأها في الروايات. قال: كانا يتواعدان على اللقاء مهما كانت الظروف، إلاّ أن كلاً منهما كان يدرك أنهما لن يلتقيا بعد اليوم، كانا يائسين حقاً، وكانا يشتمان هذه الحرب ومن كان سببها، وكانا يرتجفان، وإذا هدءا قليلاً تناولت منديله من جيبه وطبعت عليه قبلاتها. فيأخذ المنديل من يدها ويخبئه في عبه. ثم يأخذ يدها إلى فمه ويقبل باطن كفها بعينين دامعتين قبلات فيها كل الخوف من الأيام الآتية، وكأنها قبلات الوداع الأخير. . بل كانت حقاً قبلات الوداع الأخير. وهما، حيث يرمقهما أسعد، نسياه تماماً، نسيا أنهما في بيت أسعد وعلى مرأى عينيه. . كانا يتناجيان بحرقة وعذاب وكان أسعد يرى بأم عينيه كل تفاصيل هذا المشهد الحزين، وكان، كلما تصاعد الألم بينهما يتدخل ليقول لهما: أنتما تتشاءمان كثيراً. . غياب كل واحد عن الآخر سيكون مؤقتاً، كل الأمور ستعود إلى طبيعتها. وستعودين يا سوزان إلى بيتك وإلى رفيقاتك في البناية والجامعة، وأنت يا وليد اعتبر سوزان مسافرة وستعود لك. لكن حدس أسعد، كذلك مثل حدس العاشقين، كان ثلاثتهم يعرفون أن كلام أسعد ليس واقعياً، وأنه يجامل الموقف. . فالكره يتصاعد والشرخ يضرب جذوره عميقاً في الأرض. وشرق المدينة نهر من الأحقاد، كما هو غرب المدينة،

وكلما دخلت الحرب يوماً جديداً ازداد الشرخ اتساعاً، وازداد جدار الحقد ارتفاعاً. وكل انسان يقتل هنا أو هناك، يرسخ هذا العداء، ويمسح من القلوب التعاطف القديم بين أبناء البلد الواحد.

كان أسعد شديد الحزن مثلهما، وهما يتعاهدان على ارتباط ليس أكيداً، وعلى لقاء قريب قد لا يحدث أبداً. لكنهما، معاً، كانا مصرّين على استمرار حبهما، حتى لو اضطرا إلى ترك البلد كله. فقد ظل وليد يردد على مسمع سوزان: إذا اضطررنا سنغادر البلد. سيكون لنا مكان معاً في بلاد الله الواسعة.. سأستمر في الدراسة حتى أتخرج. وإذا استمرت الحرب سوف نغادر هذا الوطن كله وإلى الأبد، لن أسمح لأحد أن يفرق بيننا، لا الدين ولا الحرب ولا الناس ولا الوطن.. أنت الوطن، أنت السلام النفسي وأنت المرفأ الذي أرمي فيه مراسي قلبي.

وكانت سوزان الخجولة جداً تقول له: وأنا أيضاً وأنا أيضاً.

ويتذكرهما أسعد منذ كانا طفلين في الحي، كانا معاً دائماً، خصوصاً وأن أسرتيهما كأنهما أسرة واحدة، البيت في مواجهة البيت تماماً. باباهما مفتوحان باستمرار على بعضهما، وأم جميل معظم وقتها عند أم ابراهيم وأم ابراهيم معظم وقتها عند أم جميل تتسامران وتشربان القهوة، وأولاد هذه رفاق أولئك، وأولاد أم ابراهيم رفاق أولاد أبو جميل.. جميعهم متقاربون في السن، وليد في التاسعة عشرة وسوزان في الثامنة عشرة.. في الأيام الهادئة أمنياً يراجعان دروسهما معاً، وغالباً يصعدان إلى صومعة أسعد الذي كان يرحب بهما باستمرار. وهو الرجل الذي ظل مشغولاً بالدراسة والهم القومي حتى نسي قلبه ونسي عواطفه.

وظل بدون زواج حتى هذه اللحظة، لكنه يتذكر شبابه بهما، ويتذكر أول حب عاشه في الجامعة مثلهما، وكيف اضطر بعد ذلك إلى السفر لمتابعة دراسته وتحصيل الدكتوراه، وعندما عاد إلى الوطن وجد حبيبته قد تزوجت، وعرف أن هناك من حمل لها خبراً كاذباً بأنه على علاقة مع امرأة ألمانية سيتزوجها ويبقى في ألمانيا. وتألم أسعد بعض الوقت.. ما الفائدة.. سبق السيف العزل. والذي تزوج الحبيبة زميلاً له هو ناقل تلك الأكاذيب. ولو أراد أسعد أن يكشف الحقائق لشقيت الحبيبة وشقي الصديق وأسرتاهما معاً، اللتان تمتان إلى أسرته بالجوار والمعرفة في بلدته مرجعيون. وبالتأكيد لن تعود الأمور إلى ما كان يرغب. فالزواج يعني إحكام العلاقة الأبدية بين الزوجين.. وكشف الحقائق يؤدي إلى الطلاق ولا طلاق.. يعني كل ذلك خراب بيوت. فعض أسعد على النواجد ألماً، وابتعد عن الصديق الغادر الذي كان هو نفسه يشعر بوخز الضمير.. فسعى لترك البلد مع زوجته وغابا عنه إلى الأبد.

كان أسعد يتذكر كل هذا أمام المشهد الأخير بين العاشقين، فيشرب حتى ينسى، أو يضاحك أولاد الحي، وهذه ظاهرة لم يكن أحد غيره يمارسها يومياً، مع الأولاد الذين يجلب لهم الحلوى، ويمازحهم، ويوصيهم بدروسهم، كان أسعد يحب الأولاد دائماً، فتيات وصبيان، وكانوا يحبونه باستمرار لأنه يدللهم ويعاملهم كأنهم أصدقاء له. وليس اهتمامه بسوزان ووليد، رغم أنهما أصبحا شابين، إلّا من خلال هذا التعاطف الذي يكنه للحي كله، بل كان الدكتور محبوباً من الجميع، لأنه يساعد الجميع، خصوصاً الذين يدرسون. كان يقول الثقافة شيء هام للإنسان،

العلم يفتح له آفاقاً لا حدود لها.

وفي جلساتنا الخاصة أيام الصيف، وفي لحظات الهدوء يستعيد في ذاكرته كل القصص المتشابهة، دائماً هناك خلل ما ـ يقول ـ خلل ما يحدث فيفرق بين عاشقين، دائماً هناك سهم يضرب في غير موقعه، دائماً، بين كل حبيبين، يقوم جدار. جدار الفقر، أو الحرب، أو الدسائس والغيرة.. لا أحد يحب أن يرى أحداً مرتاحاً، هل هذا صحيح؟ نعم يا أخي، والله صحيح، الناس تغار من بعضها، لا أنت ولا أنا أريد أن أرى من هو أحسن مني أو أحسن منك، هذه طبيعة بشرية كامنة في أعماق كل منا. نقاومها، وأحياناً ننتصر وأحياناً لا ننتصر. نقاومها بالمثل العليا، والأخلاق.. ربما تراني أفعل في حدود إمكانياتي وظروفي لجعل هذه المثل وهذه الأخلاق راسخة في رؤوس أولاد الحي وشبانه.. أحاول.. أنا أحاول لا أكثر ولا أقل.. لعلني أنجو بهؤلاء من الخلل الاجتماعي الواقع.. لكنني لا أنتصر دائماً.. فالشر الكامن في الأعماق البشرية يظل يتحرك كالإخطبوط، ينتظر اللحظة الحاسمة لينقض على فريسته.. الناس.. الناس يا أخي.. هم الوسواس الخناس.

* * *

كنا جميعاً حزانى على رحيل أسرة أبو جميل، وكان أسعد أكثرنا حزناً. أبو جميل ترك بيته بعهدة أبو ابراهيم. وترك معمله بعهدة مساعده أحمد الذي وعده أن يظل على سيرته في العمل وفي معاملة الناس، وأوصاه أن يتذكر الأولاد الفقراء مع طلة الأعياد.

كان الوداع مريراً وقاسياً، اشترك فيه جميع أبناء الحي، وكان

أبو جميل وأسرته، يبكون جميعاً كأطفال يفارقون أمهاتهم وآباءهم وأعز أحبابهم.

أسعد، والقلائل الذين يعرفون، كـانوا يـرون المشهد الأكثـر مأساوية . . مشهد العاشقين، من خلال عيـون سوزان ووليـد وهي تتشابك بنظرات الحزن الممتزجة بالأمل واليأس معاً.

* * *

الفصل الثامن

هل عاد السلام؟

هكذا قالوا.

قالوا أن الأطراف المتقاتلة توصلت إلى صيغة تنقذ البلد من الموت والدمار والخوف.

وتوقف القتال.

فتنفس الناس الصعداء، واستعادوا ابتسامتهم التي ما زالت تشوبها المرارة. فالخراب توسع وشمل أكثر من مكان، وما عادت بيروت هي بيروت، كل شيء فيها لم يعد كاملاً. لا الأبنية، ولا الشوارع والحارات، ولا المطاعم التي كانت منتشرة على طول الشاطىء من خلدة حتى جونية، ولم تعد الشوارع، أمكنة للتنزه وقراءة جريدة على رصيف مقهى، من مقاهي الحمراء، بل باتت شوارع مزدحمة بعربات باعة متجولين، فقد معظمهم محلاتهم الأصلية التي كانت تبيع نفس البضاعة في ساحة المعرض، والعازارية، والأسواق القديمة، وقريباً من أزقة شارع المتنبي الذي كان يمتلىء ليلاً بالمومسات والشبان الباحثين عن اللذة الحرام. كل هذه المناطق دمرتها الحرب، فلجأ تجارها الصغار إلى المناطق الأكثر أمناً، مثل شارع الحمراء الذي لم تسحقه الحرب بعد، وان كانت بعض القذائف قد أصابت الكثير من

مبـانيـه الحـديثـة الجميلة، شـارع كـان يمتلىء في السـابق بالمكتبات، وباعة اسطوانات الموسيقى من سيمفونيات وكونشـرتو لعمالقة الموسيقى العالميين، إضافة إلى الأندية الثقافية العـربية، والأجنبية، ودور السينما والمسارح، ومقاهي الـرصيف، وأشهرهـا الهـورس شـو والأكسبـريس اللذان كـان يتجمـع فيهمـا الأدبـاء والشعـراء والفنـانـون، وصـالات عـرض الـرسـوم الكـلاسكيـة والحديثة، وكانت المعارض الفنية المتنوعة تفتتح في صالاته على مدار السنة.

إلى ذلك مدارس تعلّم اللغات الأجنبية المختلفة من انكليزية وفرنسية وإيطالية وإسبانية وألمانية، في مراكز ثقافية أجنبيـة، وكان في شـارع الحمـراء وحـده نحـو تسعـة مـراكـز أجنبيـة تقـام فيهـا الحفـلات، والندوات، والأمسيـات الثقافيـة، وفي صفوفهـا تعلم لغـات دولها. . حـركة لا تهـدأ، وشـارع لا ينـام الليـل، ويضـج بـالناس والسيـارات دون تـوقف. بـل كـان شـارع الحمـراء قلب بيروت النابض ووجهها المشرق، ومحاطاً بـالجامعـات والمدارس والمعاهد والمستشفيـات الراقيـة التي كان يؤمهـا مرضى من كـافة أنحـاء الشـرق الأوسط وخصـوصـاً البـلاد المجـاورة. وقـد كتبت الصحافة عن هذا الشارع في شتى أنحاء العالم، ومما قالت عنـه أنه مدينة كاملة. . مدينة أميركية أو فـرنسية في قلب مـدينة شـرقية إسمهـا بيروت. لكن بيـروت كانت كلهـا بنظر الجميـع: بـاريس الشرق.

شارع الحمراء زينـة المدينـة، تحول بعـد الحرب إلى شيء مختلف عن ذلك كله، صار مزدحماً على نحو آخر بعربات الباعة التي احتلت الأرصفـة. وبهـديـر مـوتـورات الكهـربـاء التي صـار

يستخدمها أصحاب المحال التجارية، لإضاءة محلاتهم، بعد أن كان شارعاً مضاء بألوان مختلفة قبل الحرب، حيث كانت الأنوار تتراقص فيه بما يبهر النظر، فتحول بعد الحرب إلى ظلمة دامسة في الليل، مما اضطر أصحاب المحلات استحضار موتورات توليد الكهرباء، التي صار لها وكالات وتجار جنوا من تجارتهم بها الملايين، وكان هديرها في الشارع يصم الآذان، بالإضافة إلى نداءات الباعة على بضاعاتهم، وهي ظاهرة لم تكن موجودة من قبل أبداً. والأسوأ من كل هذا، أكوام القمامة التي احتلت زوايا الشارع ومفارقه، تصدر عنها الروائح النتنة بضعة أيام قبل أن تتمكن سيارات البلدية من سحبها، ولم تكن السيارات كافية، فقد صادرت معظمها التنظيمات المسلحة واستخدمتها لأغراض عسكرية، كسد الطرق، أو جعلها متاريس لمعاركها المتنقلة بين الحلفاء والأعداء، ومما زاد الطين بلة صعوبة الحصول على البنزين، إذ راحت أكوام القمامة تتراكم، فكان السكان وتجار الشارع، يضطرون أحياناً إلى حرقها في مكانها، فتنبعث منها روائح تزكم الأنوف وتلوث الجو وتترك في الفضاء سحابة من الهباب يختلط بسحابات الحرائق والحرب والدمار والغبار، مما جعل الناس يعافون حياتهم، اضافة أيضاً إلى أن مولعي الحرب، أو الذين كانوا يطلقون عليهم عبارة «الطابور الخامس» كانوا يستخدمون القمامة أحياناً لزرعها بالمتفجرات، فكم انفجرت قنابل وقذائف مخبوءة في داخلها لمجرد لمسها، أو لمجرد أن تحاول جرارات البلدية سحبها وتفريغها في شاحنات مؤجرة، اضطرت لاستخدامها لاحقاً، عوضاً عن الشاحنات الخاصة بالقمامة.

وبسبب هـذه التلال من القمـامة، نشـطت الجرذان والفئـران بحثاً عن طعام، وصارت أيضاً مـأوى للكلاب والقـطط المشردة، وصارت الناس في الشارع ومتفرعـاته، بـل وفي كل منـاطق رأس بيروت، تشهد حرباً من نوع آخر، ميدانها القمامات بين الجـرذان والقـطط والكـلاب، وكـان المشهـد يجـذب الأطفـال والفتيـان أنفسهم، الذين كانوا يؤججون هذه المعارك بقضبان يلاحقـون بها القطط والكلاب والجرذان، التي كانت تلجأ إلى داخل المحلات والبيوت.

ويحدث الهرج والمـرج في هذا المضحـك المبكي في آن، وصار أي مواطن يتحسر على أيام كـانت بيروت أنـظف مدينـة في العالم.

لكن الناس، رغم كل هذا، فرحت بما قيل أن السـلام عاد، وتفاءلت خيراً بـأن المدينـة ستعود إلى طبيعتهـا. ولاحقاً، سـوف تزول هذه المنـاظر المؤذيـة والمزعجـة، ويعود الشـارع والمدينـة والـوطن كله، ليس نـظيفـاً من هـذه القـذارات وحسب، بـل من الحرب وذيولها، ومن العقد النفسية، والجنون، والخوف.

الهاربون إلى الخارج بدأوا يعودون، وفتحت المناطق بعضها على بعض، وصعدت الناس إلى الجبال. إذ كان معروفاً أن لكل بيروتي بيته الخـاص في الجبل، وكـذلك، الـذين هم في الأصل من سكان الجبال، اضطرتهم الظروف ليعملوا في المـدينة تجـاراً أو أساتذة أو عمالاً أو أصحاب محلات، صارت لهـم، بـالإضافـة إلى مساكنهم في الجبال، مساكن في المدينة.

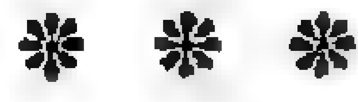
اللبنانيون كانوا في بحبوحة مستمرة بسبب نظامهم الاقتصادي الحـر، وبسبب عائـدات العملة الصعبة في البنـوك، والتي كـانت

ترسل يومياً بالملايين من المهاجرين اللبنـانيين في أصقاع العـالم إلى أهليهـم في الجرد والمدن والقـرى، حتى قيل أن هنـاك أكثر من ثمانية ملايين مهاجر لبناني في مختلف أنحاء العالم، بينمـا لا يتجـاوز عدد سكـان البلد ثلاثـة مـلايين انسـان، بـالإضـافـة إلى جـاليات عـربية طـاب لها العيش في هـذا البلد الجميل. أبـرزها لاجئـو عام ١٩٤٨ من الفلسـطينيين ومن نزح منهم بعـد ذلك إلى لبنـان خلال حـرب ٦٧ وحـرب الأردن، وعن طـريق هؤلاء أيضـاً امتـلأت البنـوك بمـلايين الـدولارات التي كـانت تـرسـل لـدعم المقـاومة من الـدول العربيـة الغنية ومن الأثـرياء الفلسـطينيين في أنحاء العالم، إذ كانت مرتبات المقاتلين تدفع بالدولار. ومن هذا الدعم أيضاً، كانت المقاومة تصدر صحفهـا وتطبـع كتبها، وكـان قطاعاً كبيراً من اللبنانيين يستفيد من الأموال المتدفقة على منـظمة التحرير، المطاعم وتجار الورق والفنادق التي كانت تستقبل مئات الصحفيين الأجـانب والوفـود التي تدعـوها المـنظمة، إضـافة إلى عمال من مختلف المهن ودور النشر.

وهنـاك الجـاليـة السـوريـة التي تجيء بتعـدادهـا بعـد الفلسـطينين، إلى جاليـات مصريـة وسودانيـة وعرب من مختلف الجنسيـات، ناهيـك عن المصطافين القـادمين من الدول العـربية الغنية كالسعودية والخليج، إلى قصورهم المنتشرة في الجبال هنـا وهناك، حتى أن حكاماً وأمراء كانوا يصـطافون كـل صيف ومعهم حـاشيـاتهم بـالكـامـل. . عـرب من مختلف الجنسيـات، تجار وأصحـاب رؤوس أمـوال، وطلبـة وعمـال وخـدم في المـطاعم والبيوت.

بلد مفتـوح لكـافـة الفعـاليـات، وفي زمن كـان أيضـاً مقـراً

للاجئين سياسيين مضطهدين في بلادهم، وجدوا في ديمقراطية البلد وحرية صحافته مأوى آمناً. وكانت الخضات السياسية المتوالية في العالم العربي ترفع أعداد هؤلاء اللاجئين باضطراد. إضافة إلى هروب رؤوس الأموال العربية التي قال عنها خبير اقتصادي فيما بعد: إنها كانت سبباً مباشراً في ازدهار البلد، وربما بسبب ذلك، وبسبب الأخطاء المتراكمة في النظام اللبناني نفسه نشبت الحرب.



المتشائمون كانوا يعتبرون أن التوصل إلى إتفاق لوقف النار والبدء بمباحثات تضع حداً للحرب هو مجرد ذر الرماد في العيون، إنها هدنة لا أكثر ولا أقل، هدنة يستعد كل طرف فيها ليكون أكثر قوة، للتدريب، وجلب سلاح أشد فتكاً وتدميراً. ولهؤلاء مبرراتهم، إذ أن اتفاق وقف النار هذا ربما كان رقمه المائة أو أكثر، وفي كل مرة تبشر الصحف والإذاعات بعودة السلام وبانتهاء الحرب، ثم تعود الحرب لتندلع من جديد أشد قسوة وأكثر مرارة، لكن كفة المتفائلين هذه المرة كانت أكثر رجوحاً، إذ استمرت أيام السلام أسابيع طويلة، جعلت الناس تتنفس وتخرج إلى الجبال، وإلى شاليهات السباحة على طول الشاطىء. وتحرك البلد من جديد. وبدأ الناس الذين أصيبت بيوتهم بالقذائف ترميم ما دمر أو خرب.. وجدد أصحاب المقاهي والمطاعم مقاهيهم ومطاعمهم، وتجرأ الكثير منهم على التزاور بين المناطق. حتى أبو جميل تردد علينا مراراً وهو يتوق إلى العودة ثانية إلى الحي.. فبيته ما زال ينتظره، كما قال له أبو ابراهيم «بيتك محفوظ يا أبو جميل.. والله لا أسمح لأحد

غيرك أن يدوس عتبته». . كما أن الحواجز المسلحة لم تعد تظهر وتسأل الناس عن بطاقات الهوية لا في شرق المدينة ولا في غربها.

سكان رأس بيروت لم يصدقوا أن الحرب على وشك أن تغلق بابها، وأن الأمور الطبيعية بدأت تعود تدريجياً إلى البلد.

بالنسبة لي، فبعد انقطاع دام أكثر من نصف عام عدت إلى العمل في مكتب المجلة في الأشرفية، وكرّم المحاسب جميع المحررين فدفع لنا كل مرتباتنا المتراكمة، سعدت بذلك، فوفيت ديوني المتراكمة عند أبو زياد الذي لم يطالبني بها يوماً أبداً، وعند أبو علي اللحام الذي هو الآخر لم يسألني عنها، وعندما دفعت له ما يترتب عليّ، قال لي بتهذيب الرجل الكريم: خليهم معك يا رجال. . قد تحتاجهم، لكنني شكرته وأصريت على الدفع، وهذا ما حدث أيضاً مع أبو طالب الذي كنت أستدين من عنده الفاكهة والخضار. . ولم يتأفف يوماً وأنا أقول له: سوف أدفع لك يا أبو طالب لا تخشى شيئاً. . فكان يرد: ولو يا رجل. . نحن لبعضنا. . وبقيت معي مبالغ محترمة، فدفعت أقساط المدارس، واشتريت لزوجتي فستاناً جديداً، كذلك، اشتريت لولدي بسام ولينا ملابس جديدة فرحا بها.

الإنفراجات انعكست على أبناء الحي جميعهم، حتى أن السيدة ايفون رأفت أولمت لنا عشاء صاخباً، لم أدرك في البداية أنه سيكون سبباً لقصة حب ظلت تطفو فوق الأحداث بين الحين والآخر، فقد دعت السيدة ايفون فيمن دعت صاحبنا المسؤول في المقاومة أبو محمد، فاصطحب معه هذه المرة صديقاً مقرباً له من الكتاب الفلسطينيين اسمه أبو الطيب، شاب مرح طيب القلب لا

تفارق الابتسامة وجهه، وكنت أقرأ له باستمرار، وسعدت بالتعرف إليه عن قرب.

التقى معظم أبناء الحي وسيداته في هذه السهرة على مائدة مدام رأفت وأنا كنت بين المدعوين، مصطحباً معي زوجتي أمنية. وكذلك أسعد وأبو ابراهيم وأبو زياد وأبو النبل، بالإضافة إلى السيدة أم ناصيف وابنتها ريتا التي تعمل سكرتيرة في احدى الشركات السياحية. فتاة في الخامسة والعشرين جميلة وناعمة. لكنها لم تكن تختلط بأبناء الحي إلّا نادراً. في زمن الحرب صارت تضطر أن تسهر عند هذه الأسرة أو تلك. تلعب الورق، وتشرب، وتدخن وتروي حكايات طريفة وضاحكة عن المصادفات التي تقع لها في عملها، كانت فتاة تجيد الحديث ورواية النكتة الضاحكة، وكثرت سهراتها عند هذه الجارة أو تلك بسبب ما آلت إليه الحرب، مثلما حدث لكل الناس الذين صاروا يفضلون السهر في بيوتهم، كما أن الوضع الأمني انعكس على الشركة التي تعمل فيها، فقللت من ساعات دوامها. كان والدها أبو ناصيف قد ترك البلد قبل أشهر مصطحباً معه إبنه ليعملا في الخليج، فهو معلم بناء من طراز رفيع، وآثار بصماته على معظم فيلات الجبل والبيوت الخاصة هنا وهناك، كان، كما يقول عنه أبو ابراهيم، أشطر من المهندسين خريجي الجامعات مع أنه لم يدرس إلا الابتدائية. . أم ناصيف ظلت إلى جانب ابنتها بحكم عمل هذه في الشركة، وضرورة بقائها في بيروت، كذلك حرصها على بيت الأسرة لئلا يقع في أيدي المسلحين، أو بأيدي أسرة أصبحت بلا بيت. وهما أيضاً رفضتا مغادرة المنطقة رغم التهديدات التي تلقتاها، وكان أسعد يؤكد: أن لا أحد من

المسلحين يعتدي على النساء. وحتى أسعد نفسه كان قد رفض الانتقال إلى مكان آخر. القلائل جداً يعرفونه مسيحياً، وبحكم علاقاته الوطنية مع الجميع لم يفكر أحد بإيذائه.

* * *

تلك الليلة، كانت من أجمل الليالي التي عشناها منذ زمن طويل، وسرور الرجال كان بسبب طغيان العنصر النسائي على السهرة، فمدام رأفت تعيش في منزلها مع ابنتها الجميلة ناديا، وهي زوجة لرجل مسلم عاشت معه ردحاً من الزمن في الاسكندرية ثم توفى، وتعرفت بعد ذلك على رجل أعمال، قيل أنها أصبحت عشيقته لفترة طويلة، وعندما مات هو الآخر ترك لها إرثاً جيداً صار يدر عليها مبلغاً محترماً كل شهر يجعلها تعيش حياة ميسورة، بيتها في الحي من أكثر البيوت أناقة وجمالاً، وبيت أسرتها يقع في المبنى الذي نسكن فيه، ولقرب المسافة بين البيتين غالباً ما تكون ايفون بزيارة أمها السيدة عزيزة وأخويها لوريس وألبير..

كما أن لها أختاً أخرى تدعى أوديت بيتها قريب من الحي يقع في نزلة كراكاس وهي زوجة لرجل من أصل مالطي خبير بتصليح البرادات ومكيفات الهواء. أختها الرابعة اسمها لينا زوجها إيطالي الأصل ويقع بيتها في شارع الحمراء. عائلة طريفة، كما يقول الدكتور أسعد، كل واحدة تزوجت رجلاً من بلد غير لبنان، حتى أمها السيدة عزيزة التي كنا نحبها لدماثتها ولطفها فقد كان زوجها مصرياً من أقباط الإسكندرية، مات باكراً، فربت ـ كما تقول ـ هؤلاء الأولاد من شغل يديها، فقد كانت خياطة ماهرة، تقول بين الحين والآخر أن أزياءها في الاسكندرية كانت أكثر

شهرة من كريستيان ديور، وعندما شاخت الأم وكبر الأولاد عادت إلى مسكنها القديم في رأس بيروت، وكذلك عادت الأرملة ايفون مصطحبة ابنتها ناديا التي كانت على طريق الأسرة نفسها، فاقترنت برجل مسلم أحبته وأنجبت منه ابنتها جيرالدين التي أصبحت بعد سنوات من جميلات الحي.

كل هؤلاء النساء، بالإضافة إلى أم خالد التي أصبحت زوجة شرعية لأبو المجد، تزوجها في غفلة منا في بيت أهله، ثم أحضر صرر الملبس ووزعها على الجميع، وصار يسافر كثيراً عبر البر إلى تركيا واليونان وإيطاليا، ويغيب شهوراً، وقد أصبح فعلاً من أغنياء البلد الكبار. كذلك كانت بين النساء سناء الجنوبية المرحة المتزوجة من رجل مقاومة معظم وقته غائب عن البيت، ونساء أخريات صادف أن رجالهن كانوا خارج البلد أو حالت ظروفهم دون الحضور، وسرعان ما انتبهنا أن عدد الرجال سبعة فيما النساء تجاوز عددهن الضعف.

أبو الطيب كان أكثرنا سعادة، حتى أنه قال فيما بعد: من زمان لم أسهر سهرة بهذا الجمال، فمعظم وقتي بين الإذاعة والجريدة والخنادق الأمامية، وعندما طلب مني أبو محمد مرافقته إلى سهرة حلوة أسعدتني هذه الدعوة، فأسرعت وتحممت وحلقت وجئت كأن عرسي في هذه الليلة. في الواقع لم يخطر ببال أحد أن هذا الشاب الفتي، مقاتل ورجل إعلام وكاتب يوصل الليل بالنهار دون توقف، أو استراحة، ولا يعرف متى ينام ومتى يصحو، إذ، فيما بعد، عرفنا ظروفه الصعبة، وأحببناه كما أحببنا أبو محمد الذي ظل يتعامل معنا بكل الود والحب، وكنا نقول بين بعضنا البعض، لو أن كل رجال المقاومة من هذا النوع، لكانت

ثورة بلا أخطاء، لكن أبو محمد كان يردد كلما فتحنا سيرة المقاومة: «ليست أصابعك كلها على سوية واحدة.. نحن بشر مثلما أنتم بشر.. وفينا الصالح والطالح».

أبو الطيب لم يكن من تنظيم أبو محمد، بل من تنظيم فلسطيني صغير آخر، لكنهما كانا كشقيقين حميمين.

«ليلة ايفون» كما اصطلح أبو الطيب على تسميتها فيما بعد، كانت ليلته، بل كانت فعلاً ذلك المنعطف في حياته، فما أن تلاقت عيناه بعيني ريتا حتى حدثت الشرارة، وانقلبت ريتا من فتاة رصينة كل حركة بحساب، إلى فتاة مرحة، عادت إلى طبيعتها بسرعة، فروت نكاتاً أضحكتنا كثيراً، ورقصت على إيقاع أغاني عبد الحليم حافظ، ومالت مراراً على أبو الطيب، الذي هو الآخر خرج عن رصانة رجل المقاومة وصار يميل معها، ويسند رأسها بكفه، ويردد سعيداً مع صوت عبد الحليم حافظ: على قد الشوق يللي في عيوني يا جميل سلم.

وعندما جلسنا جميعاً إلى مائدة الطعام، لم يهتم أحد بأبي الطيب مثلما اهتمت به ريتا. تضع التبولة في صحنه، تختار له من هذا الطبق أو ذاك أطيب الطعام، وترفع كأسها محيية إياه، فكاد ينسى أنه مع ناس يعرفونه للمرة الأولى، بينما كان أبو محمد بين لحظة وأخرى يشد له جاكيته، أو يغمزه، أو يلكزه من تحت الطاولة بقدمه طالباً منه أن يستعيد هيبته ولا يخرج عن المألوف.

في الحقيقة، كلاهما خرجا عن المألوف ريتا وأبو الطيب، إذ أن أم ناصيف نبهت ابنتها أكثر من مرة، لكن ريتا لم يكن يهمها أحد من الموجودين، وانصرفت كلياً إلى أبو الطيب مستمرة في التحرش به على نحو جميل، تشده للرقص معها كلما صدح راديو

البطارية بأغنية راقصة، أو تغرز أصابعها بما تبقى من شعر رأسه.. أو تحمل كأسها إليه وتدعوه ليشرب، إنها أحكمت الشبكة حول عنقه تماماً، فأصبحا نجمي السهرة وحلاوتها. ولعلنا، نحن الرجال، غرنا جميعاً من أبو الطيب، فريتا جميلة وشهية وجذابة، لكننا، نحن المتزوجين كنا نتظاهر أمام زوجاتنا بالإنزعاج من ريتا، وكم علقت الزوجات على مسمع منا أن ريتا فتاة لعوب تريد القضاء على أبو الطيب، حتى السيدات اللواتي كن من دون أزواجهن ارتسمت على وجوههن مظاهر الغيرة «والمرأة هي المرأة» هكذا علق أسعد حتى ولو كانت تحب زوجها ومخلصة له، فهي تتمنى دائماً أن تكون مرغوبة من الرجال ولافتة نظرهم، وإلّا، ما معنى أنهن جميعاً جئن بكامل زينتهن.. «إنها المرأة يا أستاذ، الأنثى التي يحلو لها أن يذوب الرجل أمامها كالشمعة، حتى وان كانت ليست بحاجة إلى نورها الضئيل».

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً عندما بدأنا الاستعداد للعودة إلى منازلنا.. و.. فجأة، سمعنا هدير المدافع.

صاح أسعد: عادت حليمة إلى عادتها القديمة.

إلّا أن أبو محمد قال بلهجة العارف:

أظن أن إشكالاً قد وقع.. لا تخافوا.. سرعان ما تهدأ.

نحن جميعاً، أصبنا بوجوم، فيما اصفرت وجوه النساء رعباً وخوفاً، كانت أصوات القذائف شديدة الوقع، حتى بتنا نتصور أن القصف يتقدم نحونا، لأننا صرنا نسمع أصوات القذائف أشد وضوحاً كلما تقدم الوقت، فقال أبو محمد مخاطباً أبو الطيب:

إنـك لن تستطيـع العودة إلى (الـطريق الجديـدة) ـ حي من أحياء بيروت ـ أظن أن هذه المنطقة هي التي تتعرض للقصف. فانتبهنـا إلى معـالم السعادة التي ارتسمت على وجـه أبـو الـطيب، ولعله، فكر في هذه اللحظة، أنه على الأقـل سوف يقضي ليلتـه عندنـا، وريتا نفسها قالت له ضاحكة: ستبقى هنا يا أبـو الطيب. . عنـدك خمسين بيت يستقبلك. . لا تخف.

فقال لها مازحاً: يعني تستقبليني في بيتك؟

رمقه أبو محمد بقسوة، بينما قالت ريتـا: يا أهـلاً بك عنـدنا متسع لك، سأنام مع والدتي في غـرفتها، وأنت تنـام في غرفتي، فقاطع أبو محمد حديثهما مـوجهاً كـلامه إلى أبـو الطيب: ستبقى معي، لسنا بحاجة لإزعاج أحد من الإخوان. قال: أسعد: الحـل عندي يا أبو محمد. . إذا كنت تعتقـد أن القصف لن يصل إلينـا. فـأنـا أرحب بكمـا في صـومعتي. وتـدخـل أبـو ابـراهيم قـائـلاً: صـومعتك لا تصلح إذا طـالنـا القصف يـا دكتـور. . خيـر مكـان للضيوف هو بيتي. . بيتي في الطابق الأرضي، وهو الأكثر أمناً من بقيـة شقق البنايـة. ثم التفت إلى أبو محمـد وأبو الـطيب متابعـاً حديثه: البيت بيتكما. . وأنا أرحب بكمـا قبل الجميـع. . بل لن أسمح لأحد أن يأخذكما مني.

ولعله، أبـو الطيب، كـان يتمنى لو نسمـح له بقبـول ضيـافـة ريتا. . ومن منا لا يقبل ضيافة ريتا. . لكن عيون الزوجـات تقدح شرراً خفياً، الأزواج وحدهم كانوا يعرفـون مدى أذاه عنـدما يعـود كل واحد إلى بيته.

وانتقـل جو السهـرة من حالـة الارتيـاح والبسط والسـرور إلى حالة من القلق والخوف، بل معظمنا كان يحاول أن يقرأ ما يجري

في عيني أبو محمد نفسه الذي يعرف أكثر منا جميعاً ماذا يحدث. . ولماذا هذا القصف المفاجيء.

السيدة ايفون كانت الأكثر قلقاً، وبينما كانت ابنتها ناديا ترفع الصحون الفارغة عن الطاولة، سألت أبو محمد إن كانت الحرب ستعود من جديد، فأكد لها أنه يعتقد أن ثمة خطأ في الموضوع. . ربما بسبب حادث فردي. . فقال أبو ابراهيم: دائماً تتعللون بالحادث الفردي. فهل على الأبرياء أن يدفعوا ثمن الحادث الفردي يا أبو محمد؟ ما ذنب الذين تتعرض بيوتهم الآن للقصف، وأنت تعلم أن الناس اعتقدت أن الحرب انتهت، ومعظمهم ساهرون في بيوتهم مثلنا نحن وهم مطمئنون على عيالهم وأولادهم؟

لم يجب أبو محمد، كان هو الآخر قلقاً. . ثم أنه تمنى على السيدة ايفون فنجان قهوة، فقالت: فنجان القهوة ضروري الآن. . على عيني.

وهنا بادرت ريتا الجميع مرحة وقالت: أنا سأصنع لكم القهوة.

انفرجت أسارير أبو الطيب، لعله دوننا جميعاً يتمنى البقاء على هذا الوضع طالما أن ريتا موجودة.

وعادت ريتا بعد قليل بفناجين القهوة، واتجهت بها مباشرة نحو أبو الطيب، فهمست سناء بأذن زوجتي وعلى مسمع مني: كم هي وقحة هذه البنت.

وما إن أخذ أبو الطيب فنجانه، حتى راحت ريتا تقدم ما تبقى من الفناجين إلى بعض الرجال، فلم يكن عدد الفناجين كافياً لكل الضيوف.

جلست ريتا مجدداً إلى جانب أبو الطيب، أخرجت سكائرها وقدمت واحدة له. إعتذر لأنه لا يدخن، فأشعلت لفافة لها، ثم إنها، بكل جرأة المرأة الواثقة من نفسها قالت له: لن أصنع قهوة مرة ثانية.. سأشاركك فنجان قهوتك.. فرحب أبو الطيب بفرح، بينما ارتسمت في عيون النساء علامات التعجب والإستغراب، أما نحن الرجال، فكانت غيرتنا هذه المرة فاضحة.. ولعل ريتا انتبهت إلى ما يعتمل في النفوس، فازدادت اقتراباً من أبو الطيب نكاية بالجميع.. وسألته إن كان خائفاً؟ فقال لها: تعودنا على ذلك يا ريتا.. نحن الفلسطينيون أرواحنا على أكفنا.. والذي اسمه الخوف نسيناه تماماً.. إننا لا نملك ما نخاف عليه.. الوطن بعيد.. ونحن هنا ضيوف ثقلاء.

كانت وتيرة صوت أبو الطيب قد ارتفعت عند الجملة الأخيرة، فصاح أسعد: ماذا تقول يا أبو الطيب.

أجاب أبو الطيب: يا أخ أسعد.. أقول أننا أصبحنا ضيوفاً ثقلاء في هذا البلد.

رد أسعد: لا تقل هذا يا رجل.. لا تقل هذا.. أنتم في بلدكم ونحن إخوان وأبناء وطن واحد.

كان أبو ابراهيم ينظر إلى الحوار ممتعضاً، ولم يشارك، ولم يبد رأياً، غير أنه عاد وأكد على أبو محمد وأبو الطيب أنهما ضيفاه هذه الليلة.. وهنا وقف أبو محمد وقال للجميع: تصبحون على خير.. ثم التفت نحو أبو الطيب منادياً عليه: هيا أبو الطيب، فوقف أبو الطيب بضيق شديد كأنه لا يريد أن يغادر، غير أن ابتسامة ريتا العذبة جعلته يرقص طرباً، فابتعد، وما أن كادت خطواته تغادر الصالون حتى التفت نحو ريتا، فلوحت له بيدها.

ثم أن الجميع، فيما بعد، انسحبوا تباعاً وهم يشكرون السيدة ايفون وابنتها ناديا، وبقية اخوتها الذين ظلوا جميعاً في بيت شقيقتهم.

أما القصف،

فمع تباشير الصباح انحسر، ثم توقف تماماً.

* * *

الفصل التاسع

«من لم يمت بالحرب، مات بغيرها».

هكذا همس الدكتور أسعد، لدى سماعنا الخبر الفاجع الآخر، وكان خبراً فاجعاً حقاً.

فالسيدة أم علي، مثل بقية الأمهات جميعاً، ظلت تخاف على ولديها الصغيرين، وتحرص على عدم إيذائهما، ككل أم مثالية، وفي هذه الحرب، كانت، ما أن تسمع طلقة رصاص، حتى تهبط إلى ملجأ البناية مع ولديها ولا تغادره، إلى أن تتأكد أن القصف توقف، وأن القتال انحسر، وجميع سكان الحي يتعاطفون مع زوجها أبو علي ويحبونه، ويحبون أسرته. وأم ابراهيم تقول عنه أنه القصاب الوحيد الذي لا يغش باللحوم التي يبيعها، ومع أن رأي الدكتور مغاير لهذا الرأي، لكنه كان يعقب دائماً: على الأقل، أبو علي رجل نظيف تشتهي اللحم من بين يديه، وفعلاً يعنى الرجل بدكانه كثيراً. يرتدي معطفاً رقيقاً أبيض كأنه ممرض في مستشفى، ويلبس في كفيه قفازاً طبياً، عدا عن عنايته الكاملة بنفسه، إنه شاب لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، تزوج في بدايات الحرب. وأنجبت زوجته طفلين على التوالي، ما أن ينتهي من العمل حتى يتفرغ لهما في المداعبات. وشراء أنواع من الشوكولا من الجمعية التعاونية المواجهة لدكانه،

كما أن بيته يقع في الطابق الثاني من بناية بابل المجاورة لبنايتنا، فوق محله تماماً، بحيث يستطيع محاورة زوجته وولديه، على بعد بضعة أمتار من محله. وغالباً ما يكون الولدان جالسين على حافة النافذة وأمهما إلى جانبهما، فإذا فرغ أبو علي من عمله قليلاً، تقدم بضع خطوات إلى منتصف الطريق وراح يداعبهما بألفاظه الجميلة، ويضاحكهما بحركات من وجهه.. أما عندما يكون القصف المتبادل على أشده فإن هذا المشهد يختفي تماماً. إذ يسرع الجميع إلى الملجأ بمن فيهم أبو علي وزوجته وولداه وبقية سكان البناية طبعاً.

صار أبو علي فيما بعد أشد حرصاً على الهرب من محله، بعد أن سقطت قذيفة ذات يوم أمام المحل تماماً، دمرت كل ما فيه من براد وأوائل القصاب المختلفة وموجودات المحل، لم يكن أبو علي في محله آنذاك، إذ كان مختبئاً مثل بقية الناس في الملجأ. واستطاع بعد ذلك إعادة تأثيث المحل بكل متطلبات عمله.. لكنه، زيادة في الحذر، وضع بضعة أكياس من الرمل أمام واجهة المحل، تحميه من قذائف مباشرة، وترك أموره بعد ذلك إلى الله.

وسكان الحي بطبيعتهم المتعاونة، ازداد تعاملهم مع أبو علي، رغم أن اللحم في الجمعية التعاونية كان أرخص قليلاً. لكنهم يرون في الرجل أحد سكان الحي حيث تجب مساعدته وشراء اللحم من دكانه، خصوصاً بعد حادث القذيفة.

أبو ابراهيم بالذات، كذلك الدكتور أسعد، كانا يرددان على الجميع ضرورة شراء اللحم من دكان أبو علي: «الفرق كله يا إخوان بضعة قروش، وأبو علي ابن الحارة، خسارته كانت كبيرة

بسبب تلك القذيفة اللعينة، وعلينا أن نعوضه من حيث لا يشعر بشراء حاجتنا من بضاعته». ولم يكن أحد يعترض على هذا الكلام. أبو علي محبوب ومقرب من الجميع. وكان يستعين بولد في الثانية عشرة من عمره يحمل اللحوم إلى طالبيها في منازلهم. لكن الولد ترك العمل بعد حادث القذيفة، فقد خشي عليه أهله من قذيفة أخرى، فصار أبو علي يضطر أحياناً إلى حمل اللحوم بنفسه، خصوصاً إلى عائلات رجالها غير موجودين، أما على سفر، أو لانشغالهم في أعمالهم.

إلاّ أن ذلك الحادث الفاجع قلب الصورة رأساً على عقب، وزاد من مآسي الحي.

أحد طفلي أبو علي دفع أخاه، وهو يمازحه، عبر النافذة، فسقط إلى الشارع، كان أول من رأى المشهد أبو علي نفسه، فصرخ صرخة مدوية نبهت كل من في الحي: يا ولدي.. يا ولدي.. وأسرع ينتشل الطفل المضرج بدمائه من فوق الأرض، حمله بين ذراعيه وراح يعدو به نحو المستشفى، فيما ركض خلفه أبو زهير وأبو زياد، وكانت الأم تولول عبر النافذة وتصرخ: يا ولدي.. يا ولدي.

صاح أبو ابراهيم: عليكم بالسيارة.. عليكم بالسيارة.

لكن الدكتور هدأ من روعه قائلاً: السيارة يا أبو ابراهيم ليس لها قيمة، أين تستطيع السيارة أن تسرع في هذه الزحمة.. حتى سيارة الإسعاف من الصعب استدعاؤها.. أبو علي عقله برأسه.. إنه يعرف إذا ركض به ركضاً إلى المستشفى يصل قبل الجميع.

ظل الحي ساعات واجماً، كأن على رؤوس الجميع الطير.. النساء في الشرفات يستطلعن الطريق. الرجال متجمعون أمام

بناية بابل، وأمام بنايتنا بين أصص مزروعات أبو ابراهيم، قلوبنا مع أبو علي، ونرجو الله أن ينجو الولد.

عاد أبو زياد واجماً حزيناً، وما ان اقترب من جمعنا حتى قال: العوض بسلامتكم.. الولد مات.

وانتقل الخبر بسرعة البرق من الطابق الأول إلى الثاني فالثالث، فالحي كله، ورحنا نسمع بكاء النساء، بينما أخذ أبو ابراهيم يضرب كفاً بكف وهو يقول: لا حول ولا قوة إلاّ بالله.. لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

عاد أبو علي متكئاً على كتف أبو زهير شبه منهار، يبكي بحرقة.. وعرفت زوجته بالخبر قبل أن يصل.. وما ان رأته من النافذة يتقدم نحو البناية حتى راحت تبكي وتولول: يا ويلي يا حبيبي.. يا ويلي يا أبو علي.

انشغل الحي بأكمله بالحادث، وفي تلك الليلة، على كأس من الشاي، وبين أصص أبو ابراهيم وحديقته الصغيرة، قال أسعد:

ــ يا ليت سقط الولد الآخر معه.

استغرب أبو ابراهيم هذا الكلام وقال:

ــ لا.. لا يا أسعد.. قل الحمد لله الذي ظل الطفل الآخر حياً.

قال أسعد:

ــ أنتم لا تعرفون المعاناة التي سوف يعانيها الطفل الأصغر عندما يكبر ويعرف أنه قتل أخاه.

أدركنا فعلاً ما كان يقصد به أسعد، أن مأساة دائمة سيعيشها الولد. هذا الحادث سيتدخل بحياته عند كل لحظة فرح، سيرى

بعيني أبويه حجم المأساة. . وستكون حياته عبئاً ثقيلاً.

قال منير:

ـ لا أظن أن الأمور ستكون على هذا الشكل يا إخوان، الزمن كفيل، والنسيان نعمة من الله، لن يكون هذا الحادث في المستقبل إلّا حكاية تروى يتخللها الأسف على كل حال.

قال أسعد:

ـ نرجو من الله أن تكون كذلك. . أنا قرأت حوادث مشابهة في الصحف وفي الكتب أيضاً، شكلت عبئاً ثقيلاً للأهل وللأخ، ليست هذه حادثة فريدة من نوعها. . إن حوادث كثيرة من هذا النوع تحدث هنا وهناك. . أعرف شاباً كان من طلابي في الجامعة، كان يقود سيارته بسرعة جنونية وإلى جانبه أخته، وتدهورت السيارة فجأة تفادياً للصدام بشاحنة كبيرة، والغريب في الأمر أن الفتاة قتلت على الفور، بينما لم يصب الأخ إلّا بجروح بسيطة خرج على أثرها من المستشفى بعد يومين، لكن الندب في القلب كان كبيراً، كل الجامعة كانت تعرف مشكلته، يكون أحياناً في ذروة نشاطه وتودده إلى رفاقه، ثم فجأة يتذكر، فينخرط بالبكاء، وكما كان يقول رفاقه أنه غالباً ما يراها قادمة من هذه الزاوية أو تلك. . يراها تجالسه في المقهى أو مطعم الجامعة، إذ كانت زميلته في الجامعة باختصاص مختلف، فيتذكر ويعتبر نفسه مجرماً وقاتلاً. . لم يكن هذا الشعور الذي يغالبه في الجامعة فقط، بل في الطريق، وفي كل مكان. وأكثر من هذا في البيت حيث عاشا ونشأا معاً. كان يرى في عيني والديه المحاكمة اليومية: أيها القاتل. . أيها القاتل. فوالده كان يحذره باستمرار من السرعة الزائدة في السيارة، وفي اليوم الذي اصطحب فيه

أختـه معه إلى سهـرة عيد ميـلاد أحد زمـلائهمـا، حـذره والـده، وحذرته أمه، بل إنهما ذلك اليوم، رغبا حقاً بعدم اصطحاب أخته معه، كأن ما حدث كانا يشعران به سلفـاً، وحتى باب البيت وهـو يغـادر كان الأبـوان معاً يحـذرانـه. . وكـررت الأم على مسمعـه: إحذر يا بني السرعة أرجوك. إنتبه. في الليـل عادة تكثـر حوادث السيارات.

يقول رفاقه أن الإثم الذي عاناه الشاب فيما بعد، كان بسبب هـذه التحذيـرات التي جـاءت على لسـان والـديـه قبـل الحـادث المشؤوم، لقـد حاول الإنتحـار يومـاً ليتخلص من هـذا العبء. . كان يراها في أحلامـه، ويراهـا بقامتهـا الجميلة وبصوتهـا الحنون على طاولة الطعام فيعاف الطعـام ويركض صـوب غرفتـه ويبكي، حتى في الجامعة، كان يعاني من عقاب آخر. عقـاب زميل لهمـا كان على وشك أن يخـطبها لنفسـه. كانـا عاشقين، وكـانا عنـدما يتمشيان في حديقة الجامعة تسعد بهما كل العيـون، ومنذ مقتلهـا كره هذا الزميل شقيقها وقاطعه، وإذا التقيا مصادفة، في الكلية أو النـادي أو المطعم رمقـه بقسوة كـأنه هـو نفسـه يصيـح بـه: أيهـا القاتل. . أيها القاتل.

هكـذا تحولت حيـاة هذا الشـاب إلى ألم ممض، عـذاب لا نهـاية لـه، حزن واتهـام شمل الأسـرة كلها، وتحـول الجميع إلى نـــاس عصبيين ينفـرون من أقـــل حـركـــة، حتى النـاس الـــذين يعرفونهم، الجيران والأقرباء، صاروا يتحاشون اللقاء بهم، بسبب هذا الهم الذي انتشر من الأفئدة والعيون.

والأبوان بما يملكان من حنان وحب، حاول كل منهما ـ على حـدة ـ أن يخفف من وقع الصـدمة على الإبن، صـار كـل منهمـا

يقول له ـ بين الحين والآخر ـ هذا هو قدرها يا بني. . والبركة فيك الآن. . فكف عن هذا الحزن. . إنك تقتل نفسك وتقتلنا معك.

تدخلت في الحديث ملفتاً نظر الدكتور:

ــ هذا الشاب يا أسعد واجه هذا الحادث الرهيب وهو واع شاب ويقود سيارة. . والأحزان التي عاناها بسبب وعي ما فعل. أما بالنسبة لولدي أبو علي فهما طفلان صغيران. . ومع تقدم الزمن سينسى الأب مثلما ستنسى الأم وسينسى الطفل نفسه ما اقترفته يداه، ويصبح الطفل القتيل مجرد ذكرى منسية. إذا تذكرها أبو علي أو زوجته فهي بقية أحزان وبقية شجون.

قال أبو ابراهيم:

ــ والحي أفضل من الميت يا أسعد. . الحمد لله أن أحدهما ظل حياً ولم يجره أخوه معه فتكون المصيبة أكبر والحزن أشد قد يؤدي بالأبوين إلى الجنون. الحمد لله يا أسعد. . الحمد لله. إنه القدر، ولا ندري ما هو السر، السر الذي لا يعرفه إلّا الخالق عزّ وجلّ، إن كل ما نراه لا يحدث إلّا بإرادته. ولكن لا نعرف ما هو هذا السر. الكون كله مبني على سر كبير لا يعرفه إلّا ربك ذو الجلال والإكرام. الموت. الحياة. الأولاد. البشرية كلها. . هذه الحرب. . كل شيء مكتوب على اللوح يا أسعد. . ألم تقرأ سورة الكهف في القرآن. قصة موسى وسيدنا الخضر؟

قال أسعد:

ــ أنا قرأت القرآن كله يا أبو ابراهيم.

قال أبو ابراهيم:

ــ حسناً، دعني أروها لك. فالذكرى تنفع المؤمنين. ثم أن

أبـو ابـراهيم استقـام في جلستـه، وبسمـل وتبـارك ومسـح وجهـه براحتيه. فيما اقتربنا جميعاً منه، فقال:

ــ اسمعوا يا إخـوان، سورة الكهف فيهـا قصص رائعة تـدل على ذلك السر الذي لا يدركه إلا القلائـل أمثال الأنبيـاء والأولياء الصالحين. وحكاية موسى مع سيدنـا خضر الخـالد أبـداً كأصلح الصالحين يجب ألا تغرب عن بـالكم، بل يجب أن تـرددوها دون ملل، فيهـا حكمة الله في خلقـه، فيها المثـل الأمثل لمقتـل هـذا الطفل البريء الآن. . ولا ندري ماذا سيكون في المستقبل؟

ثم أن أبو ابراهيم أغمض عينيـه. ووضع راحتيـه على ركبتيه وسمعنا صوته يرتل كشيخ في المسجد:

«بسم الله الرحمن الرحيم

﴿. . . فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمـة من عندنـا وعلّمناه من لـدنّا علمـاً * قال لـه موسى هـل أتبعك على أن تعلمني ممـا علمت رشـدا * قال إنـك لن تستطيـع معي صبرا * وكيف تصبـر على مـا لم تحط به خبـرا * قال ستجـدني إن شاء الله صـابراً ولا أعصي لـك أمرا * قـال فـإن اتبعتني فـلا تسـألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا * فـانطلقـا حتى إذا ركبا في السفينـة خرقهـا قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا * قـال ألم أقل أنـك لن تستطيع معي صبـرا * قال لا تؤاخـذني بما نسيت ولا تـرهقني من أمـري عسرا * فـانطلقـا حتى إذا لقيا غـلاماً فقتله قـال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا * قال ألم أقل لـك أنك لن تستـطيع معي صبـرا * قال إن سـألتـك عن شيء بعـدهـا فـلا تصاحبني قد بلغت من لـدني عذرا * فـانطلقـا حتى إذا أتيا أهـل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريـد أن

ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا * قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا * أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا * وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا * فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما * وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾ صدق الله العظيم».

ويصمت أبو ابراهيم، أما أسعد فيغرق في تأمل شديد، لعلني الوحيد الذي كان يعرف ماذا يدور بخلده. أسعد عقلاني جداً، كل شيء يفسره تفسيرات حسابية، عقلانية. وهو بعد لحظات همس في أذني: لو كانت أم علي منتبهة إلى الأولاد.. لما سقط الولد. وهذه الحرب ليست من صنع الله. فهل قتل الأبرياء من صنع الله؟ كيف أقبل هذا المنطق؟ كيف أقبل أن أرى بيتاً يهدم فوق رؤوس أطفال وأقول أن هذا من صنع الله؟ أعرف، بكل ما أملك من عقل وفكر، وبكل ما أعرف من لغات العالم أن الله رحمة، وأن الله عادل، وأن الله ليس بحاجة إلى كل هؤلاء البشر. إن عقلي يقبل كل هذا الخلق العظيم، الشمس والقمر والنجوم. النظام الشمسي بأسره. كل هذا الخلق العظيم من صنع الله الذي يخلق كل يوم معجزات في أثر معجزات. ولكن لا أستطيع أبداً أن أقول أن هذه الحرب القذرة من صنع الله. إنها حرب الشيطان لأنها حرب لا عدالة فيها، وحرب لا إنسانية، واستمرارها استمرار للعبة الشيطان، أبو ابراهيم متأثر كثيراً بأشياء

تغرب عن بالي أنا. لا أفهم أبداً أن كل هذا الشر في هذه الدنيا هو من صنع الرب. صدقني يا أبو بسام إن إيماني أوسع مدى وأكبر فهماً من إيمان كل هؤلاء الناس. معرفتي بالحرب معرفة عقل. وأنا واثق أنني على حق، يخيل لي أحياناً وأنا أرى هذا الدمار، وهذه الدماء، وهذا البطش الذي لا يمكن لوحوش الغابات أن تفعله فأتساءل: هل الله هو الذي يريد ذلك؟ بل أشعر بكثير من الخزي والخجل إن الله قد تخلى عنا.. تخلى عن هذا البلد لأننا أذنبنا بحقه وبأنفسنا قبل أن يذنب بحقنا أحد آخر. لو أتيح لي أن أناقش أبو ابراهيم دون أن يتهمني بالكفر والزندقة لقلت له باختصار: إن الله قد تخلى عنا.. ولكنه سيظل يردد: لا تكفر يا ولد إن الله لا يتخلى عن أحد.. أين هو السر الذي يتحدث عنه أبو ابراهيم؟ السر يا سيدي هو العقل البشري، أعطانا الله عقلاً لنفكر، ولنبني كل حساباتنا على العقل.. لا أن تجرنا العاطفة إلى المهالك.. المعجزة كامنة هنا (ويضع أسعد سبابته على صدغه)، هنا المعجزة، لو يدركها أبو ابراهيم.

لقد أدركها غيرنا وفعل بها المعجزات.. تلك الاختراعات الهائلة التي أفادت الإنسانية جمعاء.. كما أنه هو العقل المعجزة نفسه اخترع وسائل الدمار الأشد فتكاً.. وما زال يبحث عن الأكثر قتلاً وتدميراً. هل أقول أن الله قد تخلى عن كل الكرة الأرضية.. عن البشرية جمعاء؟ هذا هو المنطق الذي أحس به.. أشعر به.. أنام وأصحو عليه.

يصمت أسعد، يمسح العرق المتفصد من جبينه بباطن راحته. أشعر أنه يرتجف. يشعل سيكارة، ويمجها كعادته عندما يدهمه الحزن. ثم يردد: لقد تخلى الله عن البشرية جمعاء..

كـل ما في العـالم الآن غلط. . غلط. . كـل مـا في العـالم الآن ينبىء بأن الدمار الشامل قادم. . الدمار الشامل قادم.

* * *

الدمار الشامل الذي يحس به أسعد هل بـدأ من بيروت؟ إنـه يكبـر ويتسـع في المـدينـة، في البلد كله، في النفـوس والقلوب أيضـاً، فها هي زوجتي تـردد، وقد عـادت للتو من تعـزية أم علي بطفلها القتيل: «الحزن يعم يا أبو بسـام، بكيت أكثر ممـا بكت، بل كانت كل جلستنا بكاء وحزناً. والله لم نذكر الطفـل إلاّ قليلاً، وأحاديثنا كانت فلان قتل، فلان تهدم بيته على رأسه. . كل شيء يمـوت في البلد، ومن بقي على قيد الحيـاة اليوم لن يبقى غـداً. القنـابل تـطارد الناس. الـرصـاص يحصـدهم هنـا وهنـاك. كـان أبو علي يشتم كل شيء كأن مساً من الجنون قد مسه، يرفـع رأسه إلى السمـاء ويصرخ: مـاذا فعلت بنـا؟ هـل أنت قـاس إلى هـذا الحد؟ ماذا فعل هذا الـطفل البـريء حتى يقتل على يـد أخيه. . ماذا فعلنا يا إلهي؟

كان صراخه يصل إلينا من الغرفة الأخرى، ويحـاول الرجـال تهـدئته. . إلاّ أن صـراخه يعـود ويعلو من جديـد. ونحـاول نحن النساء أيضاً أن نخفف عن الأم المسكينة التي كانت تردد: غفلت عنهما رمشة عين لا أكثر. . والله كنت إلى جانبهما. . وما هي إلا لحـظة أقل من دقـة القلب ثم سمعت شيئـاً يسقط. كـان الصغيـر يضحـك. . لم يـدرك مـاذا فعـل؟ في الحقيقـة أنـا التي قتلت ولدي. . إنهما صغيران. . الحق علي. . لو كنت منتبهة لهما لمـا حدث ما حدث. أنا قتلت ولدي يا ناس. . أنا قتلت ولدي.

ولـم استـطع البقاء أكثـر ـ تقـول زوجتي ـ خـرجت من البيت

وصوت أبو علي يلاحقني كالرعد: أنت أيها القاسي.. أنت أيها القاتل.. أنت يا قدر يا عديم الرحمة.

وتصمت أمنية لحظة، ثم ترمقني وتقول: «إسمع يا زوجي العزيز. أيها المتفرج الهادىء البال الساكن كالبحيرة، إسمع ما أقوله لك.. هذه الحرب إنها تخرّب النفوس، في أعماق الناس وقلوبهم أكثر مما تخرب البنايات والشوارع..

إنها تقتل الإنسان في روحه قبل أن تقتله في جسده.. هنا يكمن الخطر أيها الرجل الزاوي في الزاوية. الخائف.. إنتبه إلى ما أقول لك إنتبه... سترى في الغد عجباً. سترى ما لم يتحدث عنه الأوائل..».

ما هذه الصحوة في ذهن أمنية، كأن شيئاً أيقظها على ما أنا فيه وما فيه كل هؤلاء الناس، أمنية التي عرفها الناس وقراء الصحف شاعرة تختزل الكلمات لا يستهويها إلا الفدائي.. ولا تكتب شعرها إلّا من أجل يافا والقدس وأريحا.

واقترب منها، أحاول أن أمسح من ذاكرتها المشهد الأخير.. غير أن دموعها تعبر عن أحزانها فتنصرف إلى ولديها الأثيرين، إلى عالمها المغلق الذي نادراً ما فتحت لي نحوه نافذة مضيئة.

* * *

نعمة النسيان

إنها نعمة حقاً، يخيل لي أن السر يكمن هنا أيضاً، فأبو علي خفت أحزانه وإذا نظر في وجوهنا أدرك أننا ما زلنا نشاركه هذه الأحزان، فيبتسم ابتسامة مريرة، ويرفع رأسه إلى السماء ثم يردد: إرادة الله.. إرادة الله. زوجته التي اختفت زمناً، عادت وصارت تزور وتزار، وزارتنا مراراً، وشربت القهوة في شرفة بيتنا، وكانت

تتخلل هذه اللقاءات بعض كلمات العزاء، فيكون ردها شبيهاً برد زوجهـا: الله أراد. الله أخذ.. الله يعـطي.. فها أنـا حـامـل من جـديد، وإذا جـاءني صبي فسوف اسميـه علياً. وان جـاءت بنتـاً سأسميها فاطمة.

إلّا أننـا، والدكتـور خاصـة، صرنـا نلمح في أبـو علي خللاً مـا.. إذ يكتئب فجأة، فيتـرك محله ويهيم على وجهه. حتى وان كان عنده زبائن يطلبون شيئاً من اللحم، فينتظرونه دون إبـداء أي إنـزعاج، أمـا إذا كان الـزبون من خـارج الحي فإنـه ينكفيء إلى الجمعيـة التعاونيـة ويأخـذ حـاجتـه من هنـاك، وإذا عـاد القصف مجدداً ترك أبو علي كل شيء، ودخل المبنى مسرعاً إلى الملجأ. فيقوم جاره أبو كامل بإغلاق المحل نيـابة عنـه، ولا يعود أبـو علي إلا إذا هدأ القصف تماماً، ومع الأيام صار أكثر خوفاً، ولمجرد أن يسمـع انفجارات على خـطوط التمـاس حيث لا خـطر علينـا في الحي، يترك محله وينزل إلى الملجـأ، صار لـه في الملجأ ركنـه الخاص، فيه فرشته ولحافه ووسادته، وحتى علبة سكائره.

لكن الأمـور تطورت بعـد ذلـك. إذ مـرت سيـارة مسـرعـة، وأطلق من فيهـا رشقات من مـدفـع رشـاش على رجـل كـان يمـر بالقرب من دكـان أبو علي، فـانقلب عبر واجهـة المحل ثم ارتمى على الزجاج الذي حطمه بجسده وراح ينتفض أمـام عينيه.. بينمـا ولت السيـارة الجانيـة الأدبار، وأسـرع شبـان من مـركـز الصليب الأحمر الدولي المواجه لدكان أبو علي، حاولـوا إسعاف الـرجل، لكن يبدو أنه مات. فسحبوا جثته إلى طرف الرصيف وألقوا عليـه غـطاء بـانتـظار سيـارة الإسعـاف لنقله.. ولكن مـا الـذي حـدث لأبو علي لحظة ذاك.. تقول أم خالد، وكانت داخل المحل تنتظر

إعداد كمية اللحم التي طلبتها: «خفت كثيراً واحتميت بأبو علي، لكنه كان يشدني إلى الأمام ليحتمي خلفي. كانت مفاجأة مذهلة لكلينا. ولكن بدا لي وأنا المرأة، أنني أقل خوفاً منه، كان يرتجف بشدة، واصفر وجهه اصفراراً داكناً حتى خشيت عليه، كانت الحادثة سريعة كومضة برق، ولكن أبو علي شُده إذ رأى نصف الرجل القتيل قد تدلى داخل المحل، بينما نصفه الآخر كان يتأرجح خارجه، كان المشهد قاسياً لن أنساه في حياتي.. ولن ينساه أبو علي أبداً».

وصرنا ننتبه، تباعاً، وعلى مرور الأيام، أن أبو علي، غير أبو علي الذي كنا نعرفه، حتى أن قريباً له مهنته قصاب أيضاً، صار يساعده في العمل بعض ساعات النهار، كل شيء أصبح مختلفاً، نلقي التحية عليه، غالباً لا يجيب، يحدق في الوجوه ثم ينكفىء، وإذا سمع انفجارات ولو بعيدة جداً، أسرع إلى الملجأ واتخذ في زاويته مكاناً ثابتاً، يجلس مقرفصاً ثم يشعل السيكارة تلو السيكارة. يصغي بحذر، ولا يفارق مكانه إلّا عندما تنحسر الإنفجارات تماماً، تقول زوجته لزوارها، إنه، حتى أثناء النوم لا ينام، كثيراً ما تصحو، فلا تجده إلى جانبها، ثم تدرك أنه هبط إلى الملجأ، خصوصاً عندما يكون القصف على خطوط التماس مستمراً، وهي انفجارات مستمرة على نحو متقطع رغم كل قرارات وقف اطلاق النار، ولكنها بعيدة نسبياً عن الحي. ولا تزعجنا كثيراً، وما لم يقترب القصف من أحياء رأس بيروت، فإننا ننام في بيوتنا دون قلق، ولا نكاد نسمعه إلّا إذا أصغينا جيداً لمصدر الصوت، وفي الأيام الهادئة نسبياً، نراه يمشي حذراً، يتلفت يمنة ويسرة، كأنه يتوقع أن يهاجمه عدو ما، أو تنفجر

سيارة مفخخة فجأة، أو تسقط قذيفة بشكل مباغت، لأن كل هـذا كان متوقعاً، وكان النـاس إذا اضطروا أن يـذهبوا إلى أعمـالهم أو يشتروا شيئاً من المواد الغذائية، يخرجـون وأيديهم على قلوبهم. والدكتور أسعد اعتبر ذلك إنذاراً لنا، إن حالـة أبو علي ستـداهمنا جميعـاً ذات يوم، الخـوف وبـاء سينتشـر تبـاعـاً. أبـو علي واجـه الموت في محله مراراً، في ولده، في اغتيال الرجل أمـام دكانـه، في النـاس الآخرين. إنهـا الحرب. كـل المصائب تتـراكم فيها، وحالة أبو علي نبوءة لنا جميعاً. ستصبح المدينـة كلها بحـاجة إلى عناية نفسيـة. إلى مستشفى أمراض عقليـة. إن كل شيء يتهـالك ويسقط. والصورة الحادة تتوضح أكثر فأكثر ويوماً بعد يوم.

* * *

الفصل العاشر

كـان جالسـاً إلى جانبي يـرتجف. وكلما نـظرت نحـوه رأيت عرقاً غزيراً يتفصـد من جبينه. ويمـلأ وجهه وحـول عينيه وعنقـه. خلته لوهلة أنـه يبكي، كنت أعرف أنـه خائف، فـأخبار المـذبحة انتشرت بسرعة، مئات الناس قتلوا هناك على الهوية، وهو خائف أن يلقى المصير نفسه، إذ أنهم في الغربية، أيضـاً، بدأوا الـذبح على الهوية، كان يستعجلني ويطلب مني أن أسرع، وكيف أسرع يا جوزف؟ قلت له. فشارع المزرعة مزدحم بالسيارات. وحواجـز المسلحين توقف الناس وتسألهم عن تذاكر الهويـة، بالنسبـة لي، كنت مطمئناً إنهم لن يقربوه طالما هو معي، وعلى زجاج سيـارتي الأمامي لوحة «الصحافة» التي كانت توفر علينا كثيراً من المشـاكل والمتاعب، كانت اللوحة المختومة بخاتم نقابة الصحافة تفتـح لنا الطرق، وكانت الحواجز تسمح لنا بالمرور دون أي سؤال. كذلك كان جوزف يدرك معنى هذه اللوحة السحريـة، وعندمـا صعد إلى جانبي قال مرتكباً: هيا.. لنخرج من هنـا أرجوك. فـالمجلة التي نعمل فيها معاً مكاتبها في القسم الشرقي من المدينة، فقلت لـه: أنت تحميني هنـا.. وأنا أحميـك هناك. قـال حسناً.. حسناً.. ولكن أسرع.. أرجوك.

بيـروت في ذلك الـوقت، كـانت مسمـومـة الـوجـه، النـاس

تتراكض هنا وهناك. الإذاعات المختلفة تروي وقائع المذبحة، أو ما أسموها فيما بعد «السبت الأسود».

اجتزنا أطراف رأس النبع بسلام، نحو المزرعة، فتنفست الصعداء، فيما بدا هو أكثر ارتباكاً عندما شاهد عشرات المسلحين يوقفون السيارات ويسألون عن بطاقات الهوية، وكان بعض المسلحين يُنزلون ركاباً من بعض السيارات ويقودونهم إلى جهة مجهولة.

قلت له: جوزف لا تخف.. ثم أشرت بسبابتي إلى لوحة الصحافة المثبتة على زجاج المقدمة، في الوسط تماماً، حتى يراها الجميع بوضوح. لكنه قال لي بصوت خافت: الله يحمينا يا أستاذ.. يا ليتني لم أترك المكتب.

بيت جوزف في شارع الحمراء، متزوج من رسامة ما تزال في بداية فنها، وله منها بنت جميلة اسمها ليندا، كنت كلما زرته في بيته جلبت لها معي عدة أنواع من الشوكولا، كان صديقي، يبعد بيته عن بيتي مسيرة خمس دقائق، ونعمل معاً في المجلة منذ أكثر من سنتين، وكنت أحرر في قسمها الثقافي ويحرر هو في قسمها الإقتصادي. غالباً، عندما نلتقي معاً، أصحبه بسيارتي إلى منزله، كان مصاباً بشلل في قدمه اليسرى منذ كان طفلاً، وهو يستعين بعكاز خشبي فيجر قدمه جراً، لكنه كان من ألمع كتّاب المجلة، أنا وهو وزميل ثالث فقط نسكن في غرب المدينة، بينما بقية المحررين الآخرين يسكنون في شرق المدينة.

قبل الحرب لم نكن نشعر بأي حرج في التنقل بين شارع الحمراء والأشرفية، خصوصاً بعد أن تم إنجاز جسر فؤاد شهاب الذي ربط الأشرفية بشارع الحمراء مباشرة، فصرنا نقطع المسافة

بين المجلة والبيت بعشر دقائق، وفي فترة الازدحام بثلث ساعة على أبعد تقدير. في الحرب أصبح جسر فؤاد شهاب جزءاً من خطوط التماس، يقوم على مدخله الغربي بناء ضخم أطلق عليه اسم برج المر نسبة إلى صاحبه، وهو عبارة عن بناية ترتفع خمسة وعشرين طابقاً، بينما يقوم على الطرف الآخر قريباً من الجسر بناء آخر أشد ارتفاعاً أطلق عليه اسم: برج رزق. وقد انتصبت المدافع وراجمات الصواريخ في كلا البنائين المتقابلين كأنهما وحشان لدودان ينتظر كل منهما مناسبة لإلقاء كل قذائفه ورصاصه على الآخر. وفي الحقيقة فإن قذائف المدفعية وطلقات الرصاص قد نخرا البنائين.. لكنهما ظلا شامخين صامدين تستخدمهما الأطراف المتقاتلة كدرع من الإسمنت المسلح لحماية الأحياء المحيطة بهما. فبرج المر كان يحمي شارع الحمراء مباشرة، كذلك متفرعات رأس بيروت. أما برج رزق فكان يحمي الأشرفية ومحيط مستشفى ديو والأشرفية التحتا والجعيتاوي والمناطق المحيطة.

بإغلاق جسر فؤاد شهاب أمام حركة المرور، صرنا نضطر، عندما نخرج من مكاتب المجلة إلى عبور منطقة المتحف إلى رأس النبع ثم المزرعة، أو الشوارع المتفرعة عن المزرعة مثل مار الياس أو كورنيش التلفزيون حتى الوصول إلى رأس بيروت.

ذلك اليوم الأسود، دخل علينا مدير الإدارة وصاح بنا: ليغادر المحررون المكاتب فوراً.. عودوا إلى بيوتكم.. الحواجز المسلحة ما بين بيت مري وبرمانا نزولاً إلى البلد تذبح الناس على الهوية.

دب الذعر في المكاتب، وأسرع أكثر من محرر إلى سيارته،

فيما صاح بي جوزف. . خذني معك، فرحبت به ونزلنا إلى الساحة. صعد إلى جانبي وانطلقنا.

لم تكن حواجز مسلحي القسم الشرقي من المدينة قد وصلت إلى محيط المجلة، وهذا وفر علينا وقتاً، إذ انسحبنا من الأشرفية على عجل صوب المناطق المسلمة.

وما ان وصلنا حي المزرعة حتى بدأت المدافع المتقابلة تتراشق بشدة، وحدث هرج ومرج، اصطدمت السيارات بعضها ببعض، لكن الناس كانت تتجاوز ذلك في محاولة كل منهم الإسراع إلى بيته، واختلطت أصوات أبواق السيارات المتزاحمة على النجاة بأصوات المدافع والرشاشات تهدر فوق رؤوسنا كالرعد، وكنت سأقترح على جوزف أن يترك السيارة، فالحواجز المسلحة لم تكن تعترض المشاة، لكنه كان خائفاً وفزعاً، كما أن قدمه المشلولة لا تساعده على الحركة بسرعة، كنا قد تجاوزنا مستشفى البربير، كانت الناس تهرب بفوضى لا مثيل لها، فيما كانت أعداد من المسلحين تتجه نحو خطوط التماس بكامل أسلحتها والمدافع المحمولة على سيارات الجيب، كما تكاثرت حواجز المسلحين التي كانت تفتش في تذاكر الهوية عن انتماءات الناس الدينية، قال جوزف: الله يساعدنا، وراح يرسم الصليب على صدره. . فقلت له: كف عن هذه الحركة حتى لا يرانا أحد يا جوزف. . وإذا سألك أي شخص من المسلحين عن تذكرة هويتك أبرز له بطاقة الصحافة. . فقال لي: واسمي يا أستاذ. . اسمي يفضحني. . فتذكرت أن إسمه جوزف. . إنه يكشفه ببساطة ودون تردد. . فعلاً بدأت أخاف عليه. . إلا أن ما كان يطمئنني لوحة الصحافة التي تتصدر السيارة، وخصوصاً أننا مررنا

على عـدة حواجـز، وأشار رجـالها بـأيديهم أن نعبـر بسرعـة دون توقف.

اشتد زحام السيارات قريباً من مفرق اليونسكو، ومفرق شارع فـردان يمينـاً، فيمـا اشتـد أيضـاً القصف. وراحت رائحـة الغبـار والبارود تعبق بالجو. كانت سيارات الإسعاف تحاول التحرك دون جـدوى. وازداد الصـراخ والضجيـج. وخشيت على جـوزف أن يمـوت رعباً، كنت ألمحـه إلى جانبي وقـد اشتد اصفـرار وجهه، بينما لم يستطع في محاولات عديدة أن يشعل سيكارته، وتسـرب خوفه إليّ، وندمت لأنني اصطحبته معي.

كنا نتقدم ببطء شديد، وانفجـرت قذيفـة بالقـرب منا، وعـلا الغبار والصراخ معاً، وترك معظم الناس سياراتهم وراحوا يركضون من كـل جـانب، فكـرت أن أفعـل مثلهم. لكن جـوزف إلى جانبي.. كيف أتركه وأهرب، لعله هو أيضاً يشعر بإحراجي. قال لي: أتـركني يـا أخي.. أتـركني يـا أستـاذ.. أرجـوك وانـج بنفسك.. فضاحكتـه قائـلاً: وهل تـظنني خائفـاً إلى هذا الحـد؟ فقال: لا مكان للشجاعة هنـا.. القذائف تنهمـر على الجميع.. أنت لا تواجه وحشاً.. أنت تواجه قذائف مـدفعية تسقط عشـوائياً فوق رؤوس الناس، فقلت له:

طالما أن السيـارات التي أمامي تتحـرك فأنـا أتحرك فمـا زال خط السيارات الذي أمامنا يسيـر.. حسناً جـوزف.. حسناً.. إذا توقف السير.. نترك السيارة معاً.. فراح يلح: اذهب يـا أخي.. اذهب.. على الأقل ليبقى واحد منا على قيد الحياة.. هل تـريد أن نمـوت معاً.. أنت عنـدك أسرة وأنـا عنـدي أسـرة.. أرجـوك إنـج.. إذا لم يكن من أجلك فمن أجلي، أنـا لن أستـطيـع أن

أخطو خطوة واحدة.

ظهر أمامنا الآن حاجز مسلح، لفت نظرنا أن رجاله كانوا ملثمين بحطات مبرقعة على غير عادة بقية الحواجز. قلت في نفسي: يا ستار.. هؤلاء لا ينتمون إلى تنظيم محدد. إنهم الأكثر خطورة بسبب إخفاء وجوههم.. مثل هؤلاء يبحثون عن الثأر، في الحقيقة توجست خيفة، وتطلعت نحو رفيقي. لقد انهار تماماً حتى أنه بال على مقعده، وساح بوله إلى تحت قدميه، فصحت به: اثبت يا جوزف.. اثبت أرجوك.. إنك تربكني.

لم يرد عليّ، ازداد اصفرار وجهه، فصرت أرجو الله أن يساعدنا.

ومع أن القصف استمر على أشده، فقد ظل الرجال الملثمون في مكانهم يسألون ركاب السيارات عن بطاقات هوياتهم، لكن أملي ظل قوياً ببطاقة الصحافة أن تكون وسيلتنا للعبور دون أي سؤال.

وأخيراً اقتربنا من الحاجز، وانتظرت إشارة من أحد رجاله تأمرنا بالمتابعة، لكن أحدهم أشار لنا بأن نوقف السيارة إلى جانب الرصيف، فبدأ قلبي يدق بعنف. توقفنا، فاقترب رجل مسلح من جهتي حيث أقود السيارة، فاطمئننت قليلاً، فأنا ابن المنطقة واسمي وحده كاف لينقذني وينقذ زميلي.

قال الرجل بلهجة الأمر:

ـ تذكرتك.

قلت في نفسي سألهيه عن زميلي في تباسط الحديث معه، أجبته:

ـ نحن صحفيان يا أخ.

فصاح بي ثانية:

ــ قلت لك تذكرتك.

اقتربت منه عبر النافذة:

ــ ولكن.. لماذا أنت ملثم يا أخ.. أَريد أن أعرف من أنت؟

ــ هذا ليس شغلك.. أبرز تذكرتك.

فأشرت له نحو البطاقة الملصقة على زجاج النافذة، فكرر ثانية، وبلهجة قاسية:

ــ ألم تسمعني.. أريد تذكرتك.

فقلت له: أنا لست لبنانياً يا أخي.

فشدّد:

ــ أبرز تذكرتك حتى أرى.

أخرجت بطاقة هويتي. فقرأها على عجل وأعادها لي، توقعت أن يسمح لنا بالمسير. لم يفعل. استدار نحو الطرف الآخر وطلب من جوزف تذكرته، فبادرته قائلاً: يا أخي.. إنه مريض.. وعلي أن أذهب إلى المستشفى.. إنها أزمة قلبية.. فاسمح لنا أن نمضي.

لم يصغ الملثم لي، بل طرق زجاج النافذة المفتوح إلى نصفه وصاح بجوزف:

ــ تذكرتك أنت.

نظر جوزف نحوي مستنجداً، فكررت قولي:

ــ يا أخ.. بالله عليك.. دعنا نمشي.. إن الرجل مريض، وعلي نقله إلى المستشفى.

قال الملثم موجهاً كلامه إلى جوزف:

ـ قلت اعطني تذكرتك. . ثم أسمح لكما بالمسير.

وهنا لمحت جوزف كأنّ الخوف قد غادره فجأة، مد يـده إلى جيبه وأخرج بطاقة هويته. ما أن لمحها الملثم حتى صاح به:

ـ إنزل يا كلب.

غادرت مكاني من وراء مقـود السيارة على عجـل، وأسرعت نحو الرجل وقلت له متوسلاً:

ـ الرجل مريض يا أخ. . وهـو إنسان وطني. . ومن سكـان رأس بيروت. . إنه بحمايتك وحمايتي.

دفعني الرجل بعيداً عنه ثم صاح بي:

ـ بلا أكل. . . . لا تتدخل أنت. . وإلاّ.

قلت له بلهجة متوسلة أكثر:

ـ أرجوك. . كرمال عيوني. . بحق القرآن أن تتركه.

فصاح بي:

ـ أنت صحافي. . صحافي. . أليس كذلك؟

ـ نعم. . نعم. .

ـ ألا تعرف ماذا جرى اليوم هناك؟

وأشار نحو الشرق.

قلت:

ـ نعم. . نعم أعرف. . إنها همجية ووحشية.

ـ إنهم قتلة. . مجرمون. .

ـ لكن هذا الرجل يا أخ لا علاقة له بهم. . لا دخل له. .

ـ وهـل الذين قتلوهم لهم عـلاقة؟ لقـد قتلوا أبي وأخي. . هل تفهم؟

واحترت ماذا أجيب الرجل. . ثم ترددت قبل أن أقول:

ـ إذا كانوا هم مجرمون. . هل تريد ان تكون أنت مجرماً؟

صفعني فجأة على وجهي صفعة شرسة كادت توقعني أرضاً لو لم أتمسك بالسيارة. ومع ذلك تحاملت على نفسي، ورحت أحاول التودد إليه قائلاً:

ـ يا أخي. . والله الحق معك. . وهذا الرجل لم يلحق أذى بنملة طوال حياته. . أنظر إليه. . إن نظرة واحدة تكفي لتعرف أنه بريء وأنه إنسان مثلي ومثلك.

قاطعني الرجل بحركة سريعة فتح خلالها الباب وجر جوزف منها، فوقع على الأرض، حاولت مساعدته، غير أن الرجل الملثم منعني، ثم راح يصرخ بجوزف: قف يا ابن الكلب. . قف. .

لم يستطع جوزف الوقوف دون عصاه، فاقتربت لأساعده. وهنا صرخ الرجل الملثم على رفيق له هو الآخر كان يشاهد ما يحدث: تعال يا أحمد تعال. . ثم إنهما معاً أوقفا جوزف. كان مستسلماً لهما كحمامة، وكان بين الحين الآخر يرمقني بنظرة مرة. مد يده إلى السيارة وسحب عصاه، واستقام وهو يستند إليها شاداً جسده إلى أعلى، ثم التفت نحو الرجل الملثم وقال له بهدوء:

ـ ها أنا بين يديك يا أخي. . وقبل أن تفعل شيئاً أريد أن أقول لك أنني ضد كل الذين يقتلون الناس، إنني ضد أن يموت إنسان لا ذنب له ولم يرتكب جريمة. . وما سمعنا اليوم شيء مخز ووحشي ومؤلم. . إنني أعلن ذلك أمامك، ولو كنت قاضياً لحكمت على أولئك الذين ذبحوا الناس على الهوية بالموت، فإذا كان علي أن أدفع حياتي ثمناً لحياة أبيك وأخيك. . فها هو عنقي أسلمه لك.

وفوجئت باستعادة جوزف رباطة جأشه وهو يخاطب الرجل. كان متماسكاً، زال عنه رعبه، واستعاد صفاء وجهه. كان ينظر في عيني الملثم بصفاء روحي عجيب، لعلني، وحدي، قرأت في هذه اللحظة ما يجول في ذهنه، كان رتل السيارات إلى جانبنا قد توقف تماماً، فتلفت عسى أن ألمح أبو محمد أو أبو الطيب، أو أي عسكري، أو مسلح آخر لعله ينقذنا. لكنني انتبهت أن معظم السيارات قد فرغت من أصحابها هرباً من القذائف التي ما زالت تصم الآذان، وفي هذه اللحظة تمنيت من كل قلبي أن تسقط علينا قذيفة تقتلنا جميعاً، تمنيت ذلك حقاً، لكنني حتى آخر لحظة كنت أتصور أن الرجل الملثم سيعفو.

وبغمضة عين، وبشكل لم أتوقعه أبداً، سحب الرجل الملثم جوزف من شعره الكثيف ونخّه على صندوق السيارة وأطلق رصاصة واحدة على مؤخرة رأسه، فتلاشى جوزف كالحلم، وتساقط ببطء شديد نحو الأرض، بينما كان الدم يتفجر من رأسه.

لم أستطع أن أصرخ، بل ظللت لوهلة لا أعرف ماذا أفعل؟ تركني الرجل وانضم إلى رفاقه الآخرين ثم انسحبوا بعيداً، ولم تغب عن بالي تلك النظرة القاسية التي رمقوني بها آنذاك، كانت فيها نظرات كل شرور العالم وأحقاده.

كان جوزف منحنياً على نفسه. بينما انفلتت عصاه بعيداً، تمنيت أن يساعدني أحد، وغاب عني كل شيء.. أحسست أن صمتاً رهيباً أحاط بي فجأة. صرت أرى الناس ظلالاً تمرق بسرعة من هنا وهناك.. لم أعد أسمع حتى القذائف.. لم أنتبه إلى دموعي تسيل وتلامس شفتي بملوحتها. كان الغبار والبارود يملأ من حولي الفضاءات، أحسست أنني وحيد وضائع في

صحراء أصارع العاصفة، أردت أن أشتم الرجال الملثمين الـذين كانوا مزهوين بانتصارهم الصاعق على جوزف. . وتذكرت كـل ما كـان الراديـو يقولـه ونحن نزحف بعيـداً. ورحت أتصور الملثمين الآخرين في القسم الشرقي من المـدينة عنـدما قتلوا والـد الرجـل وأخاه وكيف عاملوهما. امتزجت الصورة في ذهني ملأى بـالدمـاء والألم والعـذاب، جـوزف، والآخــرون جميعهم الـذين فــرشـوا بدمائهم أرض يوم السبت، تجسدوا أمـامي وهم يتساقـطون تحت طلقات المسدس الذي ثقب رؤوسهم، فرحت أبكي بصـوت عال كطفل فقد الرجاء وفقد الأهل وضاع في غابة لم يدخلها إنسان.

لا أدري كم مـر من وقت وأنـا في هــذه الحـالــة. عنـدمـا استعـدت وعيي انتبهت إلى أن الصورة الـداكنة مـا زالت تتحرك: القذائف والناس والغبار والحجارة والهرب والرعب، كـأن القيامـة قامت وانهار كل شيء.

الـرجال الملثمـون اختفوا، ربمـا ليبحثوا عن صيـد جديـد، كانت في عيونهم تلك النظرات التي لن ترتـوي من الدمـاء، ماذا أفعل؟ جوزف لا حـراك فيه. مـا زال على قعدتـه إياهـا، منحن، ومنـطو على بعضه، لم يسقط إلى الأرض تمـاماً ولـم تتمـدد جثته مثل بقية القتلى. والناس، الناس، كلهم يعبـرون من جانبي دون توقف، دون أن ينظروا إلى هـذا الإنسان الحبيب الـذي كان قبـل لحظات، أو ربما قبل سنوات يكلمني بصوته المتهدج الخائف. . كـان حياة حقيقيـة، ثم تحـول فجـأة إلى صمت. . صمت قـاهـر ومرعب وموجع.

تمنيت أن يبادرني إنسان ما ليساعـدني. . دون جدوى. . يـا إلهي. . ماذا أفعل بـالجثة. . خيـل لي، بينما النـاس يتراكضـون

على غير هدى أنني سأفعل مثلهم، أترك السيارة وأترك جوزف وأركض.. وتخيلت في هذه اللحظة زوجة جوزف وابنته لينـدا ماذا ستقول إذا عرفت؟ يا إلهي، بل بأي وجه سأقابلها.. قتلوه أمام عيني.. وستسألني كيف سمحت لهم أن يفعلوا.. يا ليتني لم أصطحبه. يا ليتني أجبرته على البقاء هناك.. فما كان لقي هذا المصير.

القذائف. الناس. الغبار. الهرب. أبواق السيارات، الجنون. كان الجنون هو السائد هذه اللحظات. كنت أفتح ذراعي كأنني أناجي الله.. أو أتمنى عليه نجدتي.. وتذكرت ابنتي وابني وزوجتي.. لا شك أنهم عرفوا ما جرى.. وأنهم يهتفون إلى المجلة.. وإلى أصدقائي يسألون عني.. أعرف مدى قلقهم.. كانوا دائماً يقلقون كلما اضطررت للخروج إلى العمل.. وهنا اتخذت قراري، حملت جثة جوزف من تحت إبطه وأدخلته المقعد الخلفي بصعوبة. تلوثت بدمائه، تخضبت كفاي بالدماء. لم أكن مهتماً، أريد فقط أن أرفعه. كان المسكين ثقيلاً، كأنه حمل كل هموم العالم. وكان ساكناً سكون الخوف البعيد، مضرجاً بالدم والغبار والأسى، وانتبهت إلى ابتسامته المريرة التي لن أنساها ما حييت، ابتسامة فيها إدانة العالم كله. البشرية كلها.

مددته على المقعد وتركته. ظللت حائراً ماذا أفعل.. إلى أين أذهب بالجثة. كانت زحمة السيارات قد خفت. وبعضها تركها أصحابها في منتصف الطريق، جلست وراء مقود سيارتي وسرت متعرجاً بين السيارات المتوقفة وبين الحجارة والرماد والحرائق. سرت مسافات. لم أقصد بيتي. كنت أفكر بوسيلة ما

أرمي فيها عني هذا العبء. لن أذهب بجوزف إلى بيته. إلى زوجته الفنانة.. إلى ليندا التي قد تعتقد أنني جلبت لها الشوكولا.. يا إلهي.. ماذا ستفعل إذا رأتني أجلب لها أباً ميتاً؟ ماذا ستقول؟ ستكرهني أبداً. لا أريدها أن تكرهني. لا أريد زوجته أن تتألم كلما رأتني عابراً الطريق أو جالساً في مقهى قريب.

راحت الأفكار تتضارب برأسي. لم أشته الموت كما اشتهيته ذلك اليوم. يا إلهي.. من ينقذني من هذا الموقف الصعب.. أين أذهب بك يا جوزف.. يا صديقي.. يا أخي.. ماذا أفعل؟ لكن جوزف ظل صامتاً وممدداً خلفي بهدوء وسكون.

سرت طويلاً في الشوارع المغبرة التي أصبحت شبه فارغة الآن، لا يعكر صمتها إلاّ سيارات المسلحين وهي تعبرها. القصف يشتد، وتختلط أصوات القنابل بأصوات الرصاص والصواريخ، وما زلت أسير على غير هدى.. لا أحد يعرف أنني أنقل الجثة. وأنني لا أعرف ماذا أفعل بها.

عبرت شوارع وأزقة وانتبهت في آخر لحظة أنني أعبر كورنيش المنارة إلى منطقة المرفأ، أي إلى خطوط التماس، كأنني أريد أن أعود بجوزف إلى القسم الشرقي من المدينة، ووقفت، واستدرت بالسيارة لأعود.. غير أن سيارة مسلحين اعترضتني ونزل بعض ركابها نحوي شاهري السلاح: قف.. ووقفت. صرخ أحدهم: إنزل من السيارة.. نزلت، لمحوني أبكي.. كنت متهدماً حقاً. لا أقوى على الوقوف. أشفق عليّ أحدهم وسألني ان كنت بحاجة إلى شيء. فأشرت إلى المقعد الخلفي. تقدم، فرأى جثة جوزف. سألني:

ـ من هذا القتيل؟
احترت ماذا أقول له.. فكرر السؤال:
ـ من هذا القتيل؟
قلت له:
ـ إنه زميلي في العمل.. قتلوه هناك. وأشرت إلى مكان ما.
ـ من الذي قتله؟
قلت:
ـ رجل ملثم.
ـ آ.. آ.. عرفت.. عرفت.. صاحبك مسيحي.
ـ نعم.. إنه، يا للأسف، كان مسيحياً.
قال:
ـ وأنت؟
قلت له؟
ـ أنا.. أنا مسيحي أيضاً يا سيدي.. لو تريحني بطلقة واحدة.
قال:
ـ نحن لا نقتل من لا يقاتلنا.. ولكن، كيف قتلوه وتركوك؟
ظللت صامتاً، فقال لي:
ـ هل تريد مساعدة؟
فتجرأت وقلت له:
ـ أين أذهب به؟
قال:
ـ خذه إلى براد المستشفى.. ثم أخبر أهله.. أسرته..

هل تعرف أسرته؟

قلت:

ـ نعم.. لكن لا أجروء على أخذه إلى أهله.. لا أجروء أن أقول لهم.. ساعدوني أرجوكم.

تبادل الرجال نظرات سريعة، ثم قال أحدهم:

ـ سنساعدك.

تقدموا من سيارتي، وسحبوا جثة جوزف ورموها في سيارتهم، ثم قال لي أحدهم:

ـ تذكرته معه.

ـ نعم.

ـ إذهب أنت إلى بيتك.. اسرع، وإلّا لحقت به، نحن نتصرف.

تحركوا في البداية بطيئاً، ثم أسرعوا وغابوا عني. أما أنا فقد ظللت في مكاني مسمراً في الأرض لا أتحرك.. وندمت لأنني تركت جوزف يذهب معهم، ثم تذكرت زوجتي وولدي فعدت إلى سيارتي ورحت أقودها بسرعة جنونية محاولاً العثور على بيتي.

* * *

الفصل الحادي عشر

الحرب جعلتنا نتكيف مع ظروفها، بل صرنا ننام عميقاً دون أي اعتبار للقذائف والصواريخ، والسر الذي تحدث عنه أبو ابراهيم، كان يعطينا إضاءات تشبه النور القوي الذي يشتعل وينطفىء، فأم خضر أنجبت خضراً آخر، وأم عبد القادر أنجبت ولداً أطلقت عليه إسم إبنها الغائب، وكذلك أم علي أنجبت طفلاً جميلاً أسمته علياً كما تمنت، فالسر العظيم وراء هذا الكون يفعل المعجزات دائماً، وتلك الآيات البينات التي رتلها لنا أبو ابراهيم ذات يوم، نستعيدها بابتهال وإيمان كلما رسم ذلك السر المقدس أمامنا مشهداً جديداً. فبعد اختفاء أبو المجد زمناً طويلاً، جاءتنا الأخبار التي تقول أن لصوصاً، أو مافيا، دخلت عليه في فندقه في هونغ كونغ ومزقته إرباً إرباً بالسكاكين واستولت على بضاعته التي كان يخفيها بحقائبه بطريقة ذكية. السفارة أخبرت وزارة الخارجية، والخارجية أخبرت الشرطة، ثم جاء المحققون ليسألوا عنه وعن نشاطاته. شرطة هونغ كونغ قدمت تقريرها للشرطة اللبنانية وفيه معلومات رهيبة عن أبو المجد، إذ كان من كبار مهربي الحشيشة في العالم، وأنه نجح أكثر من مرة في إيصال كميات كبيرة إلى هونغ كونغ، وفي اعتقاد الشرطة هناك أن أبو المجد صفته احدى المافيات لخلاف حول هذا الموضوع.

ثم اكتشفنا أن زوجته أم خالد أصبحت من الأغنياء، فقد ترك لها مبالغ كبيرة من المال في المصارف مسجلة باسمها، كما سجل كل قطع الأراضي التي اشتراها وكان ينوي أن يشيّد فوقها بنايات باسمها. وقالت أم خالد لبعض الجارات أنها نصحته مراراً الكف عن هذه التجارة الحرام لئلا يدفع حياته ثمناً لها، وما توقعته حدث، وحزنت عليه بضعة أيام، وتقبلت عزاء أهل الحي جميعهم. وأولمت على روحه الولائم الكثيرة للفقراء، ووزعت من ماله الكثير على المحتاجين عسى أن يغفر الله له.

كان كل شيء يتحرك في رأس بيروت، والمدينة بأكملها، بإشارات مستمرة من ذلك السر الخفي الذي لا يدرك رموزه أحد.

الحرب هي الحرب، والمجلة التي كنت أعمل بها توقفت عن الصدور وتوقفت مرتباتنا بالطبع، فعدت أستدين من أبو زياد وأبو علي وأبو طالب، وظلوا كرماء معي دون أي تذمر، ولم ينسَ أبو محمد أن يضمني إلى قائمة الذين يمدهم بالمواد الغذائية دون توقف.

إنقلبت روتين أيام السلم رأساً على عقب، وتبدلت أمور كثيرة، فالحرب مستمرة، واتفاقات الهدنة ووقف إطلاق النار، كانت دائماً فسحة راحة للمقاتلين والناس العاديين على حد سواء، وكان عليّ أن أبحث عن عمل جديد في إطار بيروت الغربية، وتذكرت صديقاً قديماً لي أسس معهداً أكاديمياً مدعوماً بميزانية ثابتة من دولة عربية مهمته نشر الكتب الأكاديمية الرفيعة المستوى، فقصدته ذات يوم ولم يخيّب رجائي، فقد منحني العمل فوراً، وسلمني الإشراف على نشر الكتب، فقدرت لهذا الصديق موقفه النبيل الذي ما نسيته أبداً. أم أنه ذلك السر العظيم

وإذا التقينا، أبو محمد وأنا، بأبو الطيب مازحناه، وداعبناه، ويسأله أبو محمد: أيها الوغد كيف استطعت امتلاك قلب هذه الفتاة الهائلة الجمال.. كيف أغريتها وأنت لا تملك من وسائل الإغراء إلاّ سمنتك وشعرك المتساقط وضحكتك الهوجاء التي توقظ النيام في عز نومهم؟ فيضحك أبو الطيب ويشير إلى قلبه براحته، ثم يدق جدار قلبه قائلاً: الحنان يا أصدقائي.. الدفء. والله لا أعرف كيف تنفك عقدة لساني في حضرتها، اختلس الوقت واذهب بها إلى المطعم الخلفي للأكسبرس، أفتح لها زجاجة شراب، واطلب لها شرائح اللحم، ثم لا أقدر أن آكل لقمة واحدة لأنني أكون مشغولاً في التأمل بها.. يا إلهي.. كم هي جميلة وساحرة.. أين كانت تختبىء هذه المرأة؟ لقد اكتشفت أن الثلاثين سنة الماضية من عمري كانت انتظاراً طويلاً لهذه اللحظات، لهذه المرأة.. والله، ما لفتت نظري امرأة، لا في دمشق ولا في عمان ولا في أي مكان آخر، كنت دائماً منصرفاً إلى مهمتي الأساسية في هذه الحياة، النضال والقتال والقيام بعملية فدائية اخترق فيها دفاعات العدو.. أما الآن.. أما الآن..

فيقاطعه أبو محمد:

ــ يا نذل.. هل تتخلى عن النضال من أجلها؟ سأفضحك..

فينشر أبو الطيب ضحكته العالية في الأجواء حتى مسافة كيلومتر، ثم يقول:

الذي يغلق باباً ليفتح باباً آخر؟ فأبو الطيب غرق حتى أذنيه في ذلك الحب الذي نقله من حالة إلى حالة، ريثما جعلته بين ليلة

وضحاها رجلاً آخر، فصار يهتم بنفسه، وبأناقته، وبرائحته التي كانت ذات يوم رائحة التراب والبارود، فامتزجت بالعطر الناعم، وصرت أنا بيت سرّه، بل أصبحت وسيلته للقاء ريتا. فصار يزورني زيارات شبه يومية، عسى يلتقي بريتا عندما تعجز أسلاك الهاتف عن إيصاله إليها. وكانت تصرّ عليه ألّا يعرف أحد من أهل الحي علاقتهما، بل أصرّت أن يخفي هذه العلاقة حتى عليّ وعلى أبو محمد، لكنه في الحقيقة كان يتفاخر بها. وكيف لا، وريتا الجميلة، الأخّاذة، الناعمة كالحرير اختارته وحده من بين جميع الرجال الذين يحاولون إغراءها في الحي أو في المكتب. كانت ريتا تذهب إلى مكتب الشركة سيراً على الأقدام، ترتدي بنطالها الأبيض المشدود على جسدها وقميصها الأحمر الذي تتركه يتطاير على جسدها كالعصفور، ولم تكن تأبه للنظرات التي تلتهمها.. ومع أن أبو ابراهيم كان يتضايق منها بصوت عال ومسموع كلما نزلت من المبنى ومرّت عبر حديقته إلى عملها فيقول: الله يستر علينا. لكن كثيراً ما ضبطناه يسترق النظر إليها، فيداعبنا قائلاً: استغفر الله.. النفس أمّارة بالسوء. وكانت ريتا تعتقد أن هذه العلاقة التي نمت بينها وبين أبو الطيب لا يعرفها أحد، وفي الحقيقة فإن إثنين فقط كانا يعرفان الحقيقة حتى ذلك الحين هما أنا وأبو محمد.. قال لي أبو محمد ذات يوم: الحب يفعل المعجزات يا أبو بسام.. أنظر ماذا فعلت ريتا بأبو الطيب، إنه يكتب سياسة مضخمة بعطر الغرام، ويكتب حباً معجوناً بالنضال. ولم أستغرب ذلك، فأبو الطيب كاتب موهوب، وأعدت إلى أذهان أبو محمد شعراء وكتاب مزجوا الحب بالوطنية، وذكرته ببابلو نيرودا وناظم حكمت وأراغون.. أراغون العظيم الذي أنشد

لالزا أجمل الأناشيد في أيام المقاومة الفرنسية ضد النازيين الحب يا أبو محمد ضرورة للمناضل، إنه يجعله شفافاً وأكثر إنسانية، ويخرجه من قسوة الصخر والرصاص والبنادق.

ـ أنتم غيارى. . إنكم تغارون مني. . هل أقول لكم؟ لا. . لا. . سيكون هذا سراً لن أبوح به. لكن، ذات يوم، ستعرفون الحقيقة، وستندمون. ريتا تعرف كل شيء عني، وتعرف أنني مقاتل ورجل إعلام. أخذتها معي ذات يوم إلى الخطوط الأمامية، خطوط التماس، وضاحكت المقاتلين وأشعلتهم حماساً.

فيبدي أبو محمد حذره، وينصح أبو الطيب ألا يفعل ذلك ثانية، ربما كانت ريتا تعمل لجهات أخرى. ربما تتباسط معه للوصول إلى أسرار المقاومة؟

يرد أبو الطيب:

ـ هل تتصورني غبياً إلى هذا الحد؟ فأنا لا آخذها إلّا للأمكنة المكشوفة والمعروفة. لقد طلبت مني مرة أن آخذها إلى الإذاعة فرفضت. وتعللت بالحفاظ على حياتها، فموقع الإذاعة سري، أذهب إليه وحدي مداورة بين الأحياء لأقدم تعليقي اليومي، لكنني كنت أعدها بالذهاب ذات يوم معاً إلى الإذاعة إذا تأكدت أن الوضع الأمني يسمح بذلك. أبو محمد كرر توجسه من ريتا، وتساءل: لماذا تغامر وتطلب منه أن يأخذها إلى المواقع الأمامية؟ فيرد أبو الطيب: إنها تريد أن تعرف كل شيء عني مثلما صرت أعرف كل شيء عنها.

ـ وماذا عرفت عنها حتى الآن يا ولد؟

يسأل أبو محمد.

فيقول أبو الطيب:

ـ سأكشف لكم سراً صغيراً، إنها من جذور فلسطينية، صحيح أنها ولدت في بيروت، وكما ترون لهجتها لبنانية، لكنها فلسطينية الجذور، قدم جدها إلى لبنان من أيام العثمانيين، واستوطن البلد وتزوج من لبنانية أنجبت أباها الذي بدوره عندما صار رجلاً تزوج من لبنانية وأنجب ناصيف وأنجب ريتا..

فسأله أبو محمد: هي قالت لك ذلك؟

أجاب أبو الطيب:

ـ نعم.. نعم.

فزادت شكوك أبو محمد. وقال لي فيما بعد، سأحقق في هذا الأمر. إذا اكتشفت أنها تكذب منعته من اللقاء بها ولو بالقوة.

* * *

ذات يوم ضبطناهما معاً، ريتا وأبو الطيب في مطعم الميرلاند، كان أبو محمد قد دعاني إلى الغداء هناك، في يوم هادىء نسبياً من أيام الصيف، حيث يطل المطعم الشاسع على البحر مباشرة إلى جوار صخرة الروشة، وكنا فعلاً نسترخي في الأيام الهادئة على نفس نرجيلة أو طعام غذاء أو عشاء حيث المشهد الجميل الذي يريح النفس، ويجعلنا نستعيد الأيام القديمة يوم كانت بيروت زينة الدنيا، أبو الطيب لم يكن يتوقع قدومنا، وكان منصرفاً إلى ريتا انصرافاً كاملاً وهي تثرثر وراء كأسها، كانت فاتنة حقاً، ولم تكن العيون المجاورة تفارق وجهها، أبو الطيب لم يرنا، كان ظهره نحونا، وفوجئنا أن ريتا عندما شاهدتنا رفعت يدها محيية، أبو محمد كان يرغب بالإبتعاد، أما أنا فعلى العكس، كنت أتمنى أن أجلس معهما،

التفت أبـو الطيب نحـونا وارتبـك، إلاّ أن ريتا، طلبت بـإشارة من يـدهـا، أن نجيء، فمشيت نحـوهمـا، واضـطر أبـو محمـد أن يسايرني، سلمنا عليهما، وبدا أبو الطيب أنه ليس راغباً بدعـوتنا، لكن ريتا تمنت أن نجلس معهما. كانت تصرفاتها عفوية. فاضطر أبو الطيب أن يدعونا: «تفضلوا يا إخوان.. أرجوكم.. شاركونا». لبيت بسرعة. بينمـا تردد أبـو محمد لحـظة ثم جلس إلى جـانب أبـو الـطيب وجلست أنـا إلى جـانب ريتـا وقلت غيـر مـا ابـطن: دقائق.. ثم نغادركما.. فقالت ريتـا: ولو يـا جار.. ألا تحب أن تمالحنا؟ فقلت: لا يجوز أن نتطفل عليكما.. فـرددت ريتا.. لا تطفل.. ولا غير تطفل.. أنا شخصياً أتمنى أن تظلا معنا.

ثم التفتت نحو أبو الطيب وسألته: وأنت يا أبو الطيب؟

قـال متشجعـاً: على الـرحب والسعـة.. عـلى الـرحب والسعة.. وأسرع النادل ليضع أمـامنا الصحـون منتظراً إشـارة من أبو الطيب الذي قال له: مازة يا ولد.. مـازة أيضاً.. فجُلبت لنـا صحون مختلفة من الطعام على ما اشتهرت به المائدة اللبنانية.

أبو الطيب كان مرتبكاً وقد طفـح العرق من جبينـه، لاحظنـاه يرتجف قليلاً. ولا شـك أنه تضـايق من وجودنـا، ومن لا يتضايق من متـطفلين بوجـود ريتا.. غيـر أن ريتا كـانت مسـرورة. كـانت مرحة. فقال أبو محمد مازحاً: «ثلاثـة رجال وامـرأة» فرددت على الفـور: هل أهتف لصـديقاتي ويحضـرن؟ ضحكنا، فقلت: ليس هناك أجمل منـك يا ريتـا.. رمقتني بنظرة جـانبية ثم اقتـربت من أذني وهمست: ميرسي.. يا لهـذا النغم الجميل في بحـة صوت الصبية! قلت في نفسي. ما أعذبك أيتهـا الساحـرة.. ثم أن ريتا قالت: أرجو ألا تستغربوا وجودنا معـاً؟ صمتت لحظة وهي تتـأمل

أبـو الطيب. ثم قـالت بكل جـرأة: أبو الـطيب حبيبي.. فـاحتقن وجه أبو الطيب وكاد الدم ينفر من وجهـه، ثم قال: هـذه أول مرة أسمع هذه الكلمة.. ما أسعدني.

لم أستغرب هذه الجرأة من ريتا، ففي ليلة ايفون كانت أكثـر جرأة في الإهتمام بـأبو الـطيب.. وها هي هنـا تعبر دون مـداورة عما في أعماقها.. تقولهـا علناً.. مـا الخوف، هـا نحن نراهمـا معاً، فلماذا هما معاً ولوحدهمـا؟ هل يتنـاقشان في السيـاسة؟ مـا معنى أن تكون امرأة مع رجل وحدهما على كأس في هذا المكان الجميـل؟ أبو الـطيب لم يتجـرأ، لكن ريتـا كـانت شجـاعـة وقـد حسمت الموضوع.. ثم قالت: أعرف أنكما مدركان ما أقـول.. أرجـو أن تكـونـا قـد فهمتمـا مـوقفي.. أنـا لا أخـاف أحـداً في الحي.. ليعرفوا مـا شاءوا أن يعـرفوا، لكنني أحـرص على إخفاء هـذه العلاقـة بسبب أمي.. أمي تمـانـع أن أحب رجـلاً من غيـر ديني. ويقاتل أبناء ديني أيضاً، لكنني أفهم أن أبـو الطيب يـدافع عن وجـوده، وهي معركـة مفـروضـة عليـه مثلمـا مفـروضـة على الآخرين، إنها المؤامرة التي تحكمكم جميعاً إسلام ومسيحيين.

كان أبو محمد ينصت، ومن نظرتـه أدركت أنه بـدأ يغير رأيـه بـريتا، كـان الكلام يتـدفق من فمها دون تلكؤ وهي تحـاورنـا عن الحرب، وعن الذين يذبحون البلد منقادين إلى مؤامرة خفية تريـد بيروت وتريد رأس بيروت وتريد الوطن كله، وتذكـرت آراء معظم سكان الحي بريتا، وادعاءاتهم أنها امرأة لعوب. ملعونـة، غايتهـا دائماً الإيقاع بأكبر عدد من الرجال.. إنها قالتها صـراحة الآن.. أبو الطيب حبيبها.. هكذا ببساطة، ولمـاذا التعقيد؟ أليس جميـلاً أن تكـون الحياة كتـاباً مفتـوحـاً دون لف أو دوران. وأبـو الـطيب

الـذي ردد على أسماعنـا مراراً، وفيمـا بعـد، أنـه سعى دائمـاً أن يسمع من فمها كلمة «حبيبي»، كانت تـداور وتتهرب، ولـم تقلهـا له أبداً، وعندما قالتها أمامنا، لم تكررها فيمـا بعد. كـان يحلو له أن يسمع هذه الكلمة، تطربه بها، لكنها كانت تقول له: قلتها مرة واحدة ولن أقولها ثانيـة، عندمـا تصبح لست حبيبي أقـول لك لم تعـد حبيبي. وكان أبـو الطيب يخـاف أن يأتي يـوم ويصبح (ليس حبيبهـا). ولكنها كـانت في كل لقـاء تؤكد لـه بالمعـاملة، بلمسة اليد، بالقبلة الخاطفة، أنه ما زال فارسها.. ما زال حبيبها.

بالقرب من «الميرلاند» على الطرف الآخر من الشـارع، كان هناك ناد يستقبل زبائنه في فترات الهدنة ووقف إطلاق النار، كـان متنفساً للشباب يرقصون فيـه ويشربـون، ويستعيدون مجـد بيروت القديم، لا أنا ولا أبو محمد كنـا نعرفـه ولا حتى أبو الـطيب، كم مررت من هناك دون أن أنتبـه له، بـابه مغلق كـأنه بيت، وكـانت الشمس قـد بـدأت تنحـدر وراء البحـر. قـالت ريتـا وهي تــرمق أبو الطيب: أبو الطيب يدعونـا إلى ذاك النادي.. وأشـارت بيدهـا إليه، التفتنا نحو المكان الذي أشارت إليـه، فلم نلمح إلّا البـاب المغلق إياه، سألتها مشيراً نحو الباب: هناك؟ نعم، ألا تعرفـونه؟ إنه ناد جميـل.. موسيقى.. رقص، سنتسلى قليـلاً.. إننا نـأكل ونشـرب منذ الـظهر.. هنـاك سنرقص حتى نستعيـد حيـويتنـا.. صمتنا جميعاً، وهي أخذت تتأملنا الواحد بعد الآخـر، ثـم حزمت أمـرها ووقفت قـائلة: هيا.. سنقضي هنـاك بعض الوقت.. فمـا كان منا إلا الوقوف فيما أسرع أبو الطيب يدفع ثمن الفـاتورة على عجـل.. تقدمت ريتـا، ولحقنا بهـا. كان أبـو الطيب كـالطفـل. مـرتبكـاً، لا يعـرف مـاذا يفعـل؟ لكنـه في نفس الـوقت مسـروراً

وسعيداً.

خرجنا من «الميرلاند»، فهمس أبو محمد بأذني: لننسحب. قلت له: اصبر علينا.. والله لا أعرف هـذا النادي.. دعنـا نفرح قليـلاً يـا أبـو محمـد.. الأحـزان تغمـرنـا. لنهـرب منهـا بعض الـوقت.. من يدري قـد تصل هـذه الحـرب إلى ذقـوننـا.. لكن أبو محمد أصر عند الباب على تركنا لانشغاله بأمـر هام كمـا قال. فسمحت له ريتا بـالذهـاب بينما أمسكت بيـدي وقالت: أمـا أنت فستبقى معنا، وفي الحقيقة كنت أتمنى، لكنني تظاهرت بأن علي أن أذهب أيضاً، فقالت: بلا دلال.. ستبقى معنا.. يعني ستبقى معنا.. ثم أنها دفعت باب النادي بيدها، فـإذا بنا أمـام قاعـة شبه مظلمة، وثمة أضواء خـافتة تنبعث هنـا وهناك، وفي وسط القـاعة حلبـة للرقص فيهـا بضعـة شبـان وفتيـات يـرقصـون على أنغـام المـوسيقى الهادئـة، فتسللنا إلى طـاولة قـادنا إليهـا خادم النـادي بصعوبة، وما ان استقر بنـا الجلوس حتى انتبهت أن ريتا تعمـدت الجلوس في الـوسط بيني وبين أبو الـطيب، وبعد لحـظات بدأت عيـوننا تعتـاد الظلمـة المحيطة بنـا، فلمحنا أشبـاحاً هنـا وهناك، عشاق هاربون من النار الخارجية، ربما يحاولـون نسيان همـومهم ومتاعبهم، أو يحاولون التآلف مع هذا الواقع الرديء.

كان الجو رطباً رخواً، فشعرت بارتياح، قال أبو الطيب: كأننا في بلد ليس فيـه حرب. من كـان يفكر أن شيئاً من هذا مـوجـود هنا؟ قالت ريتا: الناس تريد أن تتنفس يا أبو الـطيب.. فقال لهـا كـأنه يتـوعّد ممـازحاً: ولكن.. كيف عـرفت هذا المكـان؟ هـل حضرت إليه مع غيرنا؟ فردت بكـل عفويتهـا: أنا لي أصـدقاء يـا أبو الطيب.. أصدقاء كثر أخرج معهم أحياناً إلى أمسيات.. وإلى

نواد مثل هـذا. . زملاء في الشـركة، رفـاق المدرسـة القديمـة. . إياك أن تغار. . لا أحد يشكل خـطراً عليك. . ثم التفتت نحـوي وهي تتـابع الحـديث: وهـا أن صـديقـاً آخر أضفته إلى قـائمـة أصـدقائي؟ فقلت لـه: أشكـرك يـا ريتـا. . كـان يجب أن أصيـر صـديقك من زمـان. . فقالت: لـدينا متسـع من الوقت يـا جاري العزيز. . لدينا متسع. . ثم التفتت نحو أبو الطيب وشدته من يـده إلى حلبـة الرقص. ومـا ان توسـطا الدائـرة حتى أخذت سـاعـده وشدته على خصرها بينمـا أمسكت يده الأخـرى براحتهـا وعانقتـه باليد الأخرى. بدا أبو الطيب أنه لا يجيد الرقص، لكن ريتا كانت تقـود خطواتـه ببراعـة، وكان بين يـديها كـالطفـل بين يدي أمـه. يحاول أن يتحرك مثل حركتها على أنغام المـوسيقى الناعمـة. ثم لم يمض وقت قليـل حتى انـدمجـا كـأحلى عـاشقين، وكـان مشهدهما يثير في النفس خيالات جمة. كانت تبعده عنها قليلاً ثم تلتحم بـه، وهـو نشـوان في ذروة سعـادتـه، كنت أراقبهمـا بحب وبغيرة في آن، وتمنيت هذه اللحظات لو كنت مكان أبو الـطيب، أعانق هذا الجسد الحار النضر وأراقصه حتى الصباح، في الواقـع لم أندم، وسعدت بهذه المصادفة التي التقينا فيها بريتـا. تصرفت ببـراعة، لم تخش شيئـاً عنـدمـا دعتنـا إلى طـاولتهـا. بـل أعلنت بوضوح أن أبو الطيب حبيبها، وكأنها أرادت أن تحذرنـا سلفاً إنهـا ليست إمرأة مباحة، وليست مستعدة لتقبل غزلنـا لو حـاولنا، وهي إذ تعلن أنها اختارت أبـو الطيب حبيبـاً، كانت تعـرف سلفاً مـدى علاقتنا به ومدى حبنا له، إذ أن أبـو الطيب روى لهـا الكثير عنـا، وقص عليهـا بطولات أبـو محمد في مـواجهة العـدو في مخيمات عين الحلوة عندما كان قائـداً للمقاومـة هناك، وهي سـألته الكثيـر

عن أبو محمد وعن علاقته بـه، وذكرت لـه أنها لا تعـرف عني إلاّ القليل القليل، سوى أنني جارها، وأن زوجتي أمنية تكتب الشعـر وتنشـره في الصحف اللبنـانيـة. وأن لي ولـدين تحبهمـا كثيـراً، خصوصاً ابنتي لينا. وقال أبو الطيب أنه يروي لها الكثير من حكايا البـطولة في مـواجهة الأعـداء، وهو مثلهـا ومثلي ومثـل الآخـرين يتمنى لو تنتهي هذه الحرب العبثية التي لا مبـرر لها سـوى خراب البلد، إذ محكوم عليها أن لا ينتصر أحد على أحد. وأن لا غالب فيهـا ولا مغلوب، ومثـل هـذه الحـرب قـد تبقى إلى الأبـد وهي تحصد الناس الأبرياء يوماً بعد يوم، ويتذكر أبـو الطيب وهـو ينقل لهـا قول أحـد قادة الميليشيـات عنـدمـا أعلن أنـه سيقـاتـل حتى يموت، وسيجيء بعده من يقاتل حتى مائة عام أخرى.

كانت ريتا تجيب دائماً: الجميع متـورطون يـا أبو الـطيب. . الجميع يعرفون أنهم ينفذون مؤامـرة كبيرة لإلهـائكم عن قضيتكم الأولى ولإقنـاعنا نحن المسيحيين أن لا مكـان لنا في هـذا البحـر المتـلاطم من المسلمين. . لكن هذا الـوطن وطننا، وكنت دائمـاً أقول لأبي «لا تغادر البلد يا أبي، إذا غادرت تكـون حكمت على نفسك بالمنفى».

لكنه، عندما شاعت عندنا رسائل التهديد بالرحيـل قال لا بـد لـه أن يغادر، وقـال لنا: لـدي عقد عمـل جيد سيجعـل أحـوالنـا المادية ممتازة. واصطحب معه ناصيف. وصار بين الحين والآخر يحّول لنا مالاً نستعين به.

وأنـا غارق في هـذا المـد والجـزر من الأفكـار، حـانت مني التفاتة أخـرى نحوهمـا، إنهما الأجمـل، والأضواء تتـراقص فوق رأسيهما، وأبو الطيب غارق في هذا البحر من الحنان، يسبح بين

موجه وبين زبده، لقد لمحت فيهما قصيدة من الحب لم يكتبها شاعر، ولوحة لم يرسمها رسام، وصورة، ما كان إلاّ الخالق العظيم القادر على تصويرها.

توقفت الموسيقى، فعادا، ريتا وأبو الطيب خلفها جذلان، فوقفت لهما محيياً ومصفقاً تصفيقاً ناعماً. فابتدرتني ريتا قائلة: إنني أعلمه فنون الرقص، فهو جاهل فيها، ويحتاج إلى دروس متتابعة حتى يصبح ماهراً مثلما هو ماهر بفنون القتال والكتابة. فقلت لها: إنه يستحق كل حنان، فحياة أبو الطيب اليومية قاسية ومريرة، ولمسحة حنان منك تجعله يفرح قليلاً في هذا البحر المتلاطم من الأحزان.

المفاجأة التالية كانت عندما صدحت الموسيقى من جديد، فإذا بريتا تمسك بيدي وتجرني إلى حلبة الرقص وأنا أحاول ثنيها عن عزمها فتتساءل: لماذا لا تريد أن ترقص معي.. ألا أستحق أن أرقص معك؟ فأقول لها: ومن لا يتمنى أن يرقص معك يا ريتا؟ فترد مازحة: لعلك تخاف أن تراك زوجتك.. أليس كذلك؟ وحتى أشجعها قلت لها: زوجتي في البيت الآن.. وضحكنا.

خشيت من أبو الطيب أن يغار وأنا أعانق هذا الجسد الناري الذي ينضح أنوثة واشتهاء، فحرصت أشد الحرص على أن أترك مسافة بيني وبينها، فقد كنت أدرك أن نظرات أبو الطيب تلتهمنا، وأنه يلعن الساعة التي صادفناه فيها في «الميرلاند». كانت ريتا ترقص معي بهدوء وكنت أتابع خطواتها بهدوء أيضاً. ولا أدري لماذا داهمني هذه اللحظة شعور بارد، شعور من يرقص مع ابنته، إن بيني وبينها مسافة عشرين عاماً على الأقل، فرجوت الله ألا تسولني النية السيئة، وأن يبعدني عن شرور الإغراءات. لكنني

كنت بين يدي امرأة تُشْتَهى حقاً، ومهما حاولت أن أجد التبريرات البريئة، فأنا ألتحم بامرأة نادرة الجمال، نادرة الحركة والشاعرية، امرأة من لحم نضر حقيقي ودم حقيقي تنتقل حرارته إلى عروقي.

أحسست هـذه اللحظات أنني أخـون أبـو الـطيب، وأنني أخـطف من يده التفـاحة وأقضمهـا ومـا زال طعمهـا على شفتيـه، حـاولت أن أبقى مستديـراً ظهـري لأبـو الـطيب، لكنني أحسست بنظراته تخترق ظهري، وبين الانتشاء والحوار مع الذات، أدركت أن أبو محمد فعـل ما يجب أن أفعله أيضـاً، كان يـدرك، بنظرتـه الثاقبة أننـا بين يدي امـرأة تختلف نظرتهـا إلى الحياة عن نـظرتنا نحن، فقد تربت تربية مختلفة ونشأت في بيت متحرر يختلف عن بيوتنا وعقليـة أسرنـا. . هل لاحـظت ريتا أنني أتحـاشى مواجهـة أبو الطيب وأنا أرقص؟ ربما. لأنها قالت لي بغتـة: أنت لا ترقص يـا عزيـزي. . بل تتحـرك كأنـك تمشي في الشـارع مـع مـومس وتخشى أن يضبطك أحد من معارفك. . صـدقني إنني أحس هذا الإحساس. . لماذا أنت خائف؟

ولم أدر ماذا أجيب ريتا. . ترددت قبل أن أقول لها: معاذ الله يـا ريتا. . أنـا مرتبـك. . نعم. . ولكنني مرتبـك لأنني أرقص مع أجمل امرأة ولا يحق لي أن ألامس اصبعها.

ضحكت، بل أن ضحكتها رنت في المـرقص كله. ولا شك أن أبو الطيب ازداد قلقاً عندمـا تنامت إلى مسمعـه هذه الضحكـة المغناج. . اجابتني ريتـا: المهم. . ماذا تفكـر؟ ماذا أنـا بالنسبـة لـك؟ هل تـريد أن تعـرف ماذا أنت بـالنسبة لي؟ أنت مجـرد جار طيب وخلوق جمعتنـا المصـادفـة على غيـر ميعــاد، لكن صـورة طيبتك راسخة في ذهني منذ كنا نتلاقى في الملجأ ونحن هـاربون

من الموت والدمار، كنت أراقبك عن كثب دون أن تنتبه وأنت تتحرك بهدوء في معمل أبو جميل عندما يشتد القصف. كنت أنتبه إلى خوفك المرتعد والبسيط في آن.. وكنت أدرك أن خوفك الأشد على زوجتك ووليديك.. كانت نظراتك لا تغيب عن ولديك وعن زوجتك.. فلا تنتبه لي.

أردت أن أقول لها أنني كنت منتبهاً لها دائماً، في الملجأ، أو في الحي، أو وهي تذهب إلى عملها، إلّا أنني آثرت الصمت تاركاً لتخيلاتها تسرح إلى ما تشاء، فقالت: كنت أعرف قبل لحظات وأنا أرقص مع صديقك أنك تتمنى الرقص معي.. لماذا أحرمك هذه النعمة الجميلة التي أنا أيضاً كنت أرغب فيها؟ قلت مردداً: لكن.. أبو الطيب. فقاطعتني: لا.. لا.. أبو الطيب يجب أن يقبل بي كما أنا.. أنا أحب الناس، أحب الناس، أحب الحياة الحافلة بالجمال.. ماذا لو أن قذيفة الآن قد نالتنا هنا..؟ إننا جميعاً ننتظر الموت، كما أن الموت في هذه الحرب يبحث عنا في كل مكان؟ وإذا خرجنا الآن قد تكون هناك سيارة مفخخة بانتظارنا، أو قذيفة تسقط فتحولنا إلى رميم.

الموت لنا بالمرصاد في هذه المدينة المرعبة، إنه بالمرصاد هنا تحت هذه البناية العالية. هناك على الرصيف، في المكتب، في غرفة النوم، في الحمام، هل تصدق؟ إنني أسجل كل يوم في مفكرتي ما تنشره الصحف عن ناس ذهبوا ضحية هذه الحرب وهم داخل بيوتهم، أو أمام المخبز بانتظار ربطة خبز يحصلون عليها، أو داخل قاعة الدرس. أنت صحافي وكاتب وأبو الطيب كاتب كذلك، هل فكرتما أن تسجلا في مفكرة كل منكما مثل هذه الحوادث؟ لي صديقة، كانت صديقة العمر، ماتت أبشع

ميتـة، ماتت وهي في المـرحاض، اختلط بـرازها بـدمهـا عنـدمـا دهمت القذيفة ذلك المكان الصغيـر الذي كـان يحتوي ذات يـوم مرحاض بيتها. هل سجلت في مفكرتك مشهداً مثل هـذا المشهد القاسي والبشع في آن؟

تباطأت خطواتنا، ريتا وأنا، وكأننا لا نرقص، بل نـدور حول أنفسنا وأنا أفاجأ بهذه الصور التي راحت تـرويها بصـوت لاهث. تابعت ريتا: كل يوم أسجـل عدد الجنـازات التي أراها. . عنـدما أسمع أن جنازة تمـر أترك المكتب وأنـزل إلى الشارع وأتفـرج. . ليس على الجنازة، بل على وجوه الناس الـلامباليـة، العيون التي ليس فيها أي معنى يمكن أن ترصده أمام انسان ميت يعبر الطريق إلى قبره. . أصبحت هذه المشاهد عادة يوميـة ومألـوفة. أصبحت أخبار القتلى والموتى متشابهة على حد سواء. لم يعـد هناك فـرق بين من مات ميتة طبيعية ومن التهمته الحـرب. الموت واحـد وان تعددت الأسباب.

تصمت ريتـا. تقف. تسحب يدهـا من يـدي. تتـرك يـديهـا تنسـدلان على جبينها بـارتخاء. وفي قلب العتمـة، وأنـا أتـأملهـا رأيت عجباً. رأيت ما لم أكن أتوقعه أبـداً. . رأيتها تبكي. . إنهـا تبكي. . ثم أخـذت شهقـة البكـاء تـرتفـع. ابتعـدت خـطوة إلى الــوراء. . ثم خـطوتين. لا أدري هــذه اللحـظة لمــاذا تـوقفت المــوسيقى فجــأة. وران صمت رهيـب. . رهيـب. مــا الــذي حـدث. . يا إلهي. فقط بكـاء ريتا. . ثم أخـذت تهرول. . ليس نحو أبو الطيب. . بل خـارج ظلمة المكـان، وعندمـا فتحت باب النادي إلى الخارج انعكس ظلها طويلاً طويـلاً من خلال مـا تبقى من نور ليغمر المكان كله. لمحت أبو الـطيب يركض لاحقـاً بها.

أما أنا، فقد بقيت وسط الحلبة لا أدري ماذا أفعل، وقـد داهمتني أحزان لا حدود لها.

* * *

القسم الثاني

سرداب ابو الجماجم

الفصل الثاني عشر

ذلك اليوم، زارتنا السيدة بابكيان برفقة ابنتها سوزي، التي كانت قد أصبحت مضيفة في طيران الشرق الأوسط، ولم يكن قد مضى على وظيفتها بضعة أيام حتى تعرض مطار بيروت للقصف فأغلق فوراً، ولم يعد يستقبل الطائرات. ومن حسن حظها أن المطار أغلق بعد عودتها إلى المدينة، وكانت قد اصطحبت زوجتي، في ذلك اليوم المشؤوم، مع احدى جاراتنا التي يقيم زوجها في لندن، وعادت في اليوم التالي. وبعد يوم واحد فقط اتخذ قرار إغلاق المطار حتى إشعار آخر، واستمر فيما بعد شهوراً. كنت قد رتبت إرسال زوجتي إلى لندن مع جارتها لأخفي عنها نبأ وفاة أمها، وقد جلب لي أبو محمد بطاقة الطائرة تبرعاً من قيادته، وكان من المفروض ألا تغيب أكثر من خمسة عشر يوماً ترتاح فيها من عناء الحرب وقسوتها، ثم نحاول أن نسرب لها خبر موت أمها بشكل أو بآخر، فأمنية تشكو من قلبها الذي يعذبها، وسبق أن أجريت له عمليتان جراحيتان ولم يكن الشفاء كاملاً، وحرب بيروت أنهكت هذا القلب، وأنهكت أمنية كثيراً، وكانت فرصة هذه الإجازة ضرورية لها، قبل أن تعرف خبر الوفاة، وقد رحبت الجارة باصطحابها معها بعد أن دعاها زوجها لقضاء إجازة عنده لخمسة عشر يوماً هي الأخرى.. ثم تعودان معاً.. سافرت

أمنية مع الجارة تاركة عندي طفلينا. . وبعد يومين من سفرهما أغلق المطار. وكنا نتوقع أن يفتح المطار لاستقبال وخروج المسافرين بين يوم وآخر، لكنه ظل مغلقاً أربعة أشهر فيما بعد. وأثناء ذلك واجهت مأزقاً حرجاً. إذ لم تحمل أمنية معها من المال ما يكفي إلّا لخمسة عشر يوماً، وهي بضيافة جارتنا وزوجها الذي استقدم مع أيام الحرب كل أولاده إلى لندن. . بينما جارتنا رفضت ترك البيت هي الأخرى حتى لا يتعرض للمصادرة والاحتلال من أسرة فقدت بيتها.

وتركت الجارة بيتها في عهدتي وعهدة أبو محمد، فصرت أبات فيه ليلة وليلة أبات في منزلي لإشعار الآخرين أن سكان البيتين موجودون.

مر على رحيل زوجتي أكثر من شهرين. فصرت أبحث عن وسيلة ما لإعادتها إلى بيروت. وزارني أبو محمد ذات يوم فشكوت له ما أحس به من إحراج وقلق، طالباً منه مساعدتي على إعادتها بعد هذا الغياب الطويل. عاد بعد يومين ليضع بين يدي خطة إذا نفذت تكون زوجتي عندي خلال أسبوع. . وما هي الخطة يا أبو محمد؟

قال: تسافر أمنية من لندن إلى قبرص جواً ثم عليّ البقية؟ ولكن ما هي هذه البقية يا أبو محمد وأنت تعرف أن أمنية تشكو من قلبها ولا يجوز أن تتعب كثيراً؟ قال: لا تخف. . عندما تصل إلى لارنكا جواً، تذهب إلى شارع المطران مكاريوس وتسأل عن المحل رقم ١٩. هناك ستجد رجلاً اسمه أبو العوف سيؤمن سفرها بحراً في مركب إلى صيدا. . أنا مسؤول عن ذلك. لقد أجريت كل الإتصالات لتنفيذ هذه الخطة بحذافيرها. ونكون

نحن في الوقت المحدد بانتظارها في مرفأ صيدا.

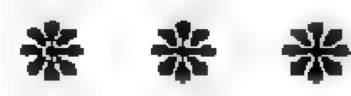
هكذا، تم كل شيء، رتبنا اتصالاً هاتفياً مع زوجتي وأعلمناها بالخطة. فوافقت فوراً، بل أن الجارة التي كانت في استضافتها تمنت أن تكون معها أيضاً، تمت الخطة بنجاح، وقد جاءت السيدة بابكيان وابنتها لتهنئة زوجتي بسلامة وصولها.

كان قد مر ثلاثة أيام على قدوم زوجتي التي روت لنا كيف استغرقت رحلتها من لاركنا إلى صيدا ليلة كاملة على مركب صغير اتسع لحوالي عشرين شخصاً، وفي عرض البحر اعترضتهم دورية إسرائيلية، واعتقلت جميع الشبان الذين كانوا على متن المركب، كان عددهم احد عشر شاباً. وارتعبت زوجتي كثيراً، روت لنا الحادثة لدى وصولها إلى مرفأ صيدا مباشرة، ثم روت القصة أكثر من عشرين أو ثلاثين مرة لكل الذين زاروها. كانت زوجتي تكره الإسرائيليين وأسلوبهم في التعامل مع العرب، وكانت تتذكر دائماً أن الإسرائيليين كانوا مصيبة على أسرتها بالذات، كان أبوها يمتلك مركزاً للسفريات في حيفا ينقل المسافرين إلى عمان ودمشق، وكان عنده بيت صغير على البحر يقيم فيه لبضعة أيام عندما يترك دمشق للإطلاع على انتظام العمل. وصادف أن كان في حيفا عندما نزح معظم سكان المدينة العرب تحت ضغط الهاغاناه والوعود المعسولة من الإذاعات العربية أنهم سيعودون إلى بيوتهم آجلاً أو عاجلاً، فأصبحوا معهم مفاتيح بيوتهم مثلما اصطحب والد زوجتي مفتاح بيته. لكن أحداً من هؤلاء لم يعد حتى الآن. وفقد والد زوجتي كل ثروته وأمواله، وعاش في دمشق لاجئاً مستعيناً بهبات الأونروا التي لا تغني ولا تسمن من جوع. وكل ليلة كان يروي لأولاده ـ وكانت

زوجتي أكبرهم سناً ـ حكايات عن وحشية اليهود وكرههم للعرب، وعن أساليبهم النازية في طرد السكان العرب من بيوتهم وحقولهم، وكيف قتلوا أمام عينيه ضيفه الدمشقي الذي جاء ذات يوم ليتمتع بشمس حيفا وبحرها. . سحلوه في الشوارع ثم تركوه ينزف حتى مات.

لدى زيارة السيدة بابكيان وابنتها سوزي، روت زوجتي مجدداً أحداث ليلة الرعب التي عاشتها فوق ذلك المركب وهي عائدة إلى لبنان، فتحدثت عن ذلك الطراد الإسرائيلي المسلح الذي اعترضهم في عرض البحر. . حام حول مركبهم الصغير عدة مرات، ثم اقترب منهم مصوباً أنواره الكاشفة ومدفعه الرشاش الرئيسي، وصاح أحد الإسرائيليين في مكبر صوت يحمله بيده طالباً من الجميع رفع أيديهم عالياً وإلاّ أطلق النار لأدنى حركة. كانت زوجتي متعبة تعاني من دوار البحر، لم تستطع أن تقف على قدميها، فرفعت يديها وهي جالسة. وهنا صاح بها الجندي الإسرائيلي أن تقف، ولما حاولت، سقطت على الأرض منهكة، وأخذت تتقيأ وهي تبكي بصوت عال، تركها الإسرائيليون وصرخوا على الرجال أن يقفوا في مقدمة المركب، لم يكن بين الركاب من النساء غير زوجتي وجارتها، والبقية جميعهم من الرجال بينهم شيوخ وكهول، طلب أحد الجنود الإسرائيليين من قبطان المركب، وهو رجل في الخمسين من عمره تقريباً، أن يخلع ملابسه، ويجلب جوازات سفر الركاب ضمن كيس من النايلون ويلقي بنفسه في البحر ويسبح إلى الطراد، ولما تلكأ الرجل قليلاً، أطلق الجندي بضع رشقات في الجو.

فأسرع القبطان ونفذ الأمر، وبعد دقائق كان قائد المركب الإسرائيلي يتفحص جوازات السفر، ثم صاح بمكبر الصوت أن كل من يلفظ اسمه من الركاب عليه أن يخلع ملابسه ويلقي بنفسه في البحر سابحاً إلى الطراد. ومن تخلف سوف يموت. وبدأ الإسرائيلي ينادي على الرجال إسماً إسماً، فكانوا يمتثلون لأوامره ويلقون بأنفسهم في البحر عراة ويسبحون حتى تلتقطهم أيدي الجنود الإسرائيليين. أحد الرجال الذي سمع اسمه صاح به أنه لا يتقن السباحة، فطلبوا منه النزول إلى البحر بأي شكل، تردد، فصوّب الإسرائيلي فوهة رشاشه نحوه، فاضطر هذا لرمي نفسه في البحر، وكاد يغرق، لولا أن الجنود رموا له بطوق النجاة تمسك به وظل يندفع نحو الطراد حتى التقطوه. وبلغ عدد الرجال الذين نادوا عليهم أحد عشر رجلاً، وهنا سمح قائد الطراد لقبطان المركب بالعودة إلى مركبه، فروى لمن تبقى من الركاب لماذا طلب الإسرائيليون من الرجال أن يلقوا بأنفسهم عراة. وقال: لأنهم كانوا يخشون أن يفجر أحد هؤلاء الرجال نفسه في الطراد، وسبق أن واجهوا حادثاً من هذا النوع عندما اعتقلوا فدائياً قفز من مركبه إلى الطراد وفجر نفسه فأوقع عدداً من القتلى والجرحى.. فسألت زوجتي عن مصير الشبان المعتقلين، فقال القبطان ربما ظنوهم من الفدائيين.. أو لعلهم كذلك.. لا أدري.



كنت فرحاً بعودة زوجتي، إذ، خلال الشهرين الماضيين، عانيت كثيراً من أجل ولدي الصغيرين. كنا نواجه حصاراً قاسياً في بيروت، ومع توسع رقعة الحرب، صارت المواد الغذائية نادرة الوجود، عدا عن فقدان الماء والكهرباء. كانت بيروت تعيش في

ذلك الوقت حالة يائسة، كان القصف المتبادل بين المنطقتين الشرقية والغربية من المدينة يجعلنا شبه معتقلين في أقبية الأبنية ساعات طويلة، كما أن الاهتمام بطفلين لا يعرفان ماذا يحدث ولماذا هذا القتل كان هماً أكبر. عندما كانت زوجتي معي رفعت عني بعض هذا الهم، وأثناء ذلك الغياب جعلتني في وضع لا أحسد عليه. مثل إعداد الطعام الذي لا أحسنه، أو البحث عن زجاجة ماء بأي ثمن.. أما من ناحية النظافة فكانت المشكلة شبه محلولة: إذ كنت أتجه بولدي أثناء الهدوء إلى البحر. كان الشاطىء قريباً من بيتنا، فكنا نستحم في البحر مجموعات إثر مجموعات من سكان الحي. وكان الحمام البحري فرح ولديّ الوحيد، خصوصاً، عندما يصطحبنا أبو زهير، وينزل إلى البحر بسرواله الطويل فينتفخ به ويساعده على الطفو. وكان هذا المشهد يجلب إلى شفاهنا الضحك المرير.

عندما عادت زوجتي ووجدتنا في هذه الحالة اليائسة، تمنت لو لم تعد، فهي مهووسة نظافة اغتسال وماء.. فماذا تصنع الآن أمام هذا الواقع؟

كانت تشكو هذه الحال للسيدة الأرمنية، التي لم تكن حالتها بأفضل من حالتنا.. وروت لنا السيدة بلهجتها العربية الأرمنية الضاحكة كيف استولى مسلحون على سيارة زوجها فيما كان ذاهباً إلى العمل. كانوا ثلاثة شبان أوقفوه على مفرق الرملة البيضاء طالبين منه إيصالهم إلى أول مفرق خلدة، زوجها يحب مساعدة الناس، فما أن صعدوا حتى شهروا عليه مسدساتهم، ثم أنزلوه من السيارة عند مفرق خلدة عوض أن ينزلوا هم، وانطلقوا بها نحو الجبال، أما هو فقد عاد مشياً على قدميه إلى أول مخفر

للشـرطة، ودخـل ليقدم شكـواه، لكنه فـوجىء بصف طـويـل من الرجال ينتظرون مقابلة المسؤول، وسأله الذي يتقدمه عن غايتـه، فأخبره بحادث سرقة سيارته، فضحك الرجل وقـال له مشيـراً إلى الصف الطويل من الرجال: كل هؤلاء مصيبتهم مثل مصيبتـك.. لكن الزوج انتظر حتى جاء دوره ليسجل سرقة السيارة. كان يصـر على تسجيل السرقة عسى يجدونها له يوماً، وقد تستخدم السيـارة في تفخيخ يفجر في مكان ما، فيجيئـون به إلى التحقيق، أمـا إذا سجل سرقتها فتكون السلطة قد علمت بذلك. ولا تقع إشكـالات فيما بعد. كان زوجها كل ليلة يندب حـظه، فالسيـارة هي الشيء الوحيد الذي يملكه، وكانت زوجته تـرطب خاطـره قائلة: أحمـد الله أنهم لم يقتلوك. وروت لنا السيدة الأرمنية قصة جـارهم الذي كان يمتلك سيارة فيات من موديـل ألف وتسعمائـة وخشبة (حسب تعبيرها) سـرقوهـا من أمام منـزله، فحمـد الله لأنه تخلص منهـا، وأقدم على شراء سيارة جديـدة، إلاّ أن اللصوص في اليـوم التالي أعادوا له سيارته القديمة واستولوا على الجديدة.. وراحت السيدة الأرمنية تتندر بمثل هذه القصص التي أصبحت مألوفـة في بيروت الحرب. وبينما كانت زوجتي في المطبخ تعد لنا القهوة، سمعت طـرقاً على البـاب وعندمـا فتحته وجـدت نفسي أمام شـابين، قال أحدهما: حضرتك (ولفظ اسمي بالكامل).

قلت: نعم.

قال: نريدك في موضوع بسيط..

قلت: خيراً.. ما هو هذا الموضوع؟

قـال: لنتحـدث بـه تحت.. أرى عنـدك ضيـوفـاً.. من المستحسن أن نتحدث به على مدخل البناية.

لم يثر هذا الكلام أي شكوك عندي. فنزلت معهما درج البناية ولم أنتبه أن إبني بسام قد تبعني.. وقفنا على الرصيف، فإذا بشابين آخرين ينتظران. قال أكبرهم سناً: «نحن جهاز أمن (...)، ألقينا القبض على شاب يقود سيارة دون أوراق، وادعى أن السيارة سيارته، وأنك تعرفه شخصياً، كل ما نريده منك أن تتأكد هل تعرف هذا الشخص؟

سألته: وأين هذا الشاب؟

قال: إنه في المركز.. هناك في شارع الحمراء، تذهب معنا لبضع دقائق، ثم تعود.

شككت بالأمر.. فقلت له: حسناً دعني الآن أصعد إلى منزلي لأرتدي بقية ملابسي..

قال: لا.. لست بحاجة إلى ذلك، ستصعد معنا السيارة وترى الشاب، المكان قريب، ثم نعيدك بأنفسنا إلى منزلك.

قلت: حسناً.. ولكن علي أن أخبر زوجتي.. غير لائق أن أترك الضيوف.. على الأقل أستأذنهم. وحاولت أن أبتعد عنهم نحو البيت، إلاّ أن أحدهم اعترضني وقال: إسمع.. ستفعل ما نريد.. وإلاّ.. صحت به:

وإلاّ.. ماذا؟

وبسرعة شهر مسدسه ووضع فوهته في صدري مباشرة وقال: وإلاّ.. أرديناك.. هيا، ودفعني أمامه، فراح إبني يصرخ: بابا.. بابا. حاول أحدهم الإمساك به، فأفلت من بين يديه، فصحت به: أهرب.. عد إلى أمك واخبرها. ودفعني أحدهم حتى كدت أسقط أرضاً. فصحت بهم: ماذا تريدون مني؟

صرخ أحدهم: إخرس.

في هذه اللحظة اقتربت منا سيارة مرسيدس سوداء قديمة، صوت محركها كأنه صوت محرك دبابة. فتحوا بابها الخلفي، دخل أحدهم ثم دفعني الثاني إلى جانبه وارتمى بدوره إلى جانبي فأصبحت وسطهما، فيما صعد الاثنان الآخران إلى جانب السائق. وانتبهت أثناء إقلاع السيارة إلى بعض الجيران كأنهم قد شاهدوا ما حدث، إلّا أن أحدهم لم يحرك ساكناً، صرخت على سعيد وعلى أبو زهير، لكن الشاب الذي بجانبي لطمني على وجهي بسرعة محاولاً إسكاتي وهو يصيح بي: إخرس أيها الوغد. فصمت.. فيما راحت المرسيدس تسرع مبتعدة عن الحي.

استعدت هدوئي قائلاً في نفسي: لا بد أن في الأمر خطأ ما، فأنا لا أتعاطى السياسة، وعملي في الصحافة مختص بالشؤون الثقافية، والمعهد الذي أعمل فيه الآن معهد أكاديمي، ولم أعلن عن رأي ما بكل هذه الحرب وهذا القتال، وأنا مثل عامة الناس، محسوب على من أطلقوا عليهم عبارة «الأكثرية الصامتة».. فمثلهم كنت اختبىء كلما اندلع قتال، أو تبادل المتحاربون القصف العشوائي. كانت ممرات البنايات. وخصوصاً معمل أبو جميل، هي الأمكنة التي نحتمي بها غالباً. وعندما تتعاظم الإنفجارات من حولنا نتساءل عن الغاية في قتل الأبرياء وتدمير بيوتهم. وأنا بالذات، كنت أفكر دائماً بأسرتي، وما نالها من متاعب، بسبب سوء ما يواجهني من ظروف صعبة في العمل والبطالة والبحث عن عمل جديد، وكنت اشتهي لو يتاح لي العودة إلى قريتي الجبلية كي أنجو من هذه المجازر الرهيبة التي نعيشها كل يوم.

كانت السيارة المرسيدس تنهب بنا شوارع بيروت، وكان

سائقها يتحاشى الوقوف، أذكر ذلك اليوم، كان يوم أحد، يوم العطلة الأسبوعية، معظم الناس في بيوتهم، معظم الشوارع فارغة إلّا من سيارات المسلحين التي تزعق يميناً وشمالاً، حاولت أن أفاتح الشبان بحديث ما، أحدهم فتى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، قلت له: ها أنا بين أيديكم الآن.. فهل أعرف ماذا تريدون؟ فأخذ الولد يرمقني شذراً، لكنني تلقيت الجواب من حامل المسدس قائلاً: بعد قليل ستعرف أيها الوغد. سكت وعدت إلى حواري الداخلي، وحاولت أن أتخيل كيف دخل إبني بسام وأخبر أمه بما رأى: لقد خطفوا أبي.. رأيتهم يدفعونه بقسوة.. أحدهم شهر مسدساً على أبي. كاد أحدهم يمسك بي، غير أن أبي صاح بي أهرب وأخبر الماما. تصورت أي فزع سيصيب أمنية الآن، فكم من المرات سمعنا بمخطوفين ألقيت جثثهم فيما بعد على قارعة الطريق، فلم ننسى جميل بعد عندما ألقوا به جثة على باب المبنى.. وغيره.. وغيره. ومذبحة السبت الأسود ما زالت ماثلة في عيوننا وأفكارنا وقلوبنا، وما زالت المدينة بشقيها مخضوضة تستعيد أسماء الأبرياء الذين قتلوا هنا وهناك، وجوزف المسكين الذي شيعته مع من شيعه من الأصدقاء والزملاء إلى مثواه الأخير، كانت زوجته قد عرفت أنه قتل أمام عيني، وعلى صندوق سيارتي، وظلت فيما بعد تسألني عن كلماته الأخيرة، عن مواجهته الموت، وكانت تبكي وراء سؤالها فأحاول التخفيف عنها. كنت أقسم لها في كل لقاء أنني تمنيت أن أموت قبله. وظلت ابنته الصغيرة ليندا كلما زرتهم تسألني: أين تركت بابا، لماذا لم يأت بابا إلى الآن؟ الماما قالت أنه مسافر وسوف يعود.. لماذا لم تسافر معه يا عم؟ وتختفي الأم وراء دموعها.

فهي في كل مرة تقول للصغيرة أن أباها مسافر وسوف يعود.

جوزف ظل يداهمني في أحلامي باستمرار، لم تغب صورته عني وهو يسقط أمام عيني مضرجاً بدمه. وكيف تحول من رجل خائف إلى رجل متماسك أراد أن يواجه مصيره بشجاعة، مشهد لم يغب عني لا في اليقظة ولا في الأحلام. كل يوم وأنا في طريقي إلى العمل أمر من تحت نافذة بيته فيحضرني المشهد بكل تفاصيله، كان جوزف، أحد عذاباتي اليومية، غالباً في الليل أصرخ: جوزف.. لماذا فعلوا بك ذلك. عمرك ما حملت سلاحاً.. عمرك ما حملت شفرة، كنت تخاف حتى بري قلمك الرصاص، كنت تخاف مشهد الدم إذا نغز دبوس أصبعك.. واستيقظ وأنا ألهث وأصرخ، وعندما أقص على زوجتي ما رأيت في الحلم تنخرط في البكاء، وتردد: يا ليتني لم أعرفه.. كان من أحب أصدقائك إليّ.

هكذا، كل الذين سقطوا من معارفي أراهم بكل حضورهم وحيويتهم، خضر، وجميل، وأبو المجد، وزوجته القديمة، وابنه، والطفل ابن أبو علي وغياب عبد القادر وغيرهم.

والآن، ربما الآن سيفعلون نفس الحكاية معي، هذا ما تفكر به زوجتي هذه اللحظات، سيخطر ببالها جوزف وجميل.. سيخطر ببالها أنها لن تراني إلاّ جثة.

* * *

انتبهت إلى أن سيارة المرسيدس بدأت تدخل منطقة لم أكن أعرفها من قبل، منطقة بدت لي كأنها في أطراف المدينة. معظم الأبنية مضروبة بالقذائف. أكياس من الرمل هنا وهناك، إنها ساحة حرب أو خطوط أمامية. توقفت السيارة أمام مبنى شاهق،

محاط مدخله ونوافذ أقبيته بأكياس الرمل. فتح الذي بجانبي الباب، وبعد أن أخفى مسدسه في وسطه ترجل، ثم طلب مني النزول. تركت السيارة فلحق بي الآخر، ثم أحاط الأربعة بي. أمسك صاحب المسدس بكتفي ودفعني إلى داخل المبنى، صعدت مع الرجل بضع درجات، فواجهني ممر عميق ومظلم. مشيت بضعة أمتار. ثم أن أحدهم اقترب من غرفة مغلق بابها فتحه بمفتاح، ثم دفعني إلى داخلها وأغلق الباب خلفي وأقفله من جديد.

الغرفة خالية تماماً. نوافذها مغلقة بأخشاب سميكة مثبتة على الجدران بمسامير كبيرة، ثمة ما يشبه خيط من نور الشارع يتسلل إليها ويجعل من فيها يتلمس طريقه. كانت فارغة من أي شيء آخر.

ضغطت على زر الكهرباء، لم يسطع أي نور. كانت الغرفة رطبة وباردة، الهواء يتسرب من شقوق النوافذ المغلقة، ليس فيها ما ينبيء بشيء عن هوية الناس الذين اعتقلوني.. من هم.. من أي تنظيم.. إلى أي جهة ينتمون؟ لا أعرف.

حاولت أثناء ذلك أن أستعيد شريط حياتي متسائلاً عن خطأ ما ارتكبته، عن ذنب ما.. عن أي شيء يربطني بما حدث اليوم دون جدوى، لا شك أن في الأمر خطأ ما.. إذن، فلأنتظر.

* * *

الفصل الثالث عشر

مـرت سـاعـات خلتهـا دهــراً، وبـدا لي أن الــظلام اقتحم المكـان، إذ غـابت خيــوط النـور التي كــانت تتسلل من ثقـوب الخشب الذي يغطي نوافذ الغـرفة. استبـد بي قلق شديـد، كنت أتصور أن تحقيقاً سيجري ثم أعود إلى البيت، لكن، ها هو الليل قد جاء، وهذا يعني أنني لن أنام في بيتي، وتصورت الحالة التي تمر بها أسرتي الآن، لا شك أن أمنية تحاول الإتصـال بمعارفنـا، لعل ضوءاً من الأمل تعثر عليه، ما أنـا فيه حصـل لعائـلات كثيرة في بيروت، وغيرها من المدن، إن عـدداً من المخطوفين اختفـوا دون العثور على أحد منهم، لا حياً ولا ميتاً، لكن أهليهم ما زالوا يتشبثون بالأمل، بل أنهم شكلوا لجاناً مهمتها مراجعـة المسؤولين وزعماء وقادة الميليشيـات المسلحة في أسئلة متتـالية عن أبنـائهم المختفين دون جـدوى، وكثيراً مـا تظاهـرت أمهات هؤلاء وبكين على أقـدام المتنفـذين استـدراراً لشفقتهم دون أن يتلقين جـوابـاً شافياً عن مصير أولادهن.. وها أنا أصبح واحداً من هؤلاء.

كان أشد ما يؤلمني هذه اللحظات الوضـع الذي ستؤول إليـه أسرتي، خصوصـاً زوجتي أمنية التي ليس لهـا من معيل سـواي، خفت عليها، تصورت أنها ستذل كثيراً، وهي سيدة جميلة، مـاذا ستفعل من أجل ولديها؟

وأنا أفكر بهذا المصير، قررت أن أضع نفسي تحت تصرف الخاطفين مهما كان هدفهم من وراء خطفي، لن أستطيع المقاومة، سأنفذ كل ما يريدون. اقتربت من باب الغرفة ورحت أطرق عليه بعنف، غير أن أحداً لم يرد، صحت أن يفتحوا الباب، ادعيت أنني أريد الذهاب إلى المرحاض، لم يرد عليّ أحد. أدركت أن سكان المبنى ربما غادروه، إذ كان الصدى يردد صوتي في الممر دون أي حركة تنبىء بوجود إنسان ما. . أحسست بالبرد فجأة، فأيام تشرين متقلبة في بيروت. . لم تمر لحظات، حتى سمعت هطول المطر في الخارج، إذن سأقضي الليلة هنا، ولكن أين أنام؟ لا شيء في الغرفة غير البلاط والجدران والنوافذ المغلقة بخشب سميك. اقتربت من النافذة المواجهة وأصغيت، لعلني أسمع خطوة ما لعابر سبيل، فأصرخ بملء صوتي طالباً النجدة، خيّل لي كأن الشارع أيضاً خال من أي مخلوق، كنت أسمع ارتطام المطر الهاطل بالأرض، وأن ثمة مياه تندفع كالسيل، ومع ذلك، لم أقطع الأمل، رحت أدق خشب النافذة بكلتا يدي وأصرخ بملء صوتي: الرجاء. . النجدة. . انقذوني يا إخوان. . ثم توقفت عن الصراخ، لا جدوى من كل ما أفعل غير الانتظار. عدت إلى زاوية الغرفة في محاولة للاحتماء من البرد الذي يتسرب من الخارج فيلذع وجهي ويدي، مرت ساعات وأنا على هذه الحالة، إلى أن شعرت بالتعب والإرهاق، فتساقطت على بعضي حيث أنا، وغفوت لساعة أو ساعتين، رأيت زوجتي تصرخ، دخلوا البيت. أحدهم يحمل عصا غليظة، حطم كل أواني البيت. زجاج المكتبة. جهاز التلفزيون. الراديو. رأيت الزجاج يتطاير شظايا هنا وهناك، زوجتي تمسك بولديّ في محاولة

لحمايتهما من شظايا الزجاج. تصرخ بالمهاجمين أن يكفوا. أنتبه إلى المهاجمين. إنهم ملثمون. لا تظهر إلاّ عيونهم الشرسة، إنهم منتشون بالنصر على امرأة وولدين. وجه أمنية يتجسد أمامي ممتلئاً رعباً. أنهض لأدافع عنها فأصطدم بالجدار. صحوت. كنت أرتجف من البرد، وربما من الخوف. مرت لحظات قبل أن أهدأ وأستعيد روعي. حمدت الله أنه كان حلماً. عدت أفكر بزوجتي وولدي متسائلاً ماذا حدث لهم؟ ماذا يفعلون الآن؟ تصورت جيراننا كلهم عندنا يواسونها، أبو زهير، وأسعد، وأبو ابراهيم وأم ابراهيم.. أم ابراهيم تحب زوجتي، كل الجارات يتعاطفن معها، السيدة عزيزة، ولوريس وإيفون، لا شك أن زوجتي إتصلت بأبو محمد واتصلت بأبو الطيب، لا شك أن الرجلين سيوفران الحماية لزوجتي، وسيفعلان المستحيل للعثور عليّ. الجميع لن يتركوها لوحدها.

ولعل جارنا أبو توفيق نفسه سيساعدها، فهو متنفذ في احدى المنظمات المسلحة، وله أصدقاء كثيرون، لا بد أنه يرطب خاطرها الآن، وفي الصباح سيبذل جهده كي يعرف مصيري.

وتساقطت من جديد، هاجمني نعاس أقعدني في الزاوية ونمت، كنت بردانا. الهواء البارد ينغرز في عظمي. لكن النعاس غلبني، نمت. لا أدري كم نمت؟ ساعة.. ساعتين.. ثلاث ساعات.

استيقظت على حركة فوق رأسي. انتبهت أن النهار جاء. كان واضحاً من خلال شقوق النافذة، رفعت رأسي، إذ بي أمام رجل عملاق، بدا لي وأنا قاعد في الزاوية، مارداً ووحشاً. نظراته الصارمة قتلت بي كل آمال النجاة. قال لي: قف. وقفت.

قال لي: ارفع يديك. رفعت يدي.

راح يفتشني. هل كان يفتش عن سلاح؟ أين أخفي السلاح؟ لست مرتدياً غير قميص وبنطال وحذاء. عاد يرمقني بقسوة.

أمرني أن أجلس حيث كنت، فجلست على الأرض وأسندت رأسي على ركبتي، ورحت أتابع الرجل بنظراتي، في الوقت الذي بدأ فيه الضجيج يعود إلى الشارع. أبواق السيارات. أصوات الباعة. ثم طلقات القذائف المدفعية. ومن خلال الصوت المرعب الرتيب الذي أخذ يتردد في الأجواء، أدركت أن ثمة مدفعاً قريباً يطلقون منه القذائف. وتساءلت ترى في أي جهة أنا الآن؟ أردت أن أسأل الرجل. التفت نحوه وأنا أتلعثم.. قلت: يا أخ.. أريد أن أذهب إلى المرحاض.. قال بغضب: أنا لست أخاك يا ابن الكلب..

عدت أقول: يا سيدي أرجوك.

قال: قف. فوقفت.

أخرج مفتاحاً من وسطه وفتح باب الغرفة. قال: تعال، فمشيت. كان هناك باب آخر مواجه للغرفة التي كنت فيها، أشار بأصبعه قائلاً: أدخل هنا. دخلت، فإذا بالمرحاض أمامي وقد تراكمت فيه قاذورات وروائح كريهة، لكنني كنت مضطراً.. ثم خرجت وأنا أكاد أتقيأ. أعادني الرجل إلى الغرفة. طلب مني الجلوس في الزاوية حيث كنت أول مرة. امتثلت. إستند الرجل إلى الجدار المقابل. أخرج مسدساً من وسطه. أخرج جهاز كاتم الصوت وثبته في فوهة المسدس. ارتعبت. ماذا سيفعل؟ صحت به: يا أخي.. ماذا تفعل؟ صاح في وجهي: قلت لك أنا لست أخاك يا ابن القحبة.. قلت له بلهجة متوسلة: نعم يا سيدي..

ماذا ستفعل؟ قال: إخرس. . إذا سمعت صوتك مرة ثانية أفرغت هذا الرصاص فيك، ثم صوّب نحوي فوهة المسدس، صمت. تصورت الرجل سيطلق الرصاص. ربما أمروه بتصفيتي. هل هو متردد؟ لو كان متردداً لما عاملني بهذه القسوة.

لا أدري الآن إن كنت أرتجف من البرد أم من الخوف؟ فما زال الرجل مستنداً إلى الجدار والمسدس في يده. . ترى بماذا يفكر؟ هل هناك توقيت معين لتصفيتي؟ وانهالت للتو على ذاكرتي صور مشوشة من ماضي حياتي وحاضرها. وطغت صورة زوجتي على مخيلتي. . كم أحب هذه المرأة الجميلة؟ لم أعطها حقها من العناية. لم أكن منتبهاً أن امرأة عظيمة كانت تعيش معي. كنت أقيم علاقات عابرة واحدة بعد الأخرى، وأقضي معظم وقتي خارج المنزل، لم تكن لدي أي مصلحة مع المتقاتلين، ضد أو مع، بمختلف فئاتهم. بل ما تمنيت أبداً لهذا البلد الجميل أن يدمر كما يدمره هؤلاء الطغاة من أي طرف كانوا.

تحرك الرجل قليلاً، فدق قلبي بعنف، ثم أنه رفع يده التي تحمل المسدس نحوي، فطمرت رأسي بين ركبتي المرتجفتين، ورحت أردد آيات قرآنية، وابتهالات لله: الله. . الله. . الله. . الله. . وكنت أرهف السمع لأي نأمة. ربما سيطلق الآن. كاد قلبي ينفجر من الهلع عندما عاود المدفع القريب إطلاق قذائفه. ارتجفت منذ انفجار الطلقة الأولى. سمعت الرجل يردد: يا جبان. . يا جبان. . يا كلب. رفعت رأسي نحوه. كان حتماً يوجه الكلام إليّ، ليس في الغرفة سوانا. إنه يرمقني مجدداً. الحركة في الخارج ما زالت على ضجيجها. السيارات المسرعة. أصوات

الباعة. المدفع الذي يكرر طلقاته.. ثم، فجأة، حدث هرج ومرج. ازداد الصخب والضجيج. وراحت تترامى إلى مسامعي قذائف تنفجر هنا وهناك.. إذن.. ها قد بدأ الطرف الآخر يرد، ومع اختفاء أصوات السيارات والناس راحت تزداد أصوات القذائف التي تنفجر والمدافع التي تطلق قذائفها، ثم عنفت المعركة، فرحت أسمع صفير الصواريخ وهي تزعق هنا وهناك. قلت في نفسي: لا شك أن الرجل سيغتنم فرصته الآن ويطلق الرصاص. نظرت نحوه، ما زال في مكانه، المسدس في يده. مسدس ضخم راح يكبر ويتضخم أمام عيني كأن ثمة ساحراً ينفخ فيه، حتى الرجل نفسه، بدا حجمه الآن أكبر بكثير مما كان عليه قبل قليل.. في هذه اللحظة داهمتني أحزان لا حدود لها.. كم ستبكي زوجتي. كم سيحزن إبني وستحزن ابنتي.. ابنتي التي لم تبلغ التاسعة من عمرها، كانت كلما سمعت إنفجار تبكي وإذا توالت الإنفجارات كانت تنتابها هيستيريا مجنونة.. ما زالت طفلة، يا إلهي.. ما الذي فعلته بنا الحرب.. والرجل الضخم الذي أمامي، المستند إلى الحائط، هل يريد تعذيبي أولاً؟ لكن ماذا فعلت حتى أستحق هذا العقاب؟

قلت له: هناك قتال في الخارج يا سيدي.

صاح بي: إخرس أنت. ما الذي يخصك في هذا الموضوع.

ازداد في الخارج هدير المدافع، خشيت أن تسقط قذيفة على المبنى الذي نحن فيه، فانتابتني موجة مجنونة من الضحك وأنا أردد: تعددت الأسباب والموت واحد. في هذه الأثناء، هجم الرجل عليّ بغتة، ولبطني بقدمه على صدري لبطة كادت تخمد

أنفاسي، فتوقفت عن الضحك وأنا أتأوه.

عاد الرجل إلى الجدار المقابل واستند إليه مجدداً، وصار يرمقني بغضب وحقد لم أره في وجه إنسان آخر كل حياتي.. فغضضت الطرف نحو الأرض متحاشياً تلك النظرات القاتلة. ربما، في هذه اللحظة، لم أعد أشعر بأي خوف، بل رحت أشعر بدفء راح يتسرب بطيئاً إلى أعضاء جسدي، بدفء غير مألوف، واستمرت حرارته بارتفاع غير طبيعي، وعندما لمست جبهتي بيدي أحسست بالحمى.. إنها الحمى.. حرارتي مرتفعة إلى حد قاتل، وقفت على قدمي، فلم أتمالك نفسي. سرعان ما تساقطت على بعضي. وهنا سألني الرجل بلهجة قاسية: ماذا بك؟ قلت وأنا ألهث: يا أخي.. ربما الحمى.. فعلا صوته: قلت لك لست أخاك يا جبان.

فرددت مجدداً: الحمى يا سيدي.. الحمى.. نظر إليّ باستغراب ثم أشاح بوجهه عني..

لا أدري بعد ذلك ما حدث. كنت متعباً، وكانت القذائف في الخارج تهزني بعنف، ولم أسمع غير صراخ المعركة وصراخ النيران المشتعلة بي، حتى الرجل إياه، صرت أراه شبحاً ضئيلاً يزوغ من أمام عيني كفأر في جحر. أخذ العرق ينضح من جسدي، ثم هاجمتني قشعريرة من البرد. صرت أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي.. ربما، في هذه اللحظات، غبت عن الوعي. وعندما صحوت وجدت نفسي ملفوفاً ببطانية في مكان مختلف، غرفة أخرى دافئة، لها نافذة عالية مشبكة بالحديد، مفتوحة على الأفق، ليس فيها شيء إلاّ السرير الذي أنا فوقه، إلاّ أنني أدركت من شكلها، أنها غرفة في ذات البناية التي أخذوني

إليها قبل يومين. هل أنـا هنا منـذ يومين؟ ولمست ذقني بـأناملي، فـانتبهت إلى شعر ذقني الـذي نبت بقـوة. . لا أدري كم يـوم مـر عليّ هنا، إلاّ أنني استعدت بعض قواي.

النور الذي يعبر النافـذة يوحي أن الصحـو قد عـاد. الشمس هناك في الخارج سـاطعة تمـلأ السماء والغـرفة بـدفئها. أصـوات المدافع خفتت تماماً، فيما عاود ضجيج السيارات وأصوات الباعة سيرتهما الأولى.

فتح الباب فإذا بي وجهاً لوجه أمام رجلين لا أعرفهما، ولكن الفتى الصغيـر الـذي شـارك في خـطفي كـان معهمـا. . قـال لي أحدهم:

ـ تعال.

حـــاولت النهـوض. مـــا زلت متعبـاً. وقفت، وتقـــدمت من الرجلين فتقدم الفتى مني ودفعني أمـامه نحـو الممر. . في صـدر الممر باب مغلق. مشيت نحوه. عندمـا وصلت إليه سبقني الفتى بخطوتين، ثم قال لي ساخراً: سيراك الآن أبو الجماجم.

هـذا الإسم وحده، كـان كافيـاً لإرعابي. أبـو الجماجم. . . هل هو جمجمة؟ أم مجموعة جماجم؟

طـرق الفتى البـاب. لـم أسمـع رداً من الداخـل. فتـح الفتى البـاب ثم إنزاح جـانباً وطلب مني الـدخول. اجتـزت عتبة البـاب فأغلقه الفتى خلفي. واجهني رجـل، ما أن رمقتـه بنظرة عـاجلة، حتى دب الرعب في قلبي فعـلاً. إنـــه كتلة ضخمـة من اللحم، يتدفق كرشه على طاولته الأمامية في حين رمى ساعده الأيسر على طاولة جانبية. على الطاولة الأمامية مسدس وولاعة ديبـون ذهبية، وعلبة سكائر. لم يرفع الرجل رأسه نحوي. كان يحـدق بشيء ما

على الطاولة. نقطة ثابتة. كان يتنفس بصعوبة، يرتدي كنزة صوفية بيضاء تغطي عنقه تماماً. قدرت وزنه بمائة وعشرين كليو غراماً. تصورت لو صفعني بكفه لقتلني من صفعة واحدة.

ظل الرجل يحدق بالنقطة الثابتة على الطاولة.. أجلت الطرف في الغرفة. ستائر النوافذ مسدلة تماماً. مقعد جلدي واحد في مواجهة الطاولة، وكرسي من القش إلى جانبها. كل شيء يبدو نظيفاً ومعتنى به. كنت سأبادر الرجل بالكلام، غير أنني خشيت أن أصرفه عن تأمله فيغضب. المسدس أمامه على الطاولة. لا شك أنه محشو بالرصاص. كنت سأتقدم من المقعد الجلدي وأجلس عليه، لكنني خفت، قد يزعجه ذلك، خيل لي للحظة أنه نائم، لكن حدقتيه كانتا مفتوحتين على شيء ما، ثابت، فوق الطاولة. بالتأكيد ليس المسدس ولا الولاعة.. بماذا إذن يحدق الرجل؟ حاولت أن أثبت نظراتي من مكاني في النقطة التي يحدق بها. الطاولة نظيفة. خشبها بني اللون لامعاً. لا شيء على الطاولة غير المسدس وعلبة السكائر والولاعة الديبون الذهبية.

رحت أدرس ملامح الرجل، وجنتاه منتفختان. بدا لي كأنه لم ينم منذ وقت طويل. أشفقت عليه. شعر رأسه قليل، إنه ينحسر شيئاً فشيئاً. لعله في الثلاثين من العمر.. هل هو رجل حقيقي؟ هل هو من لحم ودم؟ إنه ثابت لا يتحرك، ولولا تنفسه غير المنتظم، لاعتقدت أنني أمام تمثال من الشمع. كانت كنزته البيضاء تفضح ترهله، نهداه كأنهما نهدا امرأة ينطحان قماش الكنزة. أما كرشه، فضخم، إلى حد أنه أسند جزءاً منه على الطاولة فتدفق ككرة ضخمة على الخشب اللامع. يده اليسرى ما زالت مرمية على الطاولة الصغيرة إلى جانبه كأنها ليست منه،

بل كأنهـا مخلوق منفصل ونـائم هناك. . هنـاك. كف يده اليمنى متمددة على الطاولة قرب المسـدس. . إنه من رجـال، المسدس جزء منهم. هل يخشى أن أهاجمه؟ مـا زلت منهك القـوى، متعباً حتى العياء.

الصمت أرهقني، حتى الحيـاة في الخـارج بـدت معـزولـة عني، ولم أعـد أسمع سـوى تنفس الرجـل غير المنتـظم. ما زال صامتاً يحـدق إلى ذلك الشيء الثـابت على الطاولـة. . هل أقـول لـه: صباح الخيـر؟ لا أدري. . هل يعـرف أنني مـوجـود، وأنني واقف أمـامه منـذ ساعـة. منـذ يـوم أو يـومين أو قـرن كـامـل؟ لا أدري. . تعبت من الوقوف، لكنني تمـاسكت. . بماذا يفكـر هذا الرجل الآن؟ هل عنده أسرة وأولاد؟ لا. . لا. . ليس في أصابعـه مـا يشير أنـه متزوج. . تـرى من هي المرأة التي تغـامـر بـالـزواج منـه. . إنه فيـل بكل مـا يعني هذا الـوصف. . كيف يمشي هـذا الرجل؟ هل يقود سيارة أم شاحنة؟

مـا زال ثابت النـظرة على شيء ما فـوق الطاولـة، لعله يفكر بطريقة معينـة لإرهابي، لعله يـرى بي رجلاً خـطراً مخيفاً فيخشى مفاتحتي بموضوع اعتقالي. . حسناً، فها أنا منتظر.

دقائق بعد دقـائق تمر والصمت يلفنـا، صمت قاتـل وموجـع حتى بت أفكر أن أصرخ في وجهه وليكن ما يكـون. خيل لي لـو صـرخت ستمتـد يـده الضخمـة بسـرعـة إلى المســدس ويـطلق الـرصاص عليّ. . آه يـا أمنية مـاذا سيحدث لـك إذا ألقوا بجثتي على الرصيف؟ وأنت يا لينا العذبة البريئة كيف ستعيشين كابـوس جثة أبيك المرمية على قدميك. الأمل ببسام. بسام سينتقم لي. . سيثأر لي دون شك. لن يرضى أن يذهب دم أبيه هدراً، حتى لـو

صار عمره مائة عام.

عـدت أنظر إلى الكتلة اللحمية الضخمـة التي أمـامي.. لا شـك أن صـاحبهـا يـأكـل كثيـراً.. يشـرب ويتعـاطى الأفيـون والحشيش؟ ربمـا.. ربما. فهـذا السكـون الـرهيب يختفي وراءه عـالم من الخيالات والأوهـام والبـطولات المـزيفـة.. وتـذكـرت صديقي عوض الذي كان يقـول لي دائماً: لا تخف إلا من رجـل قليل الكلام. فعلاً. ما بال هؤلاء الرجال قليلو الكلام؟ وتـوجست خيفة. لا شك أن ذنباً خطيـراً قد ارتكبتـه دون أن أدري، وإلّا لما عوملت هذه المعاملة.. إنهم يخشونني أيضـاً. وتذكـرت الليلتين المـاضيتين والـرجـل الآخـر ذو المسـدس وأسلوبـه في التعـامـل معي.. إذن.. أنا في وضع خطير جداً.

وكبر خوفي.

هـا أنا أمـام المحقق الذي لم يجـرؤ إلى الآن على مفاتحتي الحديث.

* * *

وأخيراً..

رفـع الرجـل رأسه نحـوي وحدق بي لحـظات.. فارتعبت، وصرت أرتجف دون أن أستطيـع السيطرة على نفسي. أشـار بيده نحـو المقعـد الـجلدي. فـهمـت أن عليّ الـجلوس. تـنفست الصعداء. تقدمت خطوة ثم جلست متهالكاً، كأن عبئاً ثقيلاً إنزاح عن ظهـري. عدت أنـظر إليه، فيمـا عاد هـو إلى التحـديق فـوق الطاولة.. ثم فجأة تناول المسدس، فأغمضت عيني وهتفت: يـا الله.

لم يحـدث شيء. فتحت عيني على عجل، فـإذا بـه يـطرق

الجدار الملاصق له بكعب المسدس طرقات منتظمة كأنها إشارة متعارف عليها ففتح الباب، وتقدم الفتى إياه الذي قادني إلى هنا. رفع الرجل يده بإشارة ما. . مباعداً بين سبابته وأبهامه. هز الفتى رأسه وانسحب. لم أعرف ماذا أراد الرجل إلاّ بعد دقائق عندما عاد الفتى وقد حمل بين يديه صينية نحاسية عليها كأسان من الشاي، فأدركت للتو معنى تلك الإشارة. وقدم الفتى الشاي إلى أبو الجماجم، لكن هذا أشار له بيده أن يقدم لي الشاي أولاً، فاستبشرت خيراً، تناولت كأس الشاي فتذكرت أنني لم أتناول شيئاً منذ اعتقلوني. واستغربت، رغم ذلك، أنني لم أكن أشعر بالجوع. وعندما تناول أبو الجماجم كأس الشاي الآخر، تراجع الفتى إلى الوراء ثم انسحب من الغرفة.

أخذت أرتشف جرعات من الشاي الساخن وأنا أنظر نحو الرجل الذي بدا الآن منشغلاً بشرب الشاي دون أن ينظر نحوي.

إنتهى من شرب الشاي، كما انتهيت، لم نتبادل كلمة واحدة بعد، حتى خيل لي أن الرجل أخرس لا يتكلم إلاّ بالإشارات، فكدت أضحك لو لم أتمالك نفسي. وتخيلت فعلاً أن الرجل أخرس. فهل سيكون التحقيق بالإشارات؟ سيكون أغرب تحقيق من نوعه في العالم.

مرة ثانية، رفع الرجل مسدسه ودق الجدار الملاصق له نفس الدقات المنتظمة التي فعل مثلها أول مرة، وسرعان ما دخل الفتى ثانية، فرسم الرجل بيده شكل دائرة بين سبابته وأبهامه، فخرج الفتى وعاد بعد لحظات بفنجاني قهوة وقدم لي أحدهما فيما قدم الآخر لأبو الجماجم.

فكرت ثانية بأن الرجل أخرس. رثيت له. أزلت من ذهني

كل الأفكار التي داهمتني حول صمته الرهيب.. وتساءلت هذه المرة بصورة جدية: كيف أستطيع التفاهم معه بالإشارات؟ ورجوت الله أن يساعدني.

أثناء ارتشاف القهوة حرك الرجل يده نحو علبة السكائر وسحب واحدة منها ثم قدم لي العلبة، فوضعت يدي على صدري مشيراً له أنني لا أدخن، هامساً لنفسي: لنبدأ بالإشارات حتى أتمرن عليها.. أشعل سيكارته ثم راح يدخنها بهدوء، ويرتشف بين لحظة وأخرى قليلاً من القهوة، وكنت أفعل مثله ارتشف فنجاني على مهل.

انتهينا من شرب القهوة.

كان الرجل خلال هذا اللقاء مسترخياً على كتلته اللحمية، إلّا أنه الآن شدّ من قامته فوق مقعده الجلدي، وفتح أدراج الطاولة وأخرج ورقة صغيرة راح يقرأ فيها.

سمعت للتو رنين جرس هاتف، ففتح الرجل أحد أدراجه وأخرج سماعة الهاتف منه، ولم يكن يجيب طالبه على الطرف الآخر إلّا بالهمهمة: هم.. هم.. هم.

انتهت المحادثة، فأعاد السماعة إلى الدرج وأغلق الهاتف، ثم أغلق الدرج، وأخذ يتأملني بنظرات متفحصة، كأنه يدرس شخصيتي ويفكر بالسؤال الأول الذي سوف يطرحه.

أما أنا فرحت أتساءل بصمت قلقاً كيف سيطرح عليّ أسئلته؟ هل بالإشارات..؟ وكيف أستطيع أن أدافع عن نفسي بالإشارات..

أخذ ولاعته من فوق الطاولة، وراح يطرطق بها على خشب الطاولة.. ولأول مرة.. يا إلهي.. سمعت صوته.. إنه يتكلم..

الفصل الرابع عشر

كانت عبارته الأولى:

ــ قص عليّ قصة حياتك.

قلت متعجباً:

ــ قصة حياتي!

ــ نعم.. قصة حياتك.

ــ هذه المرة الخمسون.. أو الستون يطلبون فيها أن أروي قصة حياتي.. يا سيدي، والله مللت من قصة حياتي.

ــ لا شك أنك عميل مزدوج.. وإلّا لما احتجت أن ترويها كل هذه المرات.

ــ يا أستاذ.. أنا لا أحب العمالة. لست عميلاً لأحد.. ولست معمولاً بي.. صدقني.

ــ المهم الآن أن تروي قصة حياتك.

ــ يقول فريد الأطرش حكاية حياتي حكاية طويلة..

ــ بلا مسخرة.

ــ من أين تريد أن أبدأ؟

ــ منذ كنت طفلاً..

ــ لكن هناك أشياء نسيتها.

ــ أروِ ما تتذكر.

ـ منذ الإبتدائية . .

ـ منذ الإبتدائية!

ـ حسناً . . كنت تلميذاً نشيطاً. اجتزت صفين مرة واحدة. وعندما حصلت على الابتدائية اقترح أبي أن أنتسب إلى ثانوية الصنائع. وقال لي: أصحاب الشهادات العليا يبحثون عن وظيفة ولا يجدونها، وأنا لا أريد لك هذا المصير، الأفضل لك مدرسة الصناعة تختار فيها مهنة رابحة وتصبح في المستقبل صاحب معمل. . تاجراً مهماً. . لا فائدة من العلم في هذا البلد يا بني.

ـ أبوك جاهل.

ـ ما قلته صحيح، لا يقرأ ولا يكتب، لكنه تعلم فيما بعد وحده كيف يفك أحرف الصحف، وكان قد بدأ حياته عاملاً ثم أصبح صاحب مخبز لصنع الكعك والحلويات وأباً لعشرة أولاد ربّاهم بحبة العين.

ـ لا أريد قصة حياة أبيك. . أريد أن تحدثني عنك.

ـ كما تريد. . كما تريد.

ـ هيا.

ـ وهكذا ذهبت إلى مدرسة الصناعة، واخترت مهنة نجار موبيليا. . آه يا سيدي. . لو تابعت دراستي هناك. . لصنعت لك أفضل غرفة نوم. . ولكن!

ـ ما لي والتمنيات الآن. . أكمل.

ـ كنا في مدرسة الصناعة نتعلم قبل الظهر. . وبعد الظهر نذهب إلى المعمل. . أتعرف ما هو أول شيء صنعته في المعمل؟

ـ ماذا صنعت؟

ـ مسطرة دقيقة جداً، لقد تعلمت منذ اللحظة الأولى وأنا أحوّلها من قطعة خشب إلى مسطرة أن المشي في خط مستقيم لا يوقعك في المتاعب.

ـ هل أفادتك التجربة.

ـ لا.

ـ أتعرف لماذا؟

ـ أريد أن أعرف.

ـ لأنك خلقت عميلاً وكذاباً.

ـ هذه اتهامات خطيرة يا سيدي.

ـ بل حقيقة، لأنك لو استمعت إلى نصيحة مسطرتك.. لما كنت الآن هنا!

ـ بل المشكلة يا سيدي أنني كنت أنا في الخط المستقيم.. بينما الآخرون في الخط المتعرج.. من هنا يحدث الصدام.

ـ هل تعني أن الثورة في الخط المتعرج؟

ـ معاذ الله.. لم أعن هذا.. لم أعن هذا.. كل ثورة تجد فيها رجالاً يسيئون إليها بالافتراء على الناس، بقتل الذين لا يحبون رائحة أفواههم.

ـ أنت تناقشني بالسياسة.. أم تروي قصتك؟!

ـ يا أخي.. إنني أروي قصتي.

ـ أنا لست أخاك.

ـ أنت أخي بالوطن والدين والإنتماء.. ألم تسمع عبد الناصر عندما كان يخاطب الجماهير يقول: أيها الإخوة المواطنون.

ـ أنت واحد مزعبر.. صرت تـدخلني في متاهـات.. أريد أن أسمع قصة حياتك فقط!

ـ يـا سيـدي.. بقيت في كليـة الصنـاعـة نحـو سنتين.. صنعت طاولة وكرسياً وطربيزة..

مقاطعاً:

ـ هـذه الأشياء إبني الصغيـر يصنعها دون أن يتعلم صنعهـا في مدرسة صناعة!

ـ أنت متزوج يا سيدي.

ـ نعم.

ـ لكن لم ألمح في يدك خاتم الزواج.

ـ هذا للتمويه.

ـ وهل عندك أولاد.

ـ ولد واحد!

ـ كم عمره؟

ـ خمس سنوات.

ـ لا شك أنك أب حنون!

ـ أوه.. أنت تحقق معي أم أنا أحقق معك.

ـ حاشا الله يا سيدي.. يعني عندك أسرة، مثلما أنا عنـدي أسرة، وعندي ولدان.

ـ نحن نعرف كل شيء عن أسرتك..

ـ صحيح!!

ـ نعم.. نعم.

ـ هل تعرف أن أمنية كتبت شعراً تمجد بالثورة وبأبطالها!

ـ من هي أمنية؟

ـ زوجتي يا سيدي. . زوجتي. . كانت تقول دائماً: الثورة أعادت إلينا ماء الوجه. . استعدنا كرامتنا بعد كل تلك الهزائم.

ـ أنا لا أقرأ الشعر.

ـ أنت ثوري ولا تقرأ الشعر.

ضرب بقبضته على الطاولة صارخاً:

ـ خلينا بالموضوع.

ـ نعم يا سيدي. . إلى أين وصلنا. .

ـ صنعت طاولة وكرسياً وطربيزة. .

ـ آ. . نعم. . لكن ذات يوم، وأنا في المعمل تشاجر طالبان مع بعضهما. . ولما كنت لا أجنح إلى العنف، ولا أحب العنيفين، ولا الحزب الشيوعي، ولا أدعياء البطولات ولا أفلام الحروب، أسرعت، من غير زملائي جميعاً، وتدخلت بينهما محاولاً إبعادهما عن بعضهما، ولكنني تلقيت ضربة قاسية من أحدهما على نافوخي، ففج رأسي وسال الدم غزيراً على وجهي وملابسي. ولما رأيت الدم، وكم أخاف من الدم يا سيدي، سقطت مغمى عليّ. . صحوت فيما بعد في المستشفى. وقالت الممرضة: تسع قطب يا صبي. . هل وضعت رأسك عمداً تحت المطرقة؟

التقطت أنفاسي قليلاً، كان أبو الجماجم ينظر نحوي بقسوة، قلت في نفسي «سأثير خياله. . سأجعله يحن عليّ حتى أعرف ماذا يريدون مني. . ولماذا اعتقلوني بمثل هذه الطريقة».

قال أبو الجماجم متبرماً:

ـ وبعدين!

ـ يا سيدي. . بقيت في البيت نحو ثلاثة أسابيع تعرضت

فيها لتقريع أبي المستمر: ابتعد عن الشر وغن لـه. . أترك مسـافة بينك وبين الناس. إذا مشيت في الطريق. . امش بحذاء الحـائط وقل يا رب الستر.

ـ فهمت. . فهمت. . دعني من أبيك يا. .

ـ أنت طلبت قصة حياتي وأنا أرويها لك كما حدثت.

ـ أكمل بدون ثرثرة. . بدون تفاصيل.

ـ تخيلت فيمـا بعد أنني شفيت من الجـرح، وعندمـا عدت إلى المدرسة، عرفت أن الإدارة قد طردت الطالبين إياهما اللذين سببـا لي الحـادث. حـزنت كثيـراً. . فقـد كـانـا زميليَّ. . وكنت أحبهما.

ـ طردهما كان جيداً. . لا تحزن عليهما.

ـ في العطلة الصيفية، وأنا في المقبرة. .

ـ مقبرة. . وهل كنت تتجسس أيضاً على الأموات؟

ـ يا سيدي. . كنت ألعب مع رفاقي بكـرة القدم في سـاحة المقبـرة المجاورة لبيتنـا. وفجأة شعـرت أنني أفقد السيـطرة على نفسي، حـاولت أن أثبت، غيـر أنني وقعت وغبت عن الـوعي. ومنذ ذلك اليوم صار هم أبي أن يأخذني من طبيب إلى طبيب، إذ تكرر الوقـوع والسقوط والإغمـاء، قال أحـد الأطباء هـذا نوع من الصرعة، لا علاج لها الآن. . وبدأت رحلتي الجديدة مع الأدوية المختلفـة المهـدىء منهـا والمسكن لـلآلام. . حقن. حبـوب. شراب. الخ.

وذات يـوم خمّن طبيب ألمـاني كـان يـزور بيـروت وكنـا قـد سافرنا إليه: أن السبب كان ذلك الجـرح القديم، ونصـح الطبيب أن أظل تحت مراقبة دائمة. . فـأخرجني أبي من المـدرسة وصـار

يـأخذني معـه إلى الفـرن وأعـود معـه إلى البيت، وتعلمت صنـع الكعك والحلويات. . لكنني لم أنقـطع عن القراءة، أحببت منـذ طفولتي قصص أرسين لوبين وشرلوك هولمز والرجل الخفي . .

ـ يعني كتب الجاسوسية واللصوصية والبوليسية. . !

ـ يا أخي. . هذه الكتب علمتني أن أصبح كاتباً وصحفياً. .

ـ بـل علمتـك كتـابـة التقـاريـر وتسجيـل الأحـاديث خفيـة لزوارك. .

ـ من قال لك ذلك؟

ـ أتينا بك إلى هنـا من أجل هـذا. . قل لي بـاختصار مـاذا كنت تسجل لزوارك دون أن يعلموا؟

ـ بل بعلمهم.

ـ أنت تكذب.

ـ يـا أخي بعلمهم. أنا صحـافي. . وكلما زارني شـاعـر أو كاتب أسجل معه حواراً للنشر.

ـ لكنك الآن لا تعمل في الصحافة. .

ـ يا أخي. . كنت محرراً ثقـافياً، وتسجيـل المقابـلات من صميم عملي. .

ـ نحن نريد هذه الأشرطة.

ـ إنها موجودة في البيت. . قم معي لأعطيك إياها.

ـ الآن. . أريد أن أسمع البقية.

ـ كان ذلك المـرض المفاجىء مـأساتي على مـدى سنوات طـويلة، وأثنـاء ذلـك كنت ألتهم قـراءة الكتب أكـانت عـربيـة أو متـرجمة حتى تشكلت عنـدي مكتبة كبيـرة أعتز بهـا حتى الآن. . لكن نصفها بقي في دمشق، والنصف الآخر في بيروت.

وسألت أبو الجماجم فجأة:

ـ هل قرأت رواية الساعة الخامسة والعشرون؟

أجاب بصلف:

ـ أنا لا أقرأ الكتب..

ـ هذه الرواية لو قرأتها لنبذت عملك هذا فوراً..

ـ إخرس.. أنا أحافظ على الثورة.

ـ لكن الكتب متعة حقيقية يا سيدي.. ليتك تفعل.

ـ أكمل القصة!

ـ في هذه الفترة بدأت صحتي تتحسن.. ولكن بعد أن صرف والدي مدخراته كلها عليّ.. وباع حصة له في مخبز كبير يقع في شارع السنجقدار بدمشق بنصف ثمنه.. وفي تلك الفترة طلبت لخدمة العلم، لكنني أعفيت لأنني وحيد أبوي..

وقاطعني:

ـ كان هذا من حسن حظ الجيش.. لأنك كنت قد خرّبت جيشاً بأكمله..

ـ حرام عليك يا رجل.. إلى هذا الحد سمعتي سيئة عندكم..

ـ سيئة وبس.. أنت مجرم وعميل وخائن للثورة.

ـ هناك ثورات كثيرة عندنا فأي ثورة تقصد؟

ـ إخرس.. إخرس.. وأكمل..

ـ كيف تريدني أن أخرس وأن أكمل في وقت واحد؟

ـ قلت لك تابع..

ـ في هذه الفترة صرت أكتب.

ـ تكتب تقارير..

ـ تقارير إيه يا أستاذ. . صرت أكتب قصة وشعراً وبدأت أشتهر. . وبدأت تعقد معي المقابلات وتنشر صور لي في الصحف.

ـ لا شك أنك كنت تشبه فرنكشتين.

ـ حسناً، على كل حال أبي انزعج من هذا التوجه. . وظل يردد على أسماعي ليلاً نهاراً: الكتّاب يموتون على قارعة الطريق. . الكتابة لا تطعم خبزاً يا ولد. . فكر أن يكون لك مخبزك الخاص. . لا كتابك الخاص.

إلّا أن إغراءات الشهرة جعلتني أتحمس أكثر، فاندفعت للعمل في الصحافة، وبدأت محرراً في إحدى الصحف المسائية أوقعتني في مطبات كثيرة خصوصاً عندما صرت أخلط السياسة بالثقافة، والثقافة بالسياسة، وأنتقد تقصير السلطات والمؤسسات والغلاء واضطهاد الناس من شرطة السير وشرطة البلدية والشرطات الأخرى المتنوعة. . بل رأيت بأم عيني شرطياً يضرب شيخاً مسناً يبيع البرتقال لأنه خالف وأوقف عربة البرتقال في مكان ممنوع. ظل يضربه حتى أشجاه.

ومنذ ذلك الحين صرت ذاهباً آيباً على أجهزة التحقيق، وفي كل مرة يسألونني أن أقص عليهم قصة حياتي، حتى أنني واجهت محققاً بذاته ثلاث مرات كل مرة يطلب مني أن أقص عليه قصة حياتي. . ولن تكون أنت الأول ولا الأخير.

تعبت من الكلام، فصمت، لكن أبو الجماجم ظل محدقاً نحوي ينتظر أن أتابع، ظللت صامتاً، قال:

ـ أتعبت.

ـ بل مللت حكايتي يا سيدي.

ـ حسناً.

ثم رفع مسدسه ودق على الجدار الملاصق له دقاته المنتظمة دخل الفتى علينا مجدداً، فرسم له أبو الجماجم دائرة بين سبابته وأبهامه.. عاد هذا بعد قليل ومعه فنجانا قهوة قدم أحدهما لي والآخر للمحقق.

في الواقع كنت بحاجة إلى فنجان قهوة بعد هذا الحديث الممل.. وتساءلت: لعل ضمير أبو الجماجم بدأ يستيقظ. فقد يقول لي الآن إذهب إلى بيتك.. لكن أبو الجماجم وضع فنجانه على الطاولة وقال بلهجة الآمر:

ـ أكمل.

ـ يا سيدي ماذا تريد أن أكمل.. إسألني وأنا أجيب.

ـ أكمل حيث وصلنا.

ـ لا شك أنك إنسان حر وضميرك حي.. أطلق سراحي حتى أعود إلى أسرتي وتعود أنت إلى أسرتك..

ـ بعد أن تتم قصة حياتك سأرى ماذا أفعل؟

ـ وهكذا يا سيدي تزوجت وأنجبت حتى الآن ولدين، وأثناء ذلك توقفت الجريدة التي كنت أعمل فيها، فقررت الرحيل إلى بيروت.

ـ متى كان ذلك..

ـ عام ١٩٦٩.

ـ رحلت من تلقاء نفسك.. أم هم أرسلوك؟

ـ من هم يا سيدي؟

ـ جماعتك.

ـ جماعتي.. من هم يا سيدي جماعتي؟

ـ هل تحسبني غبياً؟ نحن نعرف كل شيء عنك . .

ـ إنكم لا تعرفون شيئاً أبداً . .

ـ إسمع . . سأواجهك بالحقيقة الساطعة . . الأشرطة أصبحت بحوزتنا. كل الأشرطة . . وسمعناها كلها . . وتريد الآن أن تستغبيني . . .

ـ حسناً . . إذا كنت قد سمعت الأشرطة كلها . . فما الذي يؤخرك عن إطلاق سراحي؟

ـ الأشرطة سجلت فيها كل شيء عن الذين حاورتهم . .

ـ أليست هذه مهمة صحافية . . يجب أن أعرف كل شيء عن محدثي . .

ـ يا كلب . . هذا واجب المخابرات . . وليس واجبك . . أسيادك طلبوا منك أن يعرفوا كل شيء عن هؤلاء . .

ـ لكن هؤلاء شعراء وكتاب . .

ـ هؤلاء الذين يشكلون الخطر . . الكتاب والشعراء . . هل تعتقد أن العمال وكناسي الشوارع وبائعي البرتقال يشكلون خطراً . . هؤلاء الناس مساكين . . الخطرون هم المثقفون . . وأنت كلفت بمهام تسجيل كل شيء عن هؤلاء . .

ـ لكن هذه الأحاديث والحوارات نشر معظمها في الصحف التي عملت بها . . ليس في الأمر غرابة يا سيدي . . نشرت بموافقة هؤلاء الكتاب والشعراء، وبعضها روجع من قبل الكاتب نفسه، لقد كنت حريصاً ألا أنشر حواراً إلّا بعد موافقة صاحبه عليه، لم أكن من الصحافيين الذين يحبون المشاكل ويورطون محاوريهم بأجوبة يندمون عليها فيما بعد. إنك تظلمني . . وفكرتك السيئة عني هي التي توجهك الآن . .

ـ إسمع. . أنا لم أحقق مع إنسان ووجدته بريئاً إلا أطلقت سراحه. . أما أنت. . أما أنت، فكذاب. إنك كذاب. إحساسي يقول لي أنك تكذب.

أحسست نبرة الغضب بلهجة أبو الجماجم، وأدركت أن الرجل لم يقتنع ببراءتي، فقلت له:

ـ هل سألتم عني فلان. . وفلان.

ورحت أردد على مسامعه أسماء شعراء وكتاب وقادة منهم أبو محمد وأبو الطيب.

وفوجئت يقول لي:

ـ سألنا هؤلاء. . ولم يقل واحد منهم كلمة طيبة فيك.

استغربت ذلك ولم أصدق، فسألته:

ـ أبو محمد. . وأبو الطيب.

ـ نعم. . نعم.

لا شك أن أبو الجماجم يكذب الآن. . هل من المعقول أن يشهد بي أبو محمد ما يؤكد زعمهم. . هل من المعقول أن يشهد أبو الطيب ضدي. .؟ ولم أنتبه إلى نفسي وأنا أقول بلهجة صارمة:

ـ أنت تكذب يا أبو الجماجم. . أنت تكذب.

ـ تقول عني كذاب يا ابن الكلب. . لماذا ذهبت زوجتك إلى لندن؟ ماذا فعلت هناك، بمن اتصلت؟

ـ يا شيخ حرام عليك. . لم تتصل بأحد. . أرسلتها لترتاح من الحرب، لأخفي عنها خبر وفاة والدتها. . هذا كل ما في الأمر. . ألم تسألوا أبو محمد عن هذا الموضوع أيضاً؟

ـ سألناه وقال أنه لا يعرف شيئاً، بل قال عنك أنك رجل

غامض.. وأنك تقوم بأعمال لا يفهمها..

ـ مرة ثانية أقول لك أنني لا أصدق هذا الكلام.. فأبو محمد هو الذي جلب لها تذكرة الطائرة.. وأبو محمد هو الذي أعادها لأولادها، أنت تظلم هذا الرجل.. تريد أن أسيء الظن به.. لا يمكن أبداً، سأظل أقول لك أنك لا تعرف أبو محمد، ولا تعرف أبو الطيب، ولا تعرف أياً من هؤلاء الناس الطيبين.. أقول لك هذا، وأنت تعرف أنني أقول هذا صدقاً..

ـ إنك تريد أن تكذبني يا ابن الكلب.. وأنا أقول لك: أنك عميل وخائن..

ثم وقف بكل جسده المترهل وراح يضرب الطاولة بقبضته وهو يصرخ، ومع صراخه، دخل الفتى إياه وخلفه رجلان الواحد تلو الآخر، فصاح بهم أبو الجماجم:

ـ خذوه.

* * *

الفصل الخامس عشر

الغرفة إياها، وأنا أنتظر، الساعة الآن الخامسة مساء، فتح الباب، فإذا بالفتى نفسه وثلاثة رجال، قال الفتى:

ـ هيا.

وأمسك بكتفي وقادني إلى الخارج. الرجال الثلاثة مشوا خلفنا، وهم يتهامسون بحديث ما.

قلت للفتى:

ـ إلى أين تأخذونني؟

قال ساخراً:

ـ الآن تعرف.

فمشيت، حتى خرجنا من المبنى، كانت حركة الناس ضئيلة، رمقني المارة دون اهتمام. أصوات المدافع والانفجارات تُسمع عن بعد بشكل رتيب. الفتى ما زال ممسكاً بي. قلت له:

ـ خل يدك عني.. لا تخف. لن أهرب.

قال هازئاً:

ـ وهل تستطيع؟

قلت:

ـ لا بالطبع، فأصحابك خلفي، وأنت معي.

فقال متشاوفاً:

ـ أنظر.

ونظرت حسبما أشار بيده فوجدته يتمنطق مسدساً، ثم تابع:

ـ إنني أحسن التصويب.

فسألته:

ـ هل تراني عدوك إلى هذا الحد؟

قال:

ـ أنا لا أعرفك.. ولكن قالوا لي أنك تتآمر علينا.. وأنك كنت تخبرهم بالتلفون أين تسقط قنابلهم.. كنت ترشدهم إلى الأمكنة التي يجب أن يقصفوها..

فصرخت متعجباً:

ـ أنا!

قال:

ـ أنت.. نعم..

إحترت ماذا أقول للفتى. ربما هو أيضاً مسؤول كبير.. وتذكرت أن أبو الجماجم لم يسألني عن هذا الموضوع.. فهل هناك تحقيق آخر؟

أدخلوني أحياء متعرجة، حتى اقتربنا بما يشبه المرآب تحت أحد الأبنية الضخمة، دخلنا، إنه مكان فسيح، فيه سيارات محطمة، وأخرى معدة للتصليح، هناك سيارة جيب مرفوعة بحامل ميكانيكي، لعله مكان لتصليح السيارات، أوقفوني بزاوية غرفة مغلقة، خرج منها بعد قليل رجل طويل القامة، وسأل أحد الرجال وهو يشير نحوي:

ـ أهذا هو؟

قال الفتى:

ــ إنه هو.

قال:

ــ لقد أخبرني أبو الجماجم كل شيء.

ثم وجه الكلام إليّ قائلاً:

ــ هل كنت تعتقد أننا غافلون عنك. إن يدنا تطول أي واحد من أمثالك..

فقلت مسترحماً:

ــ يا سيدي، أنتم مخطئون، لا شك أنكم مخطئون، أنا لم أفعل شيئاً يسيء لكم.. بل لا يمكن لي أن أفعل شيئاً يسيء لكم.. إنكم إخواني، لي بين صفوفكم أصدقاء وأحباء.

ــ إخرس.. إخرس. لعلك كنت تستدرجهم وتكتب بهم التقارير لجماعتك؟

ــ يا أخي.. أنت غلطان.. ليس لي جماعة، ولست عميلاً لأحد.

رمقني الرجل بقسوة، ثم اقترب مني قائلاً:

ــ ارفع يديك..!

رفعتهما، فسحب من بنطالي الحزام الجلدي، ثم أخلى ساعتي من يدي، وأخرج من جيب بنطالي محفظة النقود التي تحتوي أوراقي الخاصة، وحمالة مفاتيح..

سألني عن المفاتيح:

ــ ما هذا؟

قلت:

ــ مفاتيح السيارة والبيت.

فالتفت نحو الفتى وأعطاه المفاتيح وقال له: خذ.

ها هي مفاتيح بيتي بين أيديهم.. سيداهمون البيت. وتذكرت أن زوجتي تقفل الباب، عادة، من الداخل.

فتح الرجل المحفظة وراح يتأمل صورة زوجتي وولدي.. فهمست في أعماقي: يا رب.. ألهمه الخير. أغلق المحفظة، ثم طلب مني أن أنحني وأسحب رباط حذائي، ففعلت. طلب من رجل ظهر بباب الغرفة مغلفاً أحضره له، فوضع كل هذه الأشياء في المغلف، ثم التفت نحو الفتى وقال له: أنت.. ابق هنا، وقال للرجال الآخرين:

ـ خذوه عند أبو أكرم!

فقادني الثلاثة إلى الخارج وأنا أتساءل: من هو أبو أكرم هذا؟ لعله محقق آخر.

خرجنا إلى أزقة أخرى، عتم الجو، ولم نعد نرى إلّا بصيص شموع من هذه النافذة أو تلك. مشينا طويلاً، أمكنة أراها لأول مرة في حياتي، عشرون سنة وأنا في بيروت ولم أقرب هذه الأمكنة، قادوني بإتجاه محل للبقالة، ثم دخلناه، فإذا برجل في الداخل ما أن لمحنا، حتى وقف، وأغلق باب المحل. فقال أحد الرجال:

ـ إنه خاص بأبو أكرم.

لم أعد أفهم شيئاً، ماذا يريدون أن يفعلوا؟ ها أنا خاص بأبو أكرم، كأنني قطعة أثاث، أو شيء آخر.. من هو أبو أكرم.. لا أدري.

جلس الرجال الثلاثة على مقعد خشبي طويل في صدر المحل، بينما أسرع الآخر يقدم لهم السكائر، كان صاحب المحل في حوالي الستين من عمره، أشيب الشعر، طيب

الملامح، خاطبته قائلاً:

ـ يا أخ.. هناك خطأ في الموضوع. أنا لم أرتكب ذنباً.. لم اسيء إلى أحد.

لكن الرجل لم يلتفت نحوي، أما الرجال الثلاثة فقد وقفوا يريدون الإنسحاب، فطلب منهم التريث قليلاً، ثم تقدم من الزاوية الأخرى ورفع خشبة من الأرض تشبه باباً لسرداب، وأشعل ضوء بطارية وسلّطه فوق الكوة، التفت نحوي وقال: تعال. فخطوت نحوه حتى قاربته، فقال: إنزل هنا، وأضاء لي المكان. فإذا بسلم خشبي يؤدي إلى أسفل..

فقلت: ما هذا؟

قال: إنزل بدون مناقشة.

قلت: أريد أن أعرف إلى أين؟

قرفص الرجل ونادى في الكوة:

ـ أبو أكرم.. أبو أكرم.

سمعت صوتاً يلبي النداء:

ـ نعم.. نعم.. أنا قادم.

فقال الرجل بصوت عال:

ـ لدينا زبون جديد يا أبو أكرم.. تعال واستلمه.

التفت الرجل نحوي وقال:

ـ هيا.. إنزل.. لا تخف.

كان لا بد لي من المثول، فوضعت قدمي على أول درجة من السلم حذراً من السقوط، وبدأت النزول، فيما كان الرجل يضيء لي المكان من الأعلى.. وما أن لامست قدمي الأرض حتى أغلق باب الكوة العلوي وساد الظلام.

ظللت واقفاً في مكاني لا أعرف كيف أتحرك، بينما اندفعت إلى أنفي رائحة المكان، رائحة خليط من الرطوبة والمجارير والخوف. هل أنا في سرداب؟ فليس هناك ما ينبىء عن وجود مجرى لهواء نظيف.. وليس هناك ما ينبىء عن وجود بشر.. حركة ما. أين هو هذا الـ أبو أكرم؟

خفت أن أتحرك متلمساً ما أنا فيه.. ثم خطر ببالي أن أنادي على أبو أكرم، فناديت عليه. صوتي هذه المرة اختنق بالبكاء. تماسكت. لكن أبو أكرم رد عليّ: أنا قادم.. أنا قادم. فاستعدت روعي، ثم لمحت بصيص نور قادم نحوي، سرعان ما تبين لي أنه شمعة يحملها رجل خمسيني، كان يرتدي كلابية سوداء مطرزة، ويلف عنقه بغطاء صوفي، عندما أصبح أمامي تماماً ظهرت ملامحه جيداً، إنه رجل ملتح وبشاربين كثيفين. قال لي مرحباً:

ـ أهلاً وسهلاً..

لهجته جعلتني أطمئن قليلاً. لم تكن لهجة عدوانية ولا ساخرة، لهجة لم أسمع مثل رنينها منذ زمان طويل.. طويل. قال الرجل مقدماً نفسه لي:

ـ أنا أبو أكرم.. ستنزل ضيفاً عندي.. لا تؤاخذني على هذا الفندق القذر. لكنها الظروف يا أخ.

ثم أمسك بيدي، وقادني في الظلام عبر ممر ضيق. وكنت أمشي خلفه بصعوبة. كانت قدماي تغوصان بماء لزج تفوح منه رائحة نتنة، إلى أن وجدت نفسي أمام باب حديدي مغلق، وأثناء الوقوف سمعت أصواتاً تهمهم من مكان قريب: أهلاً وسهلاً بالنزيل الجديد. ثم انفرد صوت يقول: «يا أبو أكرم.. يا

أبو أكرم. . هاته إلى عندنا. . فأجاب أبو أكرم: لا. . لا. . سيبقى وحده حتى أتلقى أوامر جديدة.

وفتح أبو أكرم الباب الحديدي ثم قال:

ـ تفضل.

وما أن خطوت خطوتين حتى أغلق أبو أكرم خلفي الباب.

بقيت في مكاني لثوان معدودات. ثم رحت أتلمس المكان. مددت ذراعي إلى جانبي. . ها هي يدي اليمنى تصطدم بالجدار الأيمن. ويدي اليسرى تصطدم بالجدار الأيسر. الجدران خشنة، إذن، أنا في زنزانة. خطوت خطوة واحدة فاصطدمت بشيء قاس، تلمسته، إنه شيء ما يشبه السرير. تقدمت قليلاً ألامس هذا الشيء. سرير حديدي عليه ما يشبه البطانية. جلست على طرفه. الظلام شديد الحلكة. أصغيت السمع، لا شيء، إلّا ما يشبه الهمهمة البعيدة. بعد قليل عاد إليّ صفاء ذهني. حتى الآن ليس ما ينبىء أنهم اتخذوا قراراً، هذا ما يؤكده لي وجودي هنا، منذ ثلاثة أيام. لم أعد أذكر. ربما أكثر. إنه كابوس مرعب لم تتوضح نهايته بعد. واستعدت في ذاكرتي هذه الاتهامات التي اتهموني بها. لا أنا عميل لأحد. وما الأشرطة التي أحتفظ بها إلّا تسجيلات لأدباء وشعراء. ماذا فعلت زوجتي في لندن؟. . المسكينة، واجهت هناك صعاباً قاسية، أربعة أشهر، وكان في الظن أن تكون إجازتها أسبوعين فقط، حتى وفاة أمها علمت بها هناك. . فقد كتبت رسالة لأخيها المقيم في أستراليا تطلب فيها معونة مالية، لم يتأخر، وفي أسفل الرسالة عزاها بأمها. فأخبرتها جارتنا أن غايتي من إبعادها إلى لندن لبعض الوقت، كان حتى لا تعرف هذا الخبر المفجع. وعاشت زوجتي أيامها هناك حزناً

وبكـاء، وعوض أن تجـد إلى جانبهـا من يخفف عنها قسـوة هـذا الخبر. وجدت نفسها وحيدة، بعيـدة عن زوجها وأولادهـا. قالت لنا الجارة عند عودتهمـا: أنها انـزوت في المنزل تـرفض الخروج إلى المدينة. وتـرفض الذهـاب مع مضيفهـا إلى أي مكان آخـر. عـاشت حزنـاً حقيقياً، جعلتني أنـدم فيما بعـد لأنني أبعدتهـا إلى هناك. ثم، ماذا قـال الفتى قبل أن يـرموا بي في هـذا السرداب؟ إنهم يتصلون بي من شـرق المدينـة يسألـونني أين انفجرت هـذه القذيفة أو تلك. يعني أنني كنت أرشـدهم إلى الأمكنة التي يجب ضربها. . كم أنا بريء من هذه التهمة. لنا صديقـة متزوجـة تقيم هناك، كانت تهتف لنـا عند اشتـداد القصف لتطمئن علينـا، وكنا نفعل الشيء ذاته لنطمئن عليها. . هل وشى بنا أحد الجيران هذه الوشاية الكاذبـة؟ تذكـرت أبو تـوفيق، جاري المبـاشر الـذي كان يدعي دائماً أن له صلات قوية بهؤلاء وبغيـرهم. بل عـرض على أبو محمد ذات يـوم أن يتعاون معهم بكـل ما يهمهم، لكنـه طلب مالاً مقابل ذلك. . قـال لي أبو محمـد: هذا الـرجل مـرتزق، لـو كانت غايته وطنية بحتة لما طلب مالاً.

وأهمل أبو محمد، فيما بعد، فكرة التعاون معه. وتسـاءلت: هل يمكن لهذا الرجل أن يؤذيني. . إنـه يعرف عني كـل شيء. . غالباً أسهر عنده أو يسهر عندي. أحيـاناً نلعب الـورق. . أو النرد أو نتسامر في الأوضـاع السياسيـة. . زوجته كـانت تعبر عن حبهـا لـزوجتي في مناسبـات عديـدة، ابنته الـوحيـدة صـديقـة ابنتي. . تقضيـان معـظم الـوقت معـاً. . لا. . لا لا يمكن أن يكـون هـو الواشي. . من هو إذن الذي أوقعني في هذه الورطة؟ لا بـد أن في الأمر خطأ. . خطأ. . خطأ.

شعرت هذه اللحظات بتعب وإرهاق شديدين، فاستلقيت على السرير، ليس عليه وسادة، جلست ثانية وأسندت ظهري إلى الجدار وتمددت، ثمة رائحة غير طبيعية تعم الزنزانة، حاولت أن أفهم شيئاً بأناملي التي رحت أجس بها الجدار الملاصق لي، والسرير، والبطانية، وانتبهت إلى رطوبة تنّز من السقف، رائحتها نتنة، ربما ناتجه عن المجارير أو ما أشبه.

بدأت الصور الآن تتزاحم في رأسي، أمنية، بسام، لينا، الجيران، جوزف الذي قتلوه أمام عيني، لو كان جوزف يتنبأ بما حدث لي الآن لتمنى أن أموت معه.. على الأقل القتيل لا يحس ولا يشعر ولا يعرف ماذا جرى. تذكرت أبو محمد، قلت في نفسي لا بد أن أبو محمد يحقق الآن ليعرف أين أنا.. حتى أبو الطيب لا بد أنه يبحث عني.. كلاهما لن يتخليا عني.. أعرف ذلك. وتذكرت ريتا، وتذكرت الناس الذين أحببتهم، وهتفت في أعماقي: أين أنت يا أبو زهير.. لعلك تطلب من إخوتك تحت الأرض ليساعدوني.. وعدت أفكر بأسرتي. وتصورت أنني سأبقى طويلاً في هذا المكان، وأن أمنية ستترك بيروت، وتأخذ الولدين معها وتعود إلى الوطن.. لكن من سيساعدها هناك. بل من سيساعدها هنا في بيروت، وكان أملي كبيراً بأبو محمد وأبو الطيب. كلاهما قادر على مساعدتها، وهذا ما جعلني أطمئن قليلاً.

وغفوت، لا أدري كم غفوت. لكنني صحوت على طرق عنيف على باب الزنزانة ورجل يصيح بكلمة واحدة:

ـ تتعشى..!

إذن الوقت أصبح ليلاً.. هل أنا جائع؟

لم أكن أشعر بالجوع، رغم أنني كنت منهكاً تماماً، منذ أيام لم أتناول طعاماً. . ربما منذ شهور. . لا أدري. . لكن نفسي تعاف أي طعام، معدتي ملأى بالخوف والعطش.

طرق الباب ثانية والصوت الأجش يسأل:

ـ هل تتعشى.

أجبت بكلمة واحدة:

ـ لا. .

ـ وغاب الصوت قليلاً. ثم تنامى إليّ الصوت نفسه يدق أبواباً أخرى ويسأل إن كان الآخرون يريدون العشاء. إذن، لست وحدي هنا، أنا في سجن، وهناك سجناء آخرون، ما هي ذنوبهم؟ لعلهم مثلي، وربما هم مدانون مذنبون. لا أعرف. . لا أعرف. المهم، ها أنا مثلهم أسير زنزانة. لا بصيص نور، لا بصيص أمل، ظلام يحتك بالظلام، عتمة قاسية لا ألمح من خلالها إلا ظلالات تتوالى، كأنها ستارات تنفتح على ظلام آخر.

لا أدري إن نمت طويلاً بعد ذلك، لأنني استيقظت وأنا أشعر بألم في مؤخرة رأسي، كنت مستنداً برأسي على مسند السرير الحديدي، ربما بسبب ذلك أشعر بهذا الألم. نزلت عن السرير ووقفت، تحسست المكان جيداً. قدرت أنني في زنزانة ضيقة لا تتسع إلاّ للسرير وفسحة صغيرة بحجم شبرين من يدي. كان أكثر ما يجعلني خائفاً هذا الصمت بحجم البحار والجبال والأودية، كأن كل شيء ساكن سكون الكواكب البعيدة، إنه الليل، الجميع نيام، ولكن من هم؟ من هؤلاء، في أي مكان أنا؟ لا أدري.

تمشيت داخل الزنزانة لأعيد الدماء إلى قدمي، الرطوبة والرائحة النتنة، وبرد يتسرب إلى العظام، ثم من جديد شعرت

بـالإنهيار. . أنـا جائـع وعطش، استلقيت فـوق السريـر. . بدأت الأفكار السوداء تنتابني، ثم غبت.

وجدتهم يعصبون عيني، الفتى نفسه يضحك عالياً قـد تحول عمـلاقاً رهيبـاً. لم أعد أرى شيئـاً. قادني الفتى وهـو يسخر مني قائلاً: أيها العميل. . اليوم نهايتك. . سأقتلك بيدي.

ربطوني بجذع شجرة. قال لي الفتى: قل. . ما هي أمنيتـك الآن قبل أن أقتلك. .

قلت له: أريد أن أرى زوجتي وولدي. .

قال: حسناً.

رفعوا العصابة عن عيني فإذا بي في ساحة واسعـة، مقيّد إلى جـذع شجـرة يـابس. أجلت الـطرف، هـا هي أمنيـة إلى جـانب أبو الجماجم بقامته الضخمة، كان يعـانقها، بينمـا التصق كل من ولـدي به. كـدت أصرخ، لكن صـوتي كان مختنقـاً. وتلفت هنا وهناك، رأيت أبو محمـد ينظر إليّ بغضب. أدركت أني مـذنب، وأنني خنت هؤلاء الذين أحببتهم.

إقترب الفتى مني قائلاً:

ـ والآن. .

هـززت رأسي متحسراً. مـا الفائـدة. . الجميـع تخلوا عني، واشتقت للمـوت. أردت أن أمـوت على عجــل. ورأيت جـوزف يتساقط إلى جانبي. رأيت نظراته تـرمقني بحزن شـديد. شعـرت بالأسى، قلت: جوزف. . ها أنا قادم إليك. وقلت للفتى: أريـد أن أذهب. لكن الفتى العملاق ظل ينظر نحوي بشماتة ثم اقترب مني وحَشَـا فمي بالقـطن. أصبحت عاجـزاً عن الحـركـة. يـداي مقيـدتـان بجـذع الشجـرة، كـذلـك صـدري وجسمي كله. كنت

مشدوداً إلى جذع الشجرة بقسوة، وأحسست أنني أختنق. . ردد الفتى أمامي ثانية:

ـ الآن. .

رجوته بنظراتي أن يعجّل.

لم يعصب عيني هذه المرة، تراجع إلى الوراء حتى أصبح إلى جانب أبو الجماجم، ثم أخرج من وراء ظهره مسدساً ضخماً يشبه المدفع الرشاش، راح يطلق باتجاهي النار، رأيت الرصاصات تتقدم مني بطيئة، ثم تصطدم بجسدي فينفر الدم حاراً ويسيل. تمنيت أن أودع أمنية وبسام ولينا بنظرة عاجلة، رأيتهم يضحكون، فيما كانت أصابع أبو الجماجم الضخمة تداعب شعر أمنية. أما ولديَّ فقد التصقا به كما كانا يلتصقان بي في الملجأ أو في الممر عندما يشتد القصف في الخارج. أردت أن أمت على عجل. ولم أمت. لكن مسدس الفتى ظل يطلق النار، وظل الرصاص يتجه بطيئاً بطيئاً. . الدم يتفجر في جسدي كالنبع، حتى صار ما يشبه البركة حولي، وارتفع الدم كنهر يفيض، وبدأت أغرق فيه. . ولم أكن وحدي الذي يغرق، بل توسعت البركة لتصبح بحيرة من الدماء. غمرتني وغمرت أبو الجماجم وأمنية والأولاد، وأبو محمد وأبو الطيب وريتا، وكل الناس الذي أحببتهم. . الدماء. . الدماء، تحولت البحيرة بحراً يتموج بالدم، فإذا بيروت كلها تغرق، لا أحد ينجو. الشوارع. الأسواق. الناس. السيارات. وظل مستوى الدم يرتفع باستمرار حتى غمر الجبال المحيطة، والوديان الخضراء. وكنت وحدي أرى هذا المشهد. ولم أمت.

لم أمت، الجميع يموتون. . وأنا لم أمت. أردت أن أصرخ

على أمنية. . تدفق الدم من فمي. . ورأيت يدها فوق سطح الدم كأنها تريد أن ينجدها أحد ما. . حـاولت. . لكنني ما زلت مقيـداً بكل أثقال العـالم. صرخت. . ولشـدة صرختي خـرج القطن من فمي. . نـاديت على ولديّ، لم أستبن مكـانهما. . لا أبـو الطيب ظهر، ولا ريتا، ولا أبـو محمد. . الكـل غمرهم الـدم. إلاّ أنا. . إلاّ أنـا يا ربي. . أريـد أن أموت. المـدينة بـأسرهـا تمـوت أمـام عيني. . لماذا ما زلت حيـاً؟ لماذا مـا زلت محكم القيد إلى هـذا الجذع اليابس؟

قـويت رائحة الـدم. رائحة تـزكم الأنوف. ثم بـدأت أسمـع عواء يشبه عواء الذئاب، صراخـاً كصراخ الـوحوش التي تـلاحقها النيران. لكن كل شيء كان شديد الحمرة، حمرة داكنة أميـل إلى اللون البني الباهت. . ثم تتحول إلى سواد. . ولم أمت.

بدأ بحر الدم يمشي إلى أن بلغ صخرة الروشة. رأس بيروت الصخـري المشدود كـالعملاق وسط البحـر. . غمر بحـر الـدمـاء البحر الأزرق، وسرعان ما اصطبغ بلون الدم. لكن الصخرة ظلت مشرئبة بعنقهـا مشدودة إلى أعلى. . وكـذلك، ظللت أنـا طافيـاً، أرى هـذا المشهـد ولم أمت. فصـــرت أبكي. . أبكي. . وأرجـو الرب أن يميتني. . أن يخنقني بالدماء التي خنقت المـدينة. . إلاّ أن صوتاً كالرعد صرخ بي جهوراً من كل زوايا الأرض:

الدم. . الدم. هذه مدينة ستغرق بدماء أبنائها. . فكن شـاهد العصر أيها الشهيد. . كن شاهد العصر.

* * *

الفصل السادس عشر

كيف عرفت أنه الصباح؟

من صوت انثوي استغربت وجوده في السجن. في البداية حسبت أنني أحلم.

سمعت طرقاً خفيفاً على الباب الحديدي، ثم ذلك الصوت الأنثوي:

ـ تفطر.

فتحت عيني مندهشاً، ومرهفاً السمع: «هل صحيح ما سمعته؟ إنه صوت أنثى، أنثى حقيقية. أم أنا في حلم؟ ومن جاء بهذه الأنثى إلى هذا السرداب العميق الذي تأنف الجرذان عن الحياة فيه؟ أغمضت عيني مجدداً. لا. . أنا أحلم. . أنا أحلم.

مرة ثانية سمعت الصوت أكثر وضوحاً، دافئاً وحنوناً؟

ـ تفطر.

يا إلهي كم أنا جائع. جائع حتى الموت، ومتعب. لم أتناول طعاماً منذ اختطافي، كنت أعاني من انهيار وخوف وشعور بالانتهاء. فما عدت أتذكر الجوع والخبز والزيتون. . ما عدت أتذكر فطور الصباح على شرفة بيتي مع زوجتي وأولادي. والآن كم أنا بشوق إلى كأس شاي وكسرة خبز وحبة زيتون. وتكرر الصوت أكثر حناناً:

ـ يا أخ.. تفطر.

وسمعت صوتي يجيب كأني في آخر الدنيا.

ـ نعم.. نعم.. أنا جائع.

فأجابني الصوت الأنثوي:

ـ انتظر.

ناديت:

ـ لكن.. أريد أن أخرج إلى المرحاض.. أرجوكم.

مرت دقائق قبل أن يفتح الباب، الظلام قوي، إلاّ أنني سمعت صوت رجل يقول لي: تعال.

أمسك بيدي، وقادني بضع خطوات، ثم أشعل لي عود ثقاب، فلمحت وجهه عبر خيط ضئيل من النور، لم أتبين ملامحه جيداً، لكنه قال لي بلهجة عادية:

ـ هنا المرحاض.. أدخل.

وأعطاني عود الثقاب المشتعل، واكتشفت أن المرحاض حفرة في الأرض، ذكرتني بمراحيض البيوت القديمة، ولا أدري كم بقيت مقرفصاً، أحاول إخراج ما في معدتي. كان عود الثقاب قد انطفأ، فتلمست إبريق الماء حتى أمسكت به.

خرجت بعد قليل، فإذا بثلاث شمعات تضيء الممر. رأيت الرجل جيداً، فرجوته أنني أريد غسل وجهي، فقادني إلى مغسلة جانبية. وجدت بالقرب منها ثلاثة رجال، بدوا مثلي، مساجين، أحدهم كان يتوضأ والأخران ينتظرانه. سألت الرجل القريب مني:

ـ هل أنت سجين؟

ضحك وقال:

ـ كيف تراني.. سجيناً.. أم سجاناً؟

بالفعل هناك فرق واضح بين السجين والسجان. الرجل متعب، وملامح اليأس مرتسمة على وجهه بعمق. سألته:

ـ منذ متى أنت هنا؟

قال:

ـ أوه.. منذ ثلاثة شهور.

ـ ماذا كانت جريمتك؟

كان الرجل سيحدثني، أحسست أنه مثلي بحاجة للكلام مع أي شيء، لكن السجان اقترب منا وصرخ بنا:

ـ كفّا عن الثرثرة.

فسكتنا.

جاء دوري، فغسلت وجهي كثيراً، دعكته بالماء. يا لنعمة الماء، إنه البركة الحقيقية. غسلت يدي، رأيت سواداً نزل منهما. أخرجت قدمي من الحذاء، وغسلتهما. لم أجد شيئاً أجفف به الماء سوى منشفة وسخة جداً، معلقة إلى جانب المرآة.. ها أنا أرى وجهي.. يا إلهي.. هل هذا أنا؟!

لا.. لست أنا، وتلفت حولي، ورائي، ليس سواي أمام المرآة.. إذن.. هذا أنا!

رحت أحدق إلى المرآة، شعر ذقني استرسل. وجهي صار شاحباً ومريضاً لامست شعري بيدي، إنه دبق ومزيّت. فوضعت رأسي تحت الحنفية وتركت الماء ينسفح على رأسي وعنقي. لكن السجان صاح بي أخيراً:

ـ كفى.. كفى.. هل تعتقد أن عندنا نبع ماء، إفرحوا أننا نوفر لكم الماء.. إبتعد. أترك مكانك لغيرك.

ابتعدت. ثم انتبهت إلى أن صفاً من المساجين كانوا

ينتظرون دورهم، أردت أن أتحدث مع أحدهم. لكن الرجل أبعدني وقادني إلى زنزانتي وهو يلقي عليّ التعليمات:

ـ في الصباح المرحاض وغسل الوجه.. ثم الفطور.. ظهراً الغداء.. مساء العشاء.. مفهوم..

وأغلق الباب خلفي.

شعرت ببعض الارتياح، لكن القلق عاودني من جديد، ربما أبقى طويلاً هنا.. ألم أسأل أحدهم وقال أنه هنا منذ ثلاثة شهور؟ إذا لم يسأل عني أحد.. إذا لم يعرفوا أين أنا؟ سأدفن هنا حياً.

وفجأة، دخل نور ضئيل إلى الزنزانة. فانتبهت إلى كوة صغيرة وسط الباب انفتحت لأسمع الصوت الأنثوي مجدداً:

ـ اقترب.. خذ كأس الشاي.

مددت يدي، سرعان ما أحسست بقشعريرة وأنا ألامس اليد التي تحمل الكأس.. أخذتها. قال الصوت:

ـ خذ.. هذه قطعة جبن وقطعة خبز.

وضعت كأسي على الأرض، وتعمدت هذه المرة أن ألمس يد صاحبة الصوت. فعلت بحذر. يد ناعمة خشنة في آن. ظاهرها ناعم وأناملها قاسية نوعاً ما، وسرعان ما تركت بين يدي الخبز والجبن وأغلقت الكوة الصغيرة، فساد الظلام مجدداً. تناولت كأس الشاي الساخن ورحت أرتشفه بلذة وأنا أقضم باليد الأخرى الخبز والجبن.

ما أن أنهيت فطوري حتى سمعت الطرق الخفيف ذاته على باب الزنزانة. والصوت الدافىء يسأل:

ـ خلصت.

ـ نعم.

فتحت الكوة وهي تقول: هات الكأس.

ومـرة أخرى تعمـدت أن تصطدم أنـاملي بأنـاملها، فـأخذت الكأس، وأغلقت الكوة..

ما الذي أتى بهـا إلى هذا السجن؟ لعلهـا تخدم هنـا.. هل هي موظفة.. تبقى سـاعات ثم تخـرج.. من أسأل؟ من أسـأل؟ من يعرف ويقول لي الحقيقة.

وانتبهت إلى أنني أكلت كـل الجبن، وكل الخبـز، وشـربت الشاي كله. كيف استطعت أن أفعل ذلك؟ لا أدري.. وتـذكرت أمنية وبسام ولينا. أنا متأكد أنهم لا يفـطرون ولا يتغدون.. كيف يـأكلون ومصيري مجهـول؟ لكن الأكل في النهـاية يصبـح حاجـة ضرورية مثل الهواء. واستغربت كيف صبرت كل هذه الأيـام دون طعام، دون ماء، ودون خروج إلى المرحاض. هل لأن كـل شيء لم يكن عـادياً؟ هـل هو تغيير الجـو والنمط اليـومي في الحيـاة؟ ربمـا.. ربما. كنت مـريضاً ودائخـاً. ها أنـا الآن أكثر تمـاسكاً، إنني أستعيـد كامـل وعيي، أستعيـد صبـري، أستعيـد رغبتي في الحيـاة. لا يمكن أن أستسلم. سـأنـادي عليهم، سـأصـرخ فيهم لماذا أنا هنا؟ يجب أن يقولـوا لي ما هـو الجرم الـذي ارتكبته.. ماذا فعلت؟ إنني بريء من كل هذه التهم.. أيمكن لهذا الواشي القـذر أن يكون بـلا ضمير إلى هـذا الحد؟ كنت أعتقـد أن لـدى النـاس دائماً حـداً أدنى من الضمير يتحـرك إنسـانيـاً ضـد الـظلم والاستبداد واقتناص الناس بدون سبب.. فهل يمكن لكاتب تقرير أن يبني تقـريـره على أكـاذيب؟ لا أدري.. لا أريـد أن أصـدق ذلك.

وأستعرض بسرعة كل علاقاتي بجيراني، أحبهم جميعاً، الحرب صقلتنا، جعلتنا أقرب إلى بعضنا. صرنا ما يشبه العائلة الواحدة، نحس بالمسؤولية تجاه بعضنا بعضاً نأكل معاً، نلعب الطرنيب وطاولة النرد. وعندما عادت زوجتي من لندن زارها الجميع، عزوها بوفاة أمها. وسمعوا منها معاناتها في لندن، ومعاناتها في المركب البحري وهي قادمة من لارنكا إلى صيدا، كانوا متعاطفين معها. بل أن أم ابراهيم بكت عندما حكت أمنية حكاية المركب والقراصنة الإسرائيليين. وكم كانت تكرر على سمعنا أثناء رواية الحكاية: يا عيب الشوم على العرب.. يا عيب الشوم.

واستعرضت أصدقاء آخرين كانوا يزورونني بين الحين والآخر عندما يكون هناك قرار لوقف إطلاق النار. زهير. ومحي الدين. وعوض.. لا.. لا ليس واحداً من هؤلاء.. ليس واحداً من هؤلاء.

انشغلت أفكاري بعد ذلك بأبو توفيق.. لا بد أن يكون أبو توفيق.. وتذكرت أنه كان دائماً كثير الأسئلة: من هتف لك اليوم؟ وكنت أجيبه: السيدة ميشلين.. ويسأل: وأين تقيم السيدة ميشلين؟.. إنها تقيم في الرابية؟ ويسأل أمنية: ومن رأيت في لندن يا أم بسام؟ وتقول له: ما رأيت غير الضباب والغيوم.. والدموع.. لعن الله تلك الأيام.

هل يمكن أن يكون أبو توفيق؟.. إنه أبو توفيق.. أبو توفيق نفسه.. يا قذر.. كيف تفعل بي ذلك؟ وها هي أمنية الآن تحت رحمته. نافذة بيته تطل على شرفة بيتنا الداخلية، لا بد أن يكون هو؟ ولكن.. لماذا هذا الظلم أيها القذر؟

استلقيت على السرير ودوامة من الأفكار تتضارب في رأسي.

لكن أملي كان أن يفتح الباب عليّ فجأة ويطلق سراحي بعد أن يتبيّن لهم الخطأ الذي ارتكبوه. كنت مؤمناً أن الظلم لن يستمر طويلاً وأنا مظلوم. أنا مظلوم.. مظلوم.. وكادت الدموع تنفر من عيني، فتماسكت.. حاولت أن أسد المنافذ على أفكاري. أردت أن أعطل ذاكرتي، وتمنيت لو كان لعقلي مفتاح لأغلقت عليه كل أقفال الدنيا.

ولعلني، بعد ذلك نمت، كم أنا بحاجة إلى النوم. أنام فتنتابني الكوابيس المرعبة، متلونة بأشكال مختلفة، وأحس أن صدري تحت وطأة جسم قاس، وخانق، فأتمنى لو أصحو، أشعر بحالة غريبة أشبه باليقظة النائمة.. أشبه بالحلم، والكابوس يطأني بقدميه الغليظتين ويضغط ويضغط.. أحاول الخلاص، أحس كأنني أصرخ بملء الصوت.. وأصرخ. لكن كل الذين حولي لا يسمعون، يتجاهلون هذا الاختناق الفاجع.. ثم أنتفض كمن ينتفض من سكرة الموت، فأجد نفسي مبللاً بالعرق. أرتجف. أتلفت حولي. فأشعر كأنني نجوت من الاختناق تحت ألف طن من التراب.

والصوت الأنثوي يعيد لي بعض الطمأنينة:

ـ تتغدى.

حان إذن موعد الغداء، فاقترب من الباب ممازحاً صاحبة الصوت:

ـ ماذا هو طعام الغداء اليوم.

فيجيبني الصوت الأنثوي:

ـ طعام زين.. لا تخف يا خوي.. أنا التي تطبخ لكم

الطعام.

وتنبىء لهجتها كما لو أنها بـدوية.. ليست من أهـل المدينـة بالتأكيد، لهجة بدوية محببـة، لعلها من عـرب وادي خالـد.. أو عرب المسلخ.

ـ والله. أنا جائع يا ست.

ـ قل لي عايدة يا خوي.

ـ عايدة: هذا اسم جميل.

ـ أنت على العين والرأس.. تنتظر شوي.

سأنتظر بالطبـع، فأنـا جائـع، وطعام تصنعـه امرأة، لا شـك سيكون طعاماً طيباً.

تفتح كوة الباب الحديدي وصوت عائدة يصل دافئاً:

ـ خذ يا خوي..

تنـاولت الصحن وأنا ألامس اليـد الـدافئـة هـذه المـرة لفتـرة أطول. وسرعـان ما سحبت يـدها.. أردت أن أجـذبها للتحـادث معي.. فقلت لها:

ـ يا ست.. ماذا في الصحن؟ إنني لا أراه جيداً.

قالت:

ـ لا تخف. كل.. وادع لي.. سآتيك بالخبز.

وناولتني بعد لحظة رغيفاً طازجاً.

قلت لها مازحاً:

ـ ألا يوجد ملعقة أو شوكة..

ضحكت، لرنة ضحكتها إيقاع خاص. ثم قالت بصـوت ذي بحة مثيرة:

ـ شو فاكر حالك بأوتيل.. أنت في سجن يا خوي.

ثم أغلقت الكوة.

تلمست طريقي إلى طرف السرير، وضعت صحن الطعام في حضني، إنـه صحن من الكرتـون المقوى، رحت آكـل، حقاً إنـه طعام لذيذ، اللحم فيه أكثر من الخضار المؤلفة من بندورة وبصل وقطع من البطاطـا، طعام سـاخن التهمته بسـرعة، وغصصت.. أريد ماء. كيف أتصل بعائـدة؟ هل أصـرخ.. وقفت وتقدمت من باب الزنزانة وطرقته عـدة طرقـات. سمعت خطوات تتقـدم.. ثم سمعت الصوت الأنثوي:

ـ نعم.. يا خوي.

قلت:

ـ أرجوك.. أريد ماء.

قالت:

ـ تكرم عينك..

وجـاءتني بـالمـاء، أمسكت بيـدهـا بكلتـا راحتيّ، أحسست بوجيب قلبها ينتقل إلى شراييني، ظلت برهة وأنا أضغط على اليد الدافئة براحتي، لم تنفر مني هذه المرة.

ظلت تـاركة يـدهـا بين كفي دون أن ينبـو عنهـا أي تـذمر، داهمتني سعـادة صغيرة في هـذا السواد المـدلهم. وأخـذت منهـا الكـأس، فـأغلقت الكـوة، شـربت، وأكلت، وشبعت، ثم رحت أصلي للرب أن ينقـذني ويعيـدني إلى أسـرتي، إلى بيتي، فقـد شعـرت هذه اللحـظات بشوق عـارم إلى أمنيـة وحنـانهـا، لبسـام يلاكمني ويتطاول كي يلكمني على ذقني، للينا وهي تلح عليّ أن أروي لهـا حكايـة أو آخذهـا إلى البحر، كـانت تحب السبـاحـة، وعندما صار عمرها تسعة أعوام صارت تسبـح كالسمكـة. اشتقت

للتسكع على كورنيش المنارة، اشتقت لفنجان قهوة عربية أتناولـه على شاطىء البحر، للأصدقاء ترتفع أياديهم بـالتحيات. فـوقفت ورحت أزرع المسافة القليلة من الزنزانة بخطواتي جيئة وذهاباً إلى أن سمعت مجدداً الطرق على الباب والصوت الأنثوي يداعبني:

ـ أخوي.. هل شبعت؟

قلت:

ـ اي والله يا ست.

قالت:

ـ هات الصحن والكأس.

وفتحت الكوة، وهذه المرة خطفت الصحن والكـأس من بين يدي خطفاً وهي تخاطب شخصاً آخر:

ـ اهلاً أخوي أبو أكرم.. والله اشتقنا لك..

وأدركت سبب هـذه الحركـة، إنه أبـو أكرم، لعله جـاء يطلق سراحي.. يا رب.. يا رب.

وسمعت صوت أبو أكرم يقول:

ـ شو.. يا عايدة.. هل طبخت أكلاً طيباً؟

ـ اي والله يا خوي.. إسأل المساجين..

ـ حسناً.. هاتي لي طعاماً من بين يديك.. فأنا جائع..

ـ تكرم يا نور عيني.

ولم تنس عـايدة أن تغلق عليّ الكـوة الصغيرة، فسـاد الظلام مجدداً.

جلست على حافة السرير، وخـطرت لي فكرة عـاجلة فقمت إلى الباب ورحت أدق عليه، أجابني صوت أجش:

ـ ماذا بك؟

قلت:

ـ أريد أبو أكرم.

ـ وماذا تريد من أبو أكرم؟

ـ لأمر هام جداً.

ـ ما عندنا هنا أحاديث هامة.. قل لي ماذا تريد.. وأنا أقول له..

ـ يا أخي.. أريد أن أقول له أنني مظلوم.. ولم أفعل شيئاً.. ولماذا أنا في هذا السجن.

ـ أسكت.. أسكت.. كلكم تقولون ذلك.. كلكم تقولون أنكم أبرياء.. على كل حال.. نحن ليس لنا دخل. إذا أرادوا الإفراج عنك سيفرجون.. لا أبو أكرم ولا أنا لنا دخل في الموضوع. نحن هنا فقط لنجعل إقامتكم معقولة.

ـ ولكن..

إلّا أن خطوات الرجل انبأتني أنه ابتعد.

وساد الصمت، فعدت إلى خطواتي أدب فيها على أرض الزنزانة.. السقف ما زال يرشح قطرات من الرائحة النتنة، والأفكار المتضاربة تكتسح دماغي بما يشبه المسامير.

هل أستسلم لهذا المصير؟ الآخرون ما ذنبهم.. ماذا فعلوا؟ من حقق معهم؟ لا شك أنه أبو الجماجم.. وتذكرت أبو الجماجم وحركاته وإشارته.. كدت أضحك هذه المرة، شخصية طريفة تشبه أفلام الكارتون. تذكرت كيف كان يتصرف معي.. واستغربت اختيار مثل ذلك الرجل ليكون محققاً.. أم أن هناك محققين آخرين.. وكنت أنا وحدي، لسوء الحظ، من نصيبه؟

راحت الذاكرة تمد أمامي شريطها الطويل. تذكرت ما لم يخطر على بالي من قبل. تذكرت المدرسة، والطفولة، وفريق كرة القدم الذي أسسناه في حارتنا القديمة يوم كنا أولاداً، تذكرت حبي الأول لفتاة ماتت بالسل. وكيف كنت أذهب إلى قبرها كل يوم وأضع وردة بيضاء عليه وأبكي. كنت ألقاها في الطريق ونحن ذاهبان إلى المدرسة نتسامر حتى نفترق كل الى مدرسته. . ربما كنت في الثالثة عشرة من عمري. كانت نحيلة بيضاء. شعرها أسود فاحم وطويل تعقصه بضفيرة واحدة تتركها مسترسلة على ظهرها. عيناها سوداوان واسعتان. كانت تمشي كما لو أنها سنبلة تمشي على قدمين، وفي يوم ما، غابت عني ولم أعد أراها لعدة أسابيع، اعتقدت أنها تركت المدرسة، أو انتقلت إلى مدرسة أخرى، أو سافرت. وتجرأت ذات مرة وسألت رفيقة لها عنها فدمعت عيناها وقالت: ماتت. . كانت تعاني من سل في الرئتين. وكأن خنجراً غاص في قلبي. أحسست هذه اللحظات أنه يغوص مرة ثانية وأنا أتذكرها. سألت صديقتها أين دفنت، فقالت لي اسم المقبرة، وفي اليوم التالي زرت المقبرة، رحت أقرأ شواهد الأموات شاهدة شاهدة وأنا أضع علامة على كل شاهدة قرأتها إلى أن عثرت على قبرها الرخامي الجميل وعلى اسمها المنقوش في الرخام: ابتسام مهنا، ولدت عام ١٩٤٠ وانتقلت إلى رحمة ربها عام ١٩٥٢. وصرت أزور المقبرة كل يوم وأبكي. أحمل زهرتي البيضاء وأضعها في ثغرة الشاهدة. أجلب لها ماء حتى تبقى نضرة إلى اليوم التالي. ثم تباطأت زياراتي إلى المقبرة كلما كبرت يوماً، إلى أن انقطعت عن هذه الزيارات. لكن وجه ابتسام ظل داخل أعماقي كالندب. تستيقظ ذكرياتها كلما اشتدت عليّ

وطأة الحياة.

لماذا لم أرو هذه الحكاية لأبو الجماجم؟

لو رويتها له لرق قلبه لي. أو كان سيسألني:

كيف تعشق بنتاً لم تمش معها إلاّ مشوار المدرسة؟ أنا نفسي في هذه السن الآن قد أسأل هذا السؤال. . لكن من يعرف أحاسيس ابن ثلاث عشرة سنة إلاّ من هو في مثل هذا العمر؟

كم مضى على هذه الحكاية؟

يا الهي. .

كأنني أسمع رنين خطواتها وهي قادمة. فالتفت لأراها تبتسم لي، أتظاهر أنني أتلكأ بالمشي حتى تقترب مني، وأنا في الواقع أنتظرها فعلاً إلى أن تصبح بجانبي:

ــ صباح الخير يا ابتسام.

كنت أحب اسمها، حتى أنني أطلقت على ابني بعد عشرين عاماً اسم بسام. . وكنت سأطلق إسمها على ابنتي لينا، لولا إصرار أم زوجتي على إسمها الحالي. . لكنني لم أفكر وقتذاك أبداً عن سبب تلك الابتسامة الشاحبة التي لم تكن تفارق فمها. ربما عشقتها بسبب تلك الإبتسامة التي كانت تزيد من جمالها، ولم يخطر ببالي قط أنها ابتسامة الموت، ابتسامة من كانت تعرف أنها راحلة. هل كانت تعرف وتدرك وهي بعد في الثانية عشرة من عمرها؟

والشريط استمر في التدفق أكثر وضوحاً، كأنني أمام شاشة سينمائية سجلت بدقة كل تفاصيل حياتي، وانتبهت إلى أن الأحزان كانت كثيرة والفرح كان قليلاً، كانت الأحزان سواداً مستمراً، وكان الفرح وردة قصيرة العمر.

وطغى ظل أمنية أخيراً على كل هذه الذكريات. جاءت تنتشلني من البئر الخاوية، التقيتها وأنا في الثلاثين، وانفتح لها قلبي منذ اللحظة الأولى، كان ذلك في أمسية شعرية. ورحت أحيك حولها خيوطي عندما عرفت أين هو بيتها أين هي مدرستها ومن هم أهلها. كانت تتردد مثلي على الأمسيات الشعرية، وسرعان ما عرفت أنها تكتب محاولات في الشعر، وتهتم بالفن التشكيلي، وتحضر المسرح. فأحكمت الخيوط، إنها هي المبتغى، وحدثت اللقاءات، وصرنا نتعرف على بعضنا أكثر فأكثر، ومع كل لقاء ازداد إعجاباً بها، وقالت لي فيما بعد، أنها هي أيضاً كانت تشعر هذا الشعور. وتوطدت علاقتنا شهراً بعد شهر.. وإذا بنا عاشقين، ثم زوجين، ثم والدين.. ورحيل إلى بيروت؟

من كان يفكر أن بيروت الستينات والسبعينات ستصبح بيروت هذه الأيام، بيروت القتل، والسبت الأسود، والقناصين، والاغتيالات والسيارات المفخخة، والقتل على الهوية، والخطف، والفرز الطائفي، ودويلات الحارات، والجيوش الطائفية؟

ها أنا في زنزانة لا أعرف مصيري.. لا أعرف ماذا يحدث بعد لحظة.. أو ماذا يحدث في الغد؟

وينجدني الصوت الأنثوي فجأة من هذه الأفكار المتضاربة بكلمته الطيبة:

ـ تتعشى.

يا إلهي.. هل جاء الليل؟ وهل صار وقت العشاء؟ ما الفرق، الظلام هو السيد في هذا المكان.. وأجبت:

ـ نعم.. أتعشى..

بعد لحظات فتحت الكوة بصحن آخر من الكرتون المقوى يمتلىء بطعام ذي نكهة ورائحة شهية وقوية.. وأمسكت بالصحن واليدين معاً، فانفكت احدى راحتيها وعانقت بها كفي الممسكة بالصحن. مرت لحظات خلتها حلماً. أخذت تحرك أناملها ببطء فوق يدي. فأحسست شعيرات جسدي تنهض من سباتها. كان صحن الطعام بين أكفنا الأربعة كأنه استراح بين وجيب قلبين لا يرى كل من صاحبيهما وجه الآخر. بل كدت ألامس تدفق دمها في شرايينها، ثم راح صوتها يردد متحرجاً سعيداً في آن:

ـ كل.. كل.. ستأكل طعاماً طيباً يا خوي. وببطء شديد، حاولت أن تسحب أناملها من بين راحتي، بينما كنت أضغط عليها بكل أشواقي إلى أنثى، إلى الحرية، إلى الخروج إلى الهواء الطلق.. إلى العودة سالماً، إلى أمنية، إلى غرفتي وفراشي، إلى دوش الحمام وأدوات الحلاقة، وإلى أغنية لفيروز يترنم بها راديو البطارية، إلى الجريدة الصباحية، إلى منقوشة زعتر ترسلها لنا أم ابراهيم، إلى قفشات أبو زهير وصراخه اليومي: اضرب.. أو عالتمر، إلى نبيل وأسعد إلى أبو علي وأبو طالب، إلى أبو زياد.. إلى الحي بأكمله، إلى أبو الطيب وريتا، إلى أبو محمد.. أين أنت يا أبو محمد؟ عساك بخير..

واشتقت أن أرى وجه صاحبة هاتين اليدين، عايدة، البدوية التي أرسلها الله لي في هذا القبر لتبدد قليلاً من وحشتي وأشواقي وضغط الذكريات الراحلة، لتشيع شيئاً من الدفء في هذا السرداب الرطب الخانق.

هل تعامل بقية السجناء مثلي؟ لعلها حنون مع الجميع..

هل تدرك كم نحن مستوحشون؟ كم نحن يقـظون على اليأس في هذا القبر الجماعي؟ أم أن هذه المعاملة تخصني بها وحدي.

ماذا أعرف عنها؟

حتى الآن لا شيء، سوى لهجتها البـدوية. سـوى هـذا التعـاطف السـريـع بيني وبينهـا.. أم أنني أتخيـل أشيـاء ليست موجودة.

ورحت أرسم لها في ذهني صورة جميلة، صوتها ينبىء على أنها شابة، لكن خشونة يديهـا تنبىء عن المعانـاة، عن الاحتكاك اليومي بلقمة العيش والغسيـل والوحـل والجمر. إلاّ أن في تينـك اليـدين الدافئتين مشـاعر إنسـانية حقيقيـة، في رائحة عـرقهما مـا يفوق كريستيان ديور ودافنشي وكل عطور العـالم.. ومن ملامستي لهمـا أدركت أنها تميـل نحو البـدانة، وتخيلت وجههـا الأسمر لا تخفي المساحيق تقاطيعـه، إنني أراه جيداً بحـدسي وقلبي. وجه صـاف. جمـال صـاف. عينـان سـوداوان واسعتـان. شعـر أسـود فاحم. إنها صفات البدوية الجميلة، راعية الغنم، سـاكنة الخيـام والتي تلوحها شمس النهار في الجبال والوديـان وعلى الشواطىء، وحيث يـوجد مـرعى، جمـالهـا طبيعي، لم يتلوّث بكـل مـظاهـر المدينة الخـادعة. بـل خيّل إليّ كـأنني أجلس معها تحت خيمـة بدوية في الجرد، أو على أطراف عكـار، أو بعلبك، أو الهـرمل. حيث مئـات من بيوت البـدو هناك، فمـا الذي جـاء بها إلى هـذا القبر؟ هذا السجن الأسود الرطب الخانق؟

وبينما كانت هذه الأفكار تنتابني، سمعت طرقـاً على الباب، ثم فتحت الكوة وجاء صوتها هذه المرة، هامساً، مقتضباً.

ــ اقترب.

فاقتربت.

وهمست بصوت خافت كأنه حفيف الشجر في فسحة عابرة:

ـ خذ.. هذه البرتقالة.. قشرتها لك لتبل بها قلبك.

بـادىء ذي بدء لم آخـذ البرتقـالة، انحنيت بسـرعة ولامست بشفتي يدها الممسكة بالبرتقالة، فجاءني همسها المرتجف:

ـ استح يا خوي.. استح.

وأخذت البرتقالة، وبللت بها قلبي وإحساسي وفمي..

ونمت تلك الليلة نوماً هانئاً وطويلاً.

* * *

الفصل السابع عشر

استيقظت على حركة وضجيج في الخارج، ربما كان الصباح، من كان يعرف؟ لكن خيوطاً من النور قوية تسربت إلى داخل الزنزانة، وانتبهت إلى أن ثمة نافذة صغيرة مشبكة بالحديد تقع فوق باب الزنزانة وقريبة من السقف، وعبرها، تشكلت على الجدار المقابل بقعة ضوء قوية، فأدركت أن الكهرباء المقطوعة منذ أيام طويلة عادت للإشتعال، هذا يعني أن المعارك بين الأطراف المتقاتلة قد خفت حدتها، مما سمح للفنيين بإصلاح الأعطال.

كان الضجيج خارج الزنزانة يعبر عن فرح ما، ثم سمعت صوتاً قريباً يسألني ويداً تدق الباب:

ـ من أنت؟

لم أدر بادىء الأمر.. فمن هو أيضاً؟

وكرر الصوت السؤال:

ـ يا نزيل الزنزانة ٩، أسألك من أنت؟

فأجبته:

ـ بل قل من أنت أولاً؟

أجاب:

ـ أنا سجين مثلك.. وأحب أن أتعرف عليك..

قلت:

ـ حسناً.. أنا فلان.

قال:

ـ والله أسمع بك.. وأقرأ لك.. ما الذي أتى بك إلى هنا؟

قلت ممازحاً؟

ـ هو نفسه.. الذي أتى بك أنت.

قال:

ـ لقد سمح لنا أبو أكرم أن نفتح لك نافذة الباب.. ما رأيك؟

قلت:

ـ هذا كرم منه.

وفُتحت كوة الباب، فتسرب إليّ نور أقوى، فرفصت في محاولة لأرى ماذا يجري في الخارج، فلمحت بضعة أجساد تتحرك. واحد منها يحمل مكنسة، وآخر سطل ماء.. إنهم يشطفون الممر، لكنني لم أستطع رؤية الوجوه، واقترب أحدهم، وربما نفس الرجل الذي حاورني قبل قليل، وسألني:

ـ ماذا فعلت حتى أتوا بك إلى هنا؟

قلت:

ـ لا شيء.. ولا أعرف الأسباب التي دفعتهم أن يفعلوا بي ما تراه.. ثم سألته؟

ـ ماذا تفعلون؟

قال:

ـ إننا نغسل هذه القذارة يا أخ.. لقد طلبنا من أبو أكرم أن

يسمح لنا بغسل السجن والممر. فقال إذا عادت الكهرباء إلى العمل أسمح لكم. هكذا ترانا نفعل ما تمنيناه.. نريد أن نتحرك، لنا أكثر من شهر ونحن في غرفة واحدة متلاصقين لا نستطيع التحرك.. إننا ستة أشخاص في زنزانة واحدة.

قلت:

ـ أريد أن أعاونكم.. فمن يسمح لي بالخروج؟

قال:

ـ رجونا أبو أكرم أن تشاركنا.. لكنه قال أن هذا ممنوع عليك.. يبدو أنك رجل خطر..

ضحكت وأنا أردد في نفسي «حقاً أنا رجل خطر.. خطر جداً» ثم سألته:

ـ وعايدة أين هي؟

قال:

ـ تقصد البدوية.

قلت:

ـ نعم.

قال:

ـ ممنوع علينا أن نراها.. إنها تختفي عندما نخرج صباحاً إلى المرحاض أو المغسلة.. أو عندما يسمح لنا بتنظيف السجن..

سألته:

ـ وأين تختفي؟

أجابني متخابثاً:

ـ أنت مهتم بها كثيراً.. أليس كذلك؟

قلت:

ـ إنها إنسانة طيبة.. ألا تأكلون من طعامها؟

ـ أوه.. طبعاً.. طبعاً.. ما أطيب طعامها.

ـ وما أطيبها يا أخ.. يقول أبو أحمد أنها سمراء مثل السكرة..

عدت لأسأله:

ـ لم تقل لي أين تختفي؟

ـ إنها سجينة مثلنا يا أخ..

وفيما كان الرجل يحادثني سمعت صوتاً يصرخ به: كف عن الثرثرة.. وإلاّ أعدتك إلى الزنزانة.

بقيت أكثر من عشر دقائق أنتظر أن يعود الرجل إلى مخاطبتي.. وفعلاً اقترب مني صوته هامساً:

ـ هل يعرف أهلك إنك هنا؟

ـ لا..

ـ وهل تريد أن يعرفوا؟

ـ طبعاً.

ـ إذن.. سنحاول أن نخبرهم أين أنت.

اعتقدت أن الرجل يمزح، أو يسخر مني، كيف يمكن لسجين مثلي أن يسرّب خبراً إلى خارج السجن؟ وخشيت أن يكون الرجل مدسوساً ليتآمر عليّ، خصوصاً عندما همس مجدداً:

ـ قل لي ماذا فعلت حتى أستطيع مساعدتك؟

أجبته:

ـ يا أخي.. لم أفعل شيئاً، إنهم حققوا معي في أمور لا دخل لي فيها.

قال:

ـ حسناً. . إذا كان يهمك أن يعرف أهلك أنـك هنا، فنحن على استعداد لمساعدتك.

قلت:

ـ ماذا تقصد بـ «نحن»؟

قال:

ـ نحن نزلاء الزنزانة ٧ المجاورة لك. . أحد رفاقنا مسموح له أن يزوره قريب من أقاربه. وبواسطته سوف نسرّب خبراً لأهلك أنك موجود هنا. . ونسهل عليهم الإتصال للإفراج عنك. .

قلت في نفسي هـل يبالـغ الرجـل؟ وكيف يسمحون لـواحـد منهم أن يـزوره أقاربـه ولا يسمحون لي مثـلاً؟ شككت في مقدرة الرجل على مساعدتي، لكنني تساءلت: لماذا التردد؟

ثم سألته:

ـ كيف تستطيعون تسريب الخبر؟

سألني:

ـ هل عندكم هاتف؟

قلت:

ـ نعم.

قال:

ـ سجله على ورقة. . والباقي علينا.

فضحكت:

قال:

ـ لماذا تضحك؟

قلت:

ـ ومن أين لي الورقة والقلم؟ لقد أخذوا مني كل شيء.
قال:
ـ إذن.. ما هو رقم هاتفك؟
ترددت في الجواب، وخشيت على أمنية، يجب ألا أطمئن.. لا شك أن كل ما يقوله الرجل لا يدخل الرأس وغير معقول.. هل يتقرب مني لغاية ما.. سأبقى حذراً.
عاد يسألني:
ـ أنت خائف.. أليس كذلك؟
لم أرد.. فقال لي:
ـ صدقني.. إننا نريد مساعدتك.
تلمست في صوته نبرة صدق. قلت:
ـ الرقم ٣٤٧٢٦٣.
فأخذ يردد الرقم تكراراً. ثم قال:
ـ لن أستطيع حفظ الرقم ريثما أعود إلى الزنزانة.
ـ ما العمل؟
ـ إنتظر.. سأرى ماذا أفعل.
وابتعد الرجل، فرفصت ثانية أحاول أن أرى ما يجري عبر الكوة المفتوحة على الممر. فرأيت أجساد الرجال متقاربة من بعضها بعضاً وهم يتهامسون. لم أستطع أن أتبين وجوههم، وقفت، والتصقت بباب الزنزانة وأنا أفكر لعلهم يستطيعون فعلاً مساعدتي، المهم أن تعرف أمنية أين أنا، وأن يعرف أبو محمد وأبو الطيب أنني في هذه الزنزانة.. أعتقد أن أحدهم سيقتحم السجن ويخلصني، وكأنني أشاهد شاشة سينما وأنا أتصور مشاهد إنقاذي.

وفكـرت: ربمـا يحـدث صـدام مسلح، معـركـة وإطـلاق رصـاص، كما صـار يحدث دائمـاً كلما حـاول فريق أن ينقـذ من الآخـر سجيناً أو أسيـراً. . لا. . لا. . لا أريد أن يـذهب أحد مـا ضحية لإخراجي من هذا القبر. لا. . لن يحـدث هذا. المهم أن تعـرف أمنية أين أنـا، ولعل الإتصـالات بعد ذلـك تثمر لـلإفـراج عني.

سمعت خطوات تقترب مني. وقال محدثي نفسه:

ـ إسمع يا أخ. . تصرف بسرعة. الآن، كلما سمعت طرقة على الباب تذكر لنا رقماً من أرقام هاتفك بـالتسلسل. . قـررنا أن يحفظ كل واحد منـا رقماً، ثم نجمـع الأرقام في زنـزانتنا ونتصـل بأسرتك. . . بمن تريد أن نتصل؟

قلت:

ـ بزوجتي. .

قال:

ـ ما هو إسمها؟

ـ يكفي أن تقول لها أم بسام.

قال:

ـ يعني أنت أبو بسام. .

قلت:

ـ نعم.

ـ نعم. . هيا إستعد.

وفعـلاً بعـد الـطرقـة الأولى نـطقت الـرقم ٣، ثم الـرقم ٤، فـالرقم ٧، وتبـاعاً: اثنـان، ثم ستة، ثم ثـلاثة، وسمعت صـوت الرجل يخاطبني بسرور:

ـ اطمئن. . لقد حفظ كل منا رقماً. . سنسجل هذه الأرقام ونتصل بزوجتك. . ربما يوم الجمعة. . أو الأحد.

اليوم الأربعاء، يعني بعد يومين أو أربعة أيام وتعرف أمنية أنني ما زلت حياً. . المهم أن تطمئن وتعرف أنني ما زلت على قيد الحياة، قلت للرجل:

ـ أرجوكم. . قولوا لها أنني بخير. . وأنني بصحة جيدة. . وأنني آكل وأشرب، وأنني مشتاق لها.

قال الرجل ضاحكاً:

ـ وهل تريد أن نقول أن امرأة بدوية سمراء تعتني بك؟

ـ كف عن المزاح. . أرجوك يا أخي. .

ـ حسناً. . حسناً. . اطمئن من هذه الناحية.

وصرخ رجل، لعله السجان:

ـ هيا. . عودوا إلى الزنزانة.

وسرعان ما اختفى الضجيج، والتفت لأتأمل معالم الزنزانة التي أنا فيها فلمحت كتابات على الجدران منها مثلاً: إنا لله وإنا إليه راجعون. . و: نحن السابقون وأنتم اللاحقون. كذلك رأيت خطوطاً مرسومة على الجدران وتحتها أسماء لأشخاص، ربما سجلوا في هذه الخطوط عدد الأيام والأسابيع التي قضوها هنا. اقتربت من السرير، البطانية شديدة السواد والقذارة، فقلبتها على قفاها وإذ بي أرى فيها بقعة دم متخثرة. أصابتني رعشة قاسية، ثم تذكرت تلك الروائح التي تزكم الأنف، أعدت البطانية إلى مكانها وأنا أرتجف، كل هذه الأيام كنت أنام على دم. . وكيف أستطيع النوم بعد الآن؟. . كيف أنام وأنا أشعر أنني أستلقي فوق دم إنسان آخر؟ ليت الكهرباء لم تشتعل، لما اكتشفت هذه

الأشياء.

حاولت أن أسترخي فوق السرير، لكن قلقاً كبيراً داهمني. فرحت أصلّي بخشوع إلى الله والأنبياء والقديسين أن ينقذوني ويخرجوني من هذا المكان.

وفيما أنا سابح في هذه الأفكار السوداء، أيقظني صوت رجل:

ـ تفطر؟

يا إلهي، أين عايدة؟ أين صوتها الدافىء وحنانها.. اقتربت من الباب مجيباً:

ـ نعم.. إذا سمحت.

فتحت الكوة، فأعطاني الرجل كأس الشاي والخبز والجبن، أردت أن أسأله عن عايدة، خفت، ربما لو سألت عنها لن أسمع صوتها أبداً.. وعافت نفسي الطعام مجدداً وأنا أتذكر ما رأيت في الزنزانة. شربت الشاي، ولم أقرب الخبز والجبن. وعندما عاد الرجل رجوته أن أخرج إلى المرحاض، ففتح لي باب الزنزانة، كانت الممرات نظيفة هذه المرة، كان كل شيء نظيفاً حتى المرحاض نفسه، ذهبت بعد ذلك إلى المغسلة لأغسل وجهي، رأيت وجهي في المرآة، لقد تحولت إلى شخص آخر. شخص يشبه وحشاً في غابة، ذقني مسترسلة الشعر، شاحب العينين. ولم تمض ثوان حتى طلب مني الرجل العودة إلى الزنزانة، فرجوته أن يأتيني ببطانية غير التي عندي، فسخر مني قائلاً: هل ما زلت تحسب نفسك في فندق؟ أنت في سجن.. ألا ترى أنك في سجن وفي زنزانة منفردة؟ لم أكرر المحاولة، دخلت الزنزانة، أغلق الرجل الباب خلفي. لكنني فوجئت به يرد بصوت خفيض:

ـ سأحاول . . على كل حال.

وبالفعل، عاد الرجل ومعه بطانية نظيفة، أعطاني إياها وأخذ القديمة، سررت وأنا أمدد البطانية الجديدة فوق السرير، إنها نظيفة حقاً، من رائحتها بدت لي أنها غسلت منذ وقت قليل، فما زالت رائحة المنظف تعبق فيها. وتذكرت الرجال الذين نظفوا السجن، والسجان، وعايدة أين منها أوبريت عايدة ـ قلت في نفسي لا بد أن في أعماق كل إنسان مهما طغى وتجبر بقعة ضوء يرقد فيها ضميره، ولعل السجان نفسه يعرف في قرارة نفسه أنني بريء، وأنني ملقى في هذا القبر دون ذنب اقترفته.

وتذكرت عايدة، ربما تركت العمل، أو أفرج عنها. وتذكرت الخطة التي رسمها رفاقي السجناء، يوم الجمعة أو يوم الأحد، ستعرف أمنية أنني ما زلت حياً أرزق، وتخيلت كم ستفرح وتتعلق بحبال الأمل من جديد، ستتصل بأصدقائي ومعارفي وتطلب منهم المساعدة مجدداً. أحسست بانفراج نفسي. رحت أحدق بالزنزانة التي أنا فيها، إنها جزء من سجن حقيقي . . سجن وسجناء وسجانون . . هكذا أصبحت بيروت، بيروت التي اعتقدنا يوماً أنها نافذة على الأفق الفسيح . . وإنها جنة بدون أبواب وأسلاك، وأن البشر فيها طيور وعصافير، الحرية هي الهواء وهي الشمس والبحر والجبل . . هل كنا نحلم . . هل كنا نحلم؟ كانت بيروت القديمة جوهرة، تذكرت أيام عزها. تذكرت ممارستنا الكاملة للحرية التي افتقدناها، تذكرت أنني منذ قدمت إلى بيروت، وعبر سنوات الهجرة الطويلة لم يسألني شرطي سير عن سبب قدومي إلى هذا البلد. لم يطرق بابي رجل مخابرات أو شرطي بلدية . . لم أصطدم بأي من أصحابي وأصدقائي الذين ركنت إليهم طوال

هـذه السنوات. كنـا نختلف في الرأي كثيـراً، لكننا، دائمـاً، كنا ننهي نقاشاتنا بأسلوب ديمقراطي دون تعصب أو صراخ أو شجار. وتذكرت سهراتنا في الدولتشفيتا على الـروشة. صحفيـون وكتاب وفنانون من مختلف الإتجاهات، نتضـاحك ونـروي الحكايـا التي تدخل السرور إلى نفوسنـا، كنت أقرأ لكـل هؤلاء، وأتذكـر كيف كانوا يهاجمون بعضهم بعضاً في الصحف، ومع أول الليـل يلتقي الجميـع على طاولـة واحدة وكـأس واحـد. كـانت بيـروت واحـة ديمقراطية حقيقية في تلك الصحراء الشـاسعة.. أين هي بيـروت تلك؟ هل كنا نحلم؟.. هل كنا نحلم؟

استنـدت بظهـري إلى الجدار ومـددت قدمي فـوق السـريـر مـلامساً بكفي البـطانية النـظيفة التي أستلقي فـوقها، يـا ترى كم سجين نام فوقها وكم سجين نزف فـوق البطانيـة السابقـة. تمنيت هذه اللحظة أن يعود السجّان الذي جلب لي هذه البطانية لأشكره وأقبل يديه، على الأقل أستطيع الآن أن أنام مرتاحاً.

ربمـا غفـوت سـاعـة أو سـاعـات، لا أدري، غفـوت دون كوابيس، ودون خوف، وأمل ينتعش في الفؤاد. كلما طال مكوثي هنا ابتعد عني شبح الاغتيال، فلو أرادوا تصفيتي لفعلوا ذلـك من زمـان. ولما أبقـوني هنا كـل هذه الأيـام.. وازداد إيماني بقـرب اللقاء بأمنية.. يخيل لي أنني أراها عبر هذه النافذة تنتظر أن يفتح الباب لألقي بنفسي بين ذراعيها.. إنني أراها الآن بوجهها النحيل الأسمـر، بعينيهـا السـوداوين الـدامعتين وهي تـرحب بي وتفـرح بي.. أراهما بسام ولينـا، وأهل الحي والأصـدقاء والنـاس الذين أحببتهم، وانتعشت بمزيد من الأمل والارتياح.

وطرق الباب.

من جديد أسمع صوت عايدة:

ـ تتغدّى؟

هل أنا في حلم؟ إنني أسمع صوتها كأنه قادم من أعماق بئر عميقة..

ـ تتغدى؟

إنها عايدة، عايدة نفسها، يا إلهي، وصرخت من فوق السرير؟

ـ أين كنت يا عايدة؟

وسمعت هسيس ضحكتها الهامسة، مثل خفقة أوراق الشجر وراء النسيم، إنها عايدة، يا إلهي.

وقفزت قرب الباب. وفتحت الكوة. أمسكت بيدها مباشرة وهمست:

ـ أين كنت يا عايدة.. أين كنت؟ اشتقت لك..

تركتْ يديها بين يدي وهي تردد هامسة:

ـ استح يا خوي.. استح.

لم أستح، لماذا أستحي؟ أنا سجين، وليس لي غير هاتين اليدين أشعر بحنانهما، أشعر بدفئهما. وتأكدت وأنا أضغط بأناملي على اليدين الدافئتين إنها تهتم بي شخصياً أكثر من كل السجناء، وإنها تتعاطف معي مباشرة..

وسألتها:

ـ لماذا أنت هنا يا عايدة.. لماذا؟

قالت:

ـ أنا سجينة مثلك.

قلت:

ـ هل ارتكبت جريمـة؟ هل سـرقت. .؟ هل اعتـديت على أحد؟

قالت:

ـ لا . . أبداً. . لم أفعل شيئاً. . والله العظيم.

قلت:

ـ إذن. . لماذا أنت سجينة؟

قالت:

ـ لأطبخ لكم الطعام. .

قلت:

ـ لطبخ الطعام فقط؟

قالت:

ـ اي والله. . لطبخ الطعام فقط.

قلت:

ـ ولماذا لا يتركونك تذهبين عندما تنتهين من صنع الطعام؟

قالت:

ـ يخافون. . أن أروي ما أراه هنا، هذا كل ما في الأمر. .

قلت:

ـ لكن هذا ظلم. . ظلم يا عايدة. .

واقترب صوتها خائفاً:

ـ أسكت. . أسكت. . لا ترفع صوتك.

وسألتها:

ـ هل أنت متزوجة؟

ضحكت وقالت:

ـ لا . . يا خوي. . أبداً والله . .

تمنيت أن أتابع محاورتها، تمنيت من كل قلبي أن أسألها ألف سؤال وأن أسمع أجوبتها، من زمان لم أتكلم.. لقد تخشب فمي وتيبست شفتاي، غير أن عايدة تركت صحن الطعام بين يدي سحبت يديها، وهي تضحك ضحكتها الساحرة الدافئة، وأغلقت الكوة.

جلست على حافة السرير، ورحت أتناول الطعام الذي قلما ذقت مثله في حياتي، ولولا أنني في زنزانة ولا أستطيع التحرك بحرية لاعتقدت أنني في فندق من الدرجة الأولى. ثم تذكرت أن أبو أكرم والسجانين الآخرين يأكلون معنا نفس الطعام.. إذن، لماذا لا يكون طعاماً جيداً، خصوصاً وأن عايدة تصنعه بنفسها.

عادت عايدة بعد قليل، وهمست تخاطبني:

ـ إسمعني جيداً، سينقلك أبو أحمد إلى الزنزانة الكبيرة مع الإخوان.. وستتسلى معهم. رجوته أن يفعل ذلك، لديهم الآن سجين جديد سيضعونه في مكانك، ويأخذونك أنت إلى الزنزانة الكبيرة.

سرني الخبر، على الأقل هناك آخرون، سأتخلص بعض الشيء من وحشة هذه الزنزانة المنفردة، وأستطيع أن أفهم شيئاً ما عن مصيرنا.

وبالفعل، فتح باب الزنزانة بعد حوالي ربع ساعة، وقال لي السجان نفسه الذي أعطاني البطانية النظيفة: تعال.

لحقت به إلى الباب المجاور الذي فتحه ثم قال لي: أدخل. وعندما دخلت ضج السجناء بالضحك.. وما أن أغلق الباب خلفي حتى قال لي أحدهم: رسمنا خطة لنحفظ رقم هاتفك.. وها أنت الآن معنا.. على كل حال ما زلنا على وعدنا.

كان في الزنزانة ستة رجال، هم أنفسهم الذين نظفوا السجن في الصباح، متقاربو الأعمار ما عدا واحداً بدا لي في الستين من العمر، هادئاً وحزيناً، لم تكن في الزنزانة أسرة، بل فرش مطوية، جلس على أطرافها السجناء، وبدت أوضاعهم أفضل بكثير من وضعي، إذ وفروا لهم أشياء لصنع الشاي وبعض الشموع للإنارة عندما تقطع الكهرباء. قال لي أحدهم: ألم تجلب معك فراشاً؟ ضحكت، ثم قلت:

ـ لو كنت أعرف أنني قادم إلى هنا لحملت فرشتي على كتفي؟ ضحكوا جميعاً، وقال رجل آخر للذي سألني: كم أنت غبي يا حسين.. ألم أقل لكم أن أخانا خطف من أمام منزله. إن وضعه يختلف عن أوضاعنا.

فسألت الرجل: ما هو الاختلاف؟

قال نحن من تنظيم آخر، ونحن أسرى أكثر من كوننا سجناء، لذلك يعاملوننا معاملة مميزة.

قال لي أكبرهم سناً: أنا سأسرب خبر وجودك بيننا.. أنت في مأمن هنا، وعندما نخبر أسرتك المفروض أن تقوم باتصالات مع وسطاء يستطيعون التدخل.. هل تعتقد أنها تستطيع ذلك؟

قلت: بالتأكيد..

وبالطبع.. مر ببالي كل من أبو محمد وأبو الطيب. كلاهما يستطيع أن يكون وسيطاً، وكذلك مدير المعهد الذي أعمل فيه، محامي المعهد الذي له اتصالات عديدة مع قادة الميليشيات والتنظيمات المسلحة.

قال الرجل: هل تعتقد أننا حفظنا رقم هاتفك؟

قلت: أرجو ذلك.

قال: لنقم ببروفة.

ثم راح كل واحد منهم ينطق رقماً واحداً من أرقام الهاتف. .

قلت: إنه هو بعينه. .

وفيما هم يحاورونني وأنا مغتبط بوجودي بينهم، فتح باب الزنزانة، فبدا أمامنا أبو أكرم بقامته المديدة، وقال لي مباشرة: تعال. . أنت.

فصاح الرجل المسن: ولو يا أبو أكرم. . أترك الرجل بيننا. .

قال: لدي أوامر أن يبقى في زنزانته. . أبو أحمد تصرف من عنده ولم يستشرني. . فأتى به إليكم. . السجين الجديد هو الذي يأتي إلى عندكم. . أما هذا ـ أشار بأصبعه نحوي ـ فيعود إلى زنزانته.

تأسفت كثيراً، وقفت. ثم قلت لأبو أكرم: يا أخي أنا مظلوم. . وأنتم على خطأ في سجني.

قال متبرماً: نحن لا دخل لنا في سجنك. . إننا ننفذ الأوامر، وهذه مهمتنا. . هيا معي. .

ثم قادني إلى زنزانتي وأقفل الباب خلفي.

تألمت كثيراً، أإلى هذا الحد أنا رجل خطر؟ لأترك أمري لله. . وأحسست بعد لحظات أنني مثل نعجة تنتظر دورها في الذبح. الموت. . وتساءلت ثانية: الموت. . حسناً، ليكن الموت. . ماذا كانت حياتي غير متاهات وعذابات لا حدود لها، كل هذه السنوات التي مرت كانت معتمة قليلة الضياء. متخمة بالأحزان واليأس والخوف، متخمة بغدر الأحباب والأصدقاء والأقرباء.

تمددت على السرير تاركاً الأفكار تزدحم في رأسي، غير أن

حـواراً تنامى إلى سمعي فجـأة، بين أبو أكـرم وعايـدة، فألصقت أذني بباب الزنزانة، فسمعت صوت عايدة جيداً.

ـ اي.. أخوي أبو أكرم.. جاي على بالنا الحلو.

فأجاب:

ـ تكـرم عينك عـايدة.. إن شـاء الله في الصبحيات أجلب لك الحلو.. وللمساجين أيضاً..

قالت له بغنج:

ـ أنت خير وبركة يا أبو أكرم.. عودتنا على الكرم..

فقال لها:

ـ جاي على بالي الشـاي.. يا عـايدة.. إصنعي لي كـأس شاي..

أجابت:

ـ على العين والرأس..

هل ثمة علاقة بين عايدة وأبو أكرم؟ إنه يخاطبهـا كما لـو أنها تعني له الكثير.. تطلب منه «الحلو» ويعدها بتلبية الطلب..

ولم تمر دقائق حتى سمعت طرقاً على الباب ثم صوت عايدة يقول لي:

ـ خذ.. إشرب هذا الشاي..

ومددت يدي على عجل وأمسكت بيديها وهمست:

ـ عايدة.. من هو أبو أكرم؟

همست:

ـ أسكت.. أسكت.. خـذ الشـاي، ودعني.. أريـد أن أذهب إلى عنده بالشاي.. قبل أن يبرد.

وألححت عليها فردت متبرمة:

ـ أوه . . إنه مدير السجن لا أكثر ولا أقل .

تركت يدها بعد أن أخذت كأس الشاي، وعدت إلى مكـاني أرتشف الشاي على مهل .

* * *

الفصل الثامن عشر

جاء سجناء جدد، سمعت صراخاً عالياً لعدة رجال، ثم تبين لي صوت ينفرد بحشرجة وبكاء وهو يردد: لم أفعل شيئاً.. لي أسرة وأولاد يموتون من الجوع إذا لم أكن بينهم، حرام عليكم يا إخوان، أنا بائع خضار. ما دخلي بهذه الحرب، لم أحارب إلى جانب أي منكم.. أنا بريء.

كان الصوت يقترب من زنزانتي باستمرار، حتى صار صاحبه لصق الباب، وفتح باب الزنزانة فوجدت نفسي وجهاً لوجه أمام أبو أكرم، وقد أمسك بالرجل من كتفه، كان وجهه مدمى، وعلامات الضرب واللكمات ظاهرة على وجهه. كان يرتدي ملابس قروية، في نحو الأربعين من عمره، كان يبكي كالأطفال ويحاول استعطاف أبو أكرم، وصار أبو أكرم يردد أمامه الكلمات التي حفظتها أنا عن ظهر قلب، رافعاً عن نفسه مسؤولية سجن الرجل. ثم التفت نحوي وقال: «ضب أغراضك».

ضحكت، وقلت له: «أي أغراض يا أبو أكرم»؟ ليس عندي غير ملابسي التي عليّ..».

قال: ارتدِ حذاءك واتبعني.

أدخلت قدمي في الحذاء ولحقت به، فدفع الرجل الآخر إلى زنزانتي وأغلق خلفه الباب.

التفت نحوي وقال:

ــ اتبعني.

سمعت أصواتاً تتردد من الزنزانة الأخرى التي زرتها البارحة:

ــ إلى أين تأخذ الرجل يا أبو أكرم؟

قال:

ــ ترحموا عليه..

ارتعبت في البداية، هل قرروا قتلي؟ وسمعت صوتاً من زنزانة أخرى يردد:

ــ أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

وصوت آخر:

ــ حرام عليكم هذا الظلم.

أما أنا، فقد تكاثرت في رأسي المشاهد تتطاحن كل منها يريد التقدم على الآخر: إطلاق رصاصة على مؤخرة رأسي، جثتي المرمية على رصيف المبنى الذي أسكن فيه، أمنية وهي تبكي وتسقط مغمى عليها، لينا تعانق رأسي وتصرخ باكية، بسام مشدود القامة يحاول أن يحبس دموعه. الأمل ببسام، سيثأر لي. لا أريد أن يذهب دمي هدراً، ليتني تمنيت على سجناء الزنزانة المجاورة أن يوصوا بسام بالثأر. على كل حال إنه ليس بحاجة إلى التوصية يعرف واجبه، سينال أكبر رأس فيهم. بالتأكيد سيبدأ بأبو توفيق. أنا متأكد أن لأبو توفيق يداً مباشرة بكل ما حدث لي، وتساءلت: هل سيرمون جثتي على رصيف المبنى؟ أرجو ذلك، على الأقل أجد من يشيعني إلى مثواي الأخير.

عندما توقف أبو أكرم، انتبهت إلى طاولة خشبية تشبه طاولة مكتب، عليها جهاز هاتف وبضع أوراق، ومصباح كهربائي يتدلى

من السقف قريباً منها. وفجأة انطفأت الكهرباء، كانت قد ظلت مشتعلة لأكثر من يومين متتاليين دون انقطاع، أدركت أن المعارك اندلعت من جديد، ففي كل مرة تصرخ القذائف تصمت الكهرباء.

أشعل أبو أكرم شمعة، ثم التفت نحوي وقال لي بصوت هادىء وحنون:

ـ ربما.. سيطلقون سراحك..

لم أستوعب ما قال للوهلة الأولى، فسألته:

ـ ماذا قلت يا أبو أكرم.. أرجوك.. أعد ما قلته.

ابتسم، وقال:

ـ أعتقد.. أنهم سيطلقون سراحك.. طلبوا مني أن أخرجك من الزنزانة ريثما يحضرون لأخذك.. هل تشرب كأساً من الشاي؟

قلت:

ـ أكون ممنوناً.

اقترب من الممر، ونادى بصوت عال:

ـ عايدة.. عايدة..

أخذ قلبي يدق بعنف، ها أنا سأرى عايدة، سأراها كما تخيلتها، أنا متأكد من ذلك. وسمعت صوتها الدافىء يرد من عمق الممر:

ـ نعم.. يا أبو أكرم..

ـ إصنعي لنا شاياً بسرعة.

ـ حاضر.

كانت عايدة فيما يبدو تطبخ طعاماً للسجناء، كان هذا واضحاً

من رائحة الطبيخ التي تعبق في السجن.

قدم لي أبو أكرم مقعداً، وقال لي: استرح.

جلست على الكرسي، خطا هو خطوة أخرى قريباً من الطاولة وفتح درجاً مغلقاً، وأخرج أشياء سرعان ما تبين لي أنها الأشياء التي تخصني، حزام البنطال، والساعة، ومحفظة النقود، ورباط الحذاء، ومفاتيح البيت والسيارة، وقال لي:

ــ هذه أشياؤك.. أليس كذلك؟

قلت:

ــ نعم.. إنها هي..

أعطاني إياها. هل كانوا يلعبون بأعصابي عندما أخذوا مني مفاتيح البيت والسيارة وأعطوها للفتى الذي هدد بقتلي؟ لا أدري.. كل هذه الأشياء كانت عند أبو أكرم.. لم أسأله كيف حصل عليها. أدخلت الحزام بعروات بنطالي وربطت حذائي، وأنا أردد في قلبي نداءات إلى الخالق كي يساعدني، متمنياً أن تكون ساعة الخلاص قد دنت، أما باغتيالي، أو بإعادتي إلى أسرتي.

سمعت خطوات عايدة تتقدم، فازددت اضطراباً، رجوت الله ألّا يخيب أملي فيها. ومع كل خطوة تقترب فيها كانت وتيرة دقات قلبي ترتفع، وها هي الآن أمام عيني بقامتها المديدة كالرمح، امرأة بكل ما تعني هذه الكلمة، شابة نضرة، عينان تلمعان على ضوء الشمعة الضئيل كما لو أنهما عينا غزال شارد في البراري. جميلة. جميلة. سمراء، جمالها طبيعي لم تقربه الأصباغ.

قدمت لنا الشاي، فقال لها أبو أكرم مشيراً نحوي:

ــ هذا نزيل الزنزانة رقم ٩.

التفتت نحـوي على عجل وراحت تحـدق بي، بـدا عليهـا، هي أيضـاً، الاضطراب. وضعت إبـريق الشاي على الـطاولة، ثم راحت تصب شاياً في كأسين، فقال أبو أكرم:

ــ أين كأسك يا عايدة؟

فقالت:

ــ لم أفكر أن الأخ عندك يـا خوي. إن شـاء الله ستطلقـون سراحه..؟

أجاب الرجل:

ــ إن شاء الله.. هيا أجلبي كأساً وشاركينا الشـاي. ابتعدت عايدة على عجل، فتجرأت وسألته:

ــ ما هي قصة عايدة يا أبو أكرم؟

حدق نحوي لحظات ثم قال:

ــ لا أحـد يجيـد الـطبـخ هنـا، وكـان علينـا أن نجـد من يجيده.. هكذا جاءت عايدة.

ــ وهل هي سجينة؟

ــ من قـال لك إنهـا سجينة؟.. لا.. إننـا نعاملهـا معـاملة طيبة.. ونخصص لها مرتباً شهـرياً. لكن لا نستـطيع السمـاح لها بالخروج.. ولو إلى حين.

قلت:

ــ يعني حريتها محتجزة من أجل أن تصنع لنا طعاماً.

لم يجب أبو أكرم للوهلة الأولى، ثم قال:

ــ هناك أشياء كثيرة تحدث لا نجد لها تفسيـراً.. خصوصاً في هـذه الفـوضى التي نعيشهـا، وفي هـذه الحـروب التي تـزداد اشتعالاً كل يوم..

وسكت. أخرج سيكارة وأشعلها ثم قدمها لي. فأشرت له أنني لا أدخن، وضعها على طرف شفتيه وراح يمجها على مهل. ثم التفت نحوي قائلاً:

ـ أنصحك ألا تذكر لأحد ما رأيته هنا.. هذه نصيحة أخ، وإلاّ أعادوك إلى هنا، أو اغتالوك.. إياك أن تذكر لأحد أين كنت، وماذا فعلوا بك؟ وماذا شاهدت؟ إذا أردت أن تبقى سالماً نفذ ما قلته لك.

وعادت عايدة بكأس الشاي. استندت بوركها إلى طرف الطاولة وصبت لنفسها كأساً من الشاي، ثم قالت موجهة كلامها لي:

ـ الحمد لله على سلامتك.. لا أقول لك ستوحشنا.. لكن أرجو من الله أن يفرج كربنا جميعاً. والتفتت نحو أبو أكرم قائلة: إنسان طيب، أعرف من قلبي أنه مظلوم. والله دائماً البدوية يصدق حدسها.

صرنا، هي وأنا، نتبادل النظرات الخفية، أحسستها قريبة من شغاف قلبي، وشعرت هاتيك اللحظات أنها ستوحشني فعلاً.. وسأشتاق إليها فعلاً، وأشتاق لطبخها وشايها وملامسة يديها الخشنتين، ومحادثتها عبر كوة الزنزانة، ومن خلف بابها الحديدي. قلت لها فجأة:

ـ سأشتاق لك يا عايدة.

فردت بخفر وحياء:

ـ وأنا كمان يا خوي.

فالتفت نحوي أبو أكرم وقال مازحاً:

ـ هل تريد أن أعيدك إلى الزنزانة مجدداً؟

فأجبته على نفس الوتيرة المازحة:

ـ على شرط. .

ـ ما هو الشرط؟

ـ أن تكون عايدة معي.

وضحكنا ثلاثتنا، سمعت أثناء ذلك طرقاً على باب، فأسرعت عايدة إلى أحد أدراج الطاولة وأخرجت علبة من الكرتون تبين لي أنها ملأى بالحلوى وقدمتها لي فتناولت قطعة منها. . وبينما كنت أمضغها قال أبو أكرم: هيا يا عايدة إذهبي إلى جميع المساجين وضيفيهم من هذه الحلوى. .

ونظرت عايدة نحوي نظرة ذات مغزى، وكنت أنا في نفس الوقت أتأمل ملامحها البدوية الساحرة، وسرعان ما لمحت دموعاً تترقرق في عينيها. . ثم مشت مبتعدة وهي تردد: حمداً لله على سلامتك. . حمداً لله على سلامتك.

وسمعنا الباب يدق من جديد، فقال لي أبو أكرم: هيا. . جاؤوا في طلبك. ومشيت معه عبر ممر متعرج حتى وجدت نفسي أمام باب عادي مغلق، فتحه أبو أكرم فإذا بي أمام رجل ينتظر فقلت: هذا باب عادي. . وأنت تعرف يا أبو أكرم أنني دخلت السجن من باب آخر. . من باب سرداب.

قال لي: ألم أقل لك. . تذكر كل ما قلته لك. . لا تسأل.

ثم أخرج أبو أكرم من جيبه ورقة وقال للرجل: وقع. . أنك استلمت هذا السجين. . فوقع الرجل الورقة، ثم قال لي: اتبعني. .

مشيت خلفه، فإذا بنا في قبو بناء شاهق، صعدنا أكثر من عشرين درجة، إلى أن وجدت نفسي خارج المبنى. الليل في

أوله.. وصوت القذائف الرتيب في الأجواء.

مشى الرجل إلى جانبي وقال: سيراك الرائد زكريا.

قلت له: من هو؟

قال: إنه المسؤول.. ثم تذهب حيث تشاء.

أدركت الآن أن كل شيء على ما يرام، التفت إلى الوراء أحاول أن أبصم في ذاكرتي شكل المكان، والبناء الذي خرجت منه، لكن ظلمة الليل لم تسمح لي أن أحفظ المعالم جيداً.

وتذكرت عايدة وكيف تركتها في هذا القبر الخانق. لكن، ماذا أستطيع أن أفعل؟ وهل أقدر على إنقاذها؟ تلمست جسدي، فعبقت مني رائحة كريهة، وبدوت مثل جرذ خرج بعد عناء طويل من نهر مجارير. لقد تلبستني كل الروائح القذرة الكريهة.. أدركت ذلك من خلال رفيقي الذي كان يتحاشى ملامستي، ويبتعد عني كلما اقتربت منه، وبين لحظة وأخرى يسد أنفه بمنديل يحمله في يده.

رحت أتأمل ما حولي.. إنها حارات وأزقة وممرات لم أكن شاهدتها من قبل، أحياء فقيرة لم أكن أعرف أن في بيروت أحياء من هذا النوع. أكياس رمل هنا وهناك، وعند مداخل الأبنية العتيقة، وأشخاص أشباح تمر هنا وهناك، تتلمس طريقها على حذر من سقوط قذيفة أو رصاصة قناص. لا الرجل الذي يرافقني كان خائفاً ولا أنا.. بعد الذي حدث معي طوال الأيام الماضية لماذا أخاف؟ لم يعد هناك ما يخيفني..

حاولت أن أستنشق الهواء عميقاً، لكنه كان هواء مشبعاً بالبارود والغبار وركام الجثث، إلاّ أنه، على الأقل، كان هواء أكثر نظافة من هواء القبر الذي كنت فيه.

وصلنا إلى مبنى بدا لي كقلعة محصنة. كانت أكياس الرمل تلفه من كل جانب، عدا عن صوت محرك ضخم يولد الكهرباء للمبنى كله، وعندما دخلنا، ضغط مرافقي على زر مصعد. ثم صعدنا به إلى الطابق الثامن، وخرجنا لندخل احدى الشقق التي كان يقف خارجها بضعة رجال مسلحين، وطلب مني الرجل أن أنتظر في الصالون، ثم دخل احدى الغرف المغلقة وخرج بعد لحظة وقال لي: تفضل، وإذا بي أمام رجل طويل القامة وقف من خلف طاولته مرحباً بي ومادّاً يده لمصافحتي، فأسرعت وصافحته، ثم دعاني إلى الجلوس وقدم نفسه لي قائلاً: الرائد زكريا. . فأحنيت قامتي وأنا أرد عليه: تشرفنا.

جلست، بينما ضغط الرجل على زر. فدخل علينا شاب وسألني مباشرة: هل تشرب شيئاً؟

قلت: لا. .

فقال الرائد زكريا:

أجلب له كأس ليمون. . لا شك أنه بحاجة له. ثم التفت نحوي ورحب بي بضع مرات، وأخذ يردد كلمات طيبة مثل: الحمد لله على السلامة. . ما كان عليهم أن يفعلوا بك هذا؟ وأنا شخصياً أعتذر على كل ما حصل.

ظللت صامتاً، وحزيناً في الوقت نفسه، ها أنا خارج القبر، خارج عنق الزجاجة. . صحيح، كل هذا صحيح، ولكن ها هو هذا الرجل يقول هم. . من هم؟ أليس هو منهم؟ وبعد هذا العذاب جاؤوا يعتذرون؟

وعاد الشاب بكأس الليمون، وخلفه الرجل الذي فتشني في بداية الإعتقال وأخذ الأشياء مني. هو نفسه الذي طغى وتجبر

وشتمني وشتم زوجتي وهـددني بـالقتـل. اقتـرب مني يـريـد مصافحتي، فلم أمد له يدي، أرخى يده هو يقول لي:

ـ إنني أعتذر شخصياً. أرجوك أن تقبل اعتذاري.

لم أرد. فقال لي:

ـ ألا تريد أن تحلق ذقنك؟ الحلاق موجود هنا.

أجبته:

ـ لا.. أريد أن أذهب إلى البيت فقط.

فقال:

ـ أرجوك... يجب أن تـذهب إلى البيت وأنت في وضـع جيد.. خذ دوشاً عندنا واحلق ذقنك.

أجبت:

ـ أريد فقط.. الذهاب إلى البيت.

فرفع الرائد زكريا يده وقال مخاطباً الرجل:

ـ أتركه على كيفه. دعنا الآن قليلاً.. فخرج الرجل.

قال الرائد زكريا:

ـ الذي حصل كان خطأً في خطأ. لقد تـألمنا كثيـراً عندمـا عـرفنا مـا حدث، وتـأكد أننـا سنعاقب الـذي سبب لك كـل هذه المشاكل.

قلت له:

ـ مشاكل.. هل تعتقد أنهـا مشاكـل فقط.. إحتجاز حـرية إنسـان، محاصـرته بـالكوابيس والتهـديدات بـالقتل والتصفيـة.. سـراديب.. وزنزانـات.. وسجن.. كل هـذه مشاكـل تعتـذرون عنها.. ماذا لو لم تعرف أنت ما حدث؟ ماذا كان سيحصـل لي؟ أكثر من رجل منكم هددني بالقتل.. لو قتلت وحرمت من أسرتي

وحرمت مني . . واكتشفتم الخطأ فيما بعد . . بشرفك يا أخ زكريا . . ماذا تستطيع أن تفعل؟

ــ لو كانت هناك نية بتصفيتك لصفوك من زمان .

ــ حسناً . . هل تعرف السجن الذي كنت فيه؟

ــ طبعاً . . أعرف .

ــ أقصد . . هل زرته من الداخل؟

ــ لا . .

ــ إذهب إلى هناك وأنظر بنفسك في أي قبر كنت فيه . . في أي جحر على الأصح . . بل في أيّ مجارير . .

ــ هذه طبيعة السجون . . ونحن ثورة ، وللثورة أعداء ، من أجل ذلك نحن بحاجة إلى سجن .

ــ سجن . . أم سرداب؟ إن أبسط متطلبات الحياة غير موجودة فيه ، لن تزعل إذا قلت لك ، أنكم كثورة ، مثلكم مثل بقية الأنظمة ، لقد كنا دائماً نتأمل أن هذه الثورة هي الحلم العربي ، بل هي الأمنية التي كنا نتصور أنها ستقول لجبين الإنسان العربي : إنهض من الوحل . . لا أن تمرغوه بالوحل مثلكم مثل غيركم .

تأملني الرائد زكريا طويلاً ، كنت ألمح في عينيه قلقاً بالغاً ، وكان يبدو لي أنه متألم مثلي من كل ما يحدث ، ثم قال لي :

ــ في كل الثورات تحدث مثل هذه الأخطاء . . ليست كل ثورة نظيفة إلى حد المثالية ، خذ الثورة الفرنسية مثلاً ، التي نعتبرها أم ثورات العصر الحديث ، خذ الثورة البلشفية ، ولأقرب لك المثل أكثر فأكثر الثورة الجزائرية . . هل تعرف أن نحو نصف مليون إنسان قتلوا فيها خطأً . . أقول صفوا فيها على أساس أنهم

عملاء لسلطات الإحتلال، وفي الواقع كانوا أبرياء.

ــ وهل كنت تريـد أن أدفع حيـاتي ثمناً لمثـل هذا الخـطأ؟ وهل نكون أنا وأمثالي لعبة جهنمية بأيدي أولاد. بـأيدي متخلفين عقلياً، بأيدي أنصاف مجانين؟ هل تعرف بالضبط مـا حصل لي؟ وكيف سحبــوني من أحضـان أسـرتي؟ هـل تعــرف بـأي وسيلة مخـادعة اختـطفوني؟ هـل تعرف أن فتى في الـرابعة عشـرة ظـل يهددني بالقتـل حتى أخذوني إلى السجن؟ والسيـد أبو الجمـاجم محققكم الـرائع هـل درس الحقوق؟ هـل درس حقـوق الإنسـان على الأقل؟ هل تعرفه جيداً أيها الرائد؟

وأراد الـرجـل مقــاطعتي، فـرفعت يـدي متـابعــاً كـلامي: أرجـوك. . إن كنت أنـا بـريء بنـظركم، وإن كنت أنت تعتــرف بـالخطأ، وهـذه فضيلة كبيرة أراهـا الآن، دعني أفش لـك قلبي، وأرجو أن يكون لي متسعاً من الحنان في صدرك.

فقال: تفضل. . تفضل.

قلت: صدقني. . سأحاول أن أنسى كل مـا حصل، وكـل ما رأيت، لأنني أحبكم بمختلف فئاتكم وتنظيمـاتكم، أحبكم لأنكم اضطهدتم في كـل البلاد، وطـوردتم في كل البـلاد، وتعذبتم في كل البلاد. . ولكنني أتسـاءل: هل يحق لكم أن تفعلوا بـالآخرين ما فعلوه بكم؟

أم كان يجب أن تتخذوا ما حدث لكم عبـرة فتمنعوا حـدوث مثله عن الآخرين، لو كنت مسؤولاً فيكم، لكنت وسيلة فاعلة في حماية الأبرياء من الكذبة والفريسين وكتبة التقارير، وقبل أن أقدم على أي عمـل ضد أي إنسـان أعتبـره بـريئاً حتى تثبت إدانتـه لا العكس. لا كمـا يحدث على مـرأى ومسمع منـا في هذا البلد أو

ذاك. . أعـذرني. . إن كنت صريحـاً إلى هذا الحـد، ولكن سعة صـدرك وصبرك عليّ ورغبتـك في أن تعـرف الحقـائق، هي التي سمحت أن أتجرأ وأقول لكم كل هذا الكلام.

ضغط الرائد زكريا ثانية على الجـرس، فدخـل الشاب إيـاه، طلب منه أن يحضر لنا القهوة، ثم التفت نحوي قائلاً:

ـ إنني محرج جداً أمامك الآن. . أنت تقول كل هـذا لأنك مللذوع بـه للتو، وأن عـلائم ما ارتكبنـاه بحقك، مـا زالت بـاديـة عليك. أكرر اعتذاري حقاً أيها الصديق. بـل نحن على استعداد لأن نحقق في المـوضوع ونعـاقب الذين أحـدثـوا في قلبـك هـذا الجرح أشد العقاب، بل من حقك أن تطالبنـا بمثل هـذا الإجراء الآن وقبـل أي وقت آخر، صـدقني إنني سأكـون على رأس لجنة التحقيق التي ستطال كل الذين سببوا لك كل هذا الأذى.

ـ أظن أن هذا حق لي. . ولكن الذي أرجـوه منك أن كنت تريد راحتي أن أعرف شخصياً الذي أودى بي إلى هذا المصير؟

صمت الـرائـد زكـريـا بعض الـوقت، وكـانت القهـوة قـد أحضرت، ورحنا معاً نرتشفها ثم قال لي:

ـ سأسمح لنفسي أن أقول لك. . ولكن بشرط.

ـ أنا حاضر لأي شرط. .

ـ شـرط أن تترك لنـا التصرف. . سنتصـرف بما نعتبـره حقاً لك. . بل وأكرر، إننا سنعاقب كل الذين سببوا لـك هذا الجـرح أشد العقاب.

ـ حسناً. .

ـ إن الـذي قدم فيـك هـذا التقـريـر الكـاذب، هـو جـارك أبو توفيق. . إنه عميل رخيص لنا، اشتريناه بخمس وعشرين ليـرة

فقط، خمس وعشرين ليرة ثمن كل تقرير. . لم يكتب لنا تقارير عنك وحدك، بل عن جميع سكان الحي وانتماءاتهم وأحوالهم. . بل عن كل خصوصياتهم، ونحن منذ ثلاثة أيام نحقق بكل ما كتبه لنا من أكاذيب. . ليس لأنه أذاك كل هذا الأذى، بلا لأنه كذب علينا أيضاً.

وهذا ما توقعته، إنه أبو توفيق. ما أغرب ذلك، هل وصلت به خساسة نفسه إلى هذا الحد؟ أين الخبز والملح الذي كان يتباهى به؟ أين حقوق الجار على جاره؟ ربما كان من حقه، لو كنت عميلاً، أن يقدمني إلى المقصلة. أما أن يكذب مقابل ربح رخيص إلى هذا الحد، فهذه منتهى النذالة، ومنتهى السقوط.

التفت إلى الرائد زكريا وقلت له:

ـ أظن أن حقي وصلني. ولكن إسمح لي أن أحدثك عن هذا الرجل. . فأقول أنه مثلما باعني لكم بخمس وعشرين ليرة سيبيعكم بأقل من هذا المبلغ أو أكثر. إنه عميل رخيص يبيع نفسه لمن يدفع أكثر، كان أكثر من صديق، كان بيتي بيته، وطعامي طعامه، كان يراني أكثر من رؤيته لنفسه، وقربتنا الحرب من بعضنا بعضاً، فكنا نقضي معظم النهار والليل معاً. كان يعرف حقيقة عواطفي تجاهكم خصوصاً، ومن خلال كل مناقشاتنا كان يدرك أنني أتعاطف معكم، لم أسيء له يوماً، ولم أقل له يوماً كلمة نابية. بل كنت أشفق عليه، وأتمنى أن تتحسن أوضاعه التي كان يشكو من سوئها، حاولت أكثر من مرة مساعدته عبر ترجمات وكتابات صحفية لنشرها في المجلة التي كنت أعمل فيها. والآن أستغرب كيف أقدم على هذا العمل وهو يعرف حقيقة أوضاعي، حقيقة ما أنا فيه في بيروت. . إسمح لي أن أقول لك أنكم يجب

أن تكونوا أكثر دقة في اختيار عملائكم، ولا تـظلموا النـاس حتى تتأكدوا. صحيـح أن الثورات كلهـا تقع بـأخطاء من هـذا النوع، ولكن لمـاذا لا تستفيدون أنتم من مثـل هـذه الأخـطاء عـوض أن تقعوا فيها بأنفسكم وتكرروها؟

فرد الرائد:

ـ نعم.. نعم.. أرجو أن نستطيع ذلك.

وسألته:

ـ متى سأذهب إلى البيت؟

قال:

ـ الليلة.

قلت:

ـ ولماذا ليس الآن؟

قال:

ـ سيراك الآن أبو صلاح أولاً.. إنه يريد أن يراك وأن يعتذر لك شخصياً.

ـ ومن هو أبو صلاح؟

ـ إنه عضو اللجنة المركـزية.. هـو أيضاً متـألم لما حـدث لك.

ـ حسنـاً.. ولكن هـل تسمـح لي أن أتكلم مـع زوجتي بالهاتف؟

ـ زوجتك تكلمت معنا الآن وسألت عنك.. هي أيضـاً عند أبو صلاح..

ودهشت، وتوجست خفية، ما الذي جاء بها إلى أبـو صلاح؟ وكبر خوفي.. هل قدمت نفسهـا مقابـل الإفراج عني؟ لا أظن..

لا يمكن أن تفعل ذلك، ولكن كيف أتت إلى أبو صلاح. ومن عرفها عليه؟

داهمتني مخاوف كثيرة، أمنية امرأة جميلة، والمرأة الجميلة تفعل المعجزات في زمن الفوضى والحروب، إذا أرادت شيئاً كبيراً تشتريه بابتسامة، بكلمة غنج، بدلال، بفستان فوق الركبة، للتاريخ شواهد كثيرة من هذا النوع.. ماذا فعلت أمنية؟ سأقتل نفسي إذا عرفت أنها سقطت لأنجو.

ورن جرس الهاتف، رفع الرائد زكريا السماعة:

ـ آلو.. نعم.. نعم.. هو عندي الآن.. سأرسله لكم.. حسناً.. وأغلق السماعة ثم قال لي:

ـ سيراك أبو صلاح الآن.

وضغط زر الجرس. جاء الشاب إياه، فقال له: ارسل لي أبو العز.. جاء أبو العز: قال له:

ـ اصطحب الأستاذ إلى منزل أبو صلاح، ثم وقف.. قال لي:

ـ خذ هذا رقم هاتفي الخاص.. إذا احتجت شيئاً إتصل بي مباشرة.. سأكون في خدمتك متى تشاء.

شكرته، وانسحبت، فقال مرافقي:

ـ بيت أبو صلاح ليس بعيداً.. بضع دقائق فقط..

وماذا سأفعل بأمنية عندما أراها هناك؟

* * *

الفصل التاسع عشر

بعد دقائق، وصلنا إلى مبنى محاط بحراسة مشددة، فخاطب مرافقي أحد الحراس وهو يشير نحوي:

ـ أبو صلاح طلبه ويريد مقابلته..

قال الرجل:

ـ أبو صلاح ليس هنا.. ولا ندري متى يعود.

قلت لمرافقي:

ـ لا بأس.. دعني أذهب إلى منزلي.. ونرى أبو صلاح فيما بعد.

قال:

ـ لا.. لا.. الأوامر أن يراك أبو صلاح أولاً..

ثم تركني ومضى.

ظللت واقفاً مع الحرس فترة طويلة، وكلما تقدم الوقت زاد قلقي، فأمنية مع أبو صلاح، وأبو صلاح ليس هنا، وقبل قليل تحادث مع الرائد زكريا.. فما الذي يحدث؟

وخشيت على أمنية.

هل دفعت الثمن؟ لو فعلت، كم هو ثمن باهظ؟ حياتي كلها لا تساوي نقطة منه..

وتكاثرت شكوكي مع تقدم الوقت، فقلت لرجل من

الحرس:

ـ يا أخ.. ليس ضرورياً رؤية أبو صلاح، أراه فيما بعد..

قال:

ـ في الحقيقة كان هنا منذ قليل، لكن أمراً ما، خطراً استدعاه للخروج على عجل.. لا تقلق يا أخ.. سيعود ويلتقي بك.

قلت:

ـ وإذا تأخر كثيراً.. وإذا لم يعد؟

قال:

ـ هذا ليس شغلي، ولا نستطيع تركك تذهب قبل أن يراك أبو صلاح.. هذه هي الأوامر كما سمعت بنفسك.

«ما هذا.. هل أنا معتقل من جديد؟ وأين أبو صلاح، وأين أمنية؟».

ـ زوجتي في بيت أبو صلاح.. إسمح لي أن أصعد إلى فوق.

قال:

ـ ليس في علمنا أن امرأة غريبة موجودة في بيته.. من قال لك ذلك؟

قلت:

ـ قبل قليل كنت عند الرائد زكريا، وفهمت منه أن زوجتي موجودة عند أبو صلاح.

قال:

ـ على علمنا.. بيت أبو صلاح ليس فيه أحد.

صمت على مضض. الشكوك أخذت تأكل قلبي وعقلي،

ثمة غموض يحيط بي من كل جانب، وها أنا حر ولست حراً. على باب مبنى، ولا أستطيع الذهاب إلى بيتي، وإذا لم يعد أبو صلاح عاجلاً. فسأظل في مكاني إلى ما شاء الله. ولكن. لا بد أن يعود أبو صلاح إلى منزله. وتذكرت أن القادة عادة لهم أكثر من مكان يبيتون فيه ولأسباب أمنية. فلو أن أبو صلاح قرر أن لا يعود إلى بيته الليلة. فماذا أفعل؟ هل أبات في الطريق؟

وفجأة، سمعت صوتاً ينادي على إسمي من أعلى البناء، رفعت رأسي لألمح شبحاً في شرفة احدى الشقق وهو يكرر المناداة على اسمي. الصوت ليس غريباً عني، لكنني لم أتبين ملامحه في هذا الظلام، ورغم أن نوراً ضئيلاً يتسرب داخل الشقة، لكن ملامح الرجل لم تكن واضحة، ثم قال الصوت لأحد الحراس:

ـ دعه يصعد إلى بيتي يا خالد. .

قال الحارس:

ـ اصعد إلى الطابق السادس. . الشقة على اليمين.

قلت:

ـ ومن هو هذا الرجل الذي يناديني؟

قال:

ـ إنه جار أبو صلاح وصديقه. . أسرتهما أسرة واحدة. . ويبدو أنه يعرفك جيداً. .

قلت:

ـ حسناً.

ودخلت المبنى، كنت متعباً لكنني كنت نشطاً في الصعود. حتى وصلت الطابق السادس. ففوجئت بالأستاذ محمد محامي

المعهد الذي أعمل فيه يستقبلني، أخذني بين ذراعيه وضمني إلى صدره وهو يردد: الحمد لله على السلامة يا رجل.. ما هذا الذي فعلوه بك؟

أدخل.. أدخل.

وشدني إلى داخل المنزل، وسرعان ما هبت أسرته ترحب بي. بينما كان يقدمني إليهم فرداً فرداً. ثم يردد: شغلت الدنيا يا أستاذ.. الحمد لله إننا وصلنا إليك وعرفنا أين أنت. أبو صلاح هو الذي أمر بالإفراج عنك.

جلست إلى أقرب مقعد وأنا ألهث، وما أن التقطت أنفاسي، حتى سألت الأستاذ محمد:

ـ ولكن أين هو أبو صلاح؟

ـ خرج منذ قليل لأمر عاجل، وأخبرني بالهاتف الآن أنهم أحضروك إلى مدخل المبنى.. وطلب مني أن أناديك إلى منزلي ريثما يعود.

ـ حسناً.. ولكن أين زوجتي..؟

واستغرب الأستاذ محمد السؤال:

ـ زوجتك.. لا بد أن تكون في البيت.

ـ لكن الرائد زكريا قال أن زوجتي عند أبو صلاح.. وأنها تنتظرني عنده.

ضحكت زوجة الأستاذ، وقالت موجهة الكلام إلي:

ـ يبدو أن الأمر التبس عليك. في الحقيقة أنا التي انتحلت شخصية زوجتك. أردت أن أتأكد أنهم أفرجوا عنك فعلاً، فطلبت من أبو صلاح رقم الرائد زكريا وخاطبته باسم زوجتك. هذا كل ما في الأمر.

شعـرت أن اليـد التي كـانت تخنقني قـد انفكت عن عنقي الآن. . الحمد لله الحمد لله.

وراح الأستاذ محمد يروي لي كيف عرف أنني مخـطوف من جهة ما، خصوصاً بعد تغيبي عن المعهد، واتصال زوجتي بمديـر المعهد وبكل زمـلائي فيه تسـألهم عن مصيري وأن يسـاعدوا في اكتشاف مكاني، ومن حسن الحظ أن الأستاذ محمد صـديق وجار لأبو صلاح الـذي سرعـان ما عـرف أنني سجين جماعتـه فأصـدر أوامره بإطلاق سراحي فوراً وتقديم الاعتذارات لي. . بل أنـه قرر أن يعتذر بنفسه مني.

أردت مقـاطعة الأستـاذ مراراً لأقـول أنني أريد الـذهـاب إلى البيت، ولم تعد تهمني هذه التفـاصيل، لكنـه استرسـل بالمبـاهاة بمـا فعل وأنـا أحس بـالامتنـان لـه، وانتـظرت لحـظة يلتقط فيهـا أنفـاسه، فشكـرته على بـذل هـذا الجهـد، ثم استـأذنتـه لأطلب زوجتي على الهاتف فقال لي:

ـ تفضل. . تفضل.

واقتربت من جهاز الهاتـف، وما أن رفعت السمـاعة حتى راح قلبي يـدق بعنف. ماذا سيكـون وقع الحـادث على أمنية، خشيت عليها، وأنا أعرف أن قلبها المتعب لا يتحمـل، وقد لا يسـاعدهـا على تلقي النبـأ السعيد عنـدما تسمـع صوتي. . كيف أقـول لها: ألو. . فكرت وأنـا أضرب الأرقـام أن أطلب من زوجة الأستـاذ أن تمهـد للموضـوع وتتحدث مـع زوجتي، لكنني ألغيت الفكـرة. . المهم الآن أن يتم الإتصـال، فالكهـرباء مقـطوعـة ومن النـادر أن تبث الحـرارة في أجهزة الهـاتف، كررت المحـاولة مـراراً، وقـال الأستـاذ: من الصعب الاتصال، فـالحـرارة ضعيفـة كمـا تـرى. .

قلت.. لا بأس.. دعنا نحاول.

ورحت أعيد الأرقام من جديد، وأنا أصلي في أعماقي إلى الله راجياً أن يساعدني، وصرت أردد في نفسي: إذا كانت أمنية تحبني.. يتم الاتصال.. وإذا نستني لا يتم.. وأكثر من عشر مرات أغلقت السماعة ثم رفعتها مكرراً الطلب.. وأخيراً، علق الخط.. يا إلهي.. إنه هاتف بيتي يرن.. يرن.. إنه يرن، وأخيراً سمعت صوت أمنية ضعيفاً ومهزوماً ومتعباً:

ـ ألو..

كدت أقول: «آلو» لكن صوتي اختنق فجأة بالبكاء.. أبعدت فمي عن السماعة ورحت أنشج كطفل وأبكي، بينما علا صوت أمنية قليلاً:

ـ آلو.. آلو.. مين بيحكي.. آلو..

وخشيت أن تغلق أمنية السماعة، فاقتربت وقلت بصوتي المخنوق.

ـ آلو.

ـ نعم.. مين بيحكي.

ـ ولو أمنية.. هل نسيت صوتي؟

ـ مين حضرتك؟

ـ أنا زوجك يا أمنية.

وصرخت أمنية في الهاتف:

ـ تقبرني.. حبيبي.. وين انت.. وين انت..

وصارت تبكي، وبكيت أنا، وعجزنا معاً أن نتواصل في الحديث، كنت أسمعها تنادي على بسام وعلى لينا.. تقبروني.. أبوكم.. أبوكم.

وسمعت اقتراب بسام ولينا وهما يبكيان معاً ويصرخان معاً: بابا.

اقترب مني الأستاذ وراح يربت على كتفي مهدئاً.. فانتبهت إلى الجميع من حولي وأعينهم تسح بالدموع.

وحاولت التماسك من جديد، وقربت سماعة الهاتف إلى فمي:

ــ اسمعيني يا أمنية.. اسمعيني جيداً.

ــ تقبرني.. قل لي أين أنت.. وين انت؟

ــ أنا بخير.. لا تخافي.. أنا بخير.. أعطني بسام.

وسمعت صوت بسام:

ــ بابا.. بابا..

كان يبكي، فناديت عليه:

ــ كف عن البكاء يا بسام.. أنت رجل.. فقال لي:

ــ وأنت تبكي يا بابا.. وأنت تبكي.. وأنت رجل..

قلت له:

ــ أعطني أختك..

كانت لينا تشهق بالبكاء كما لو أنني أراها للتو تبكي بحرقة:

ــ بابا.. بابا.. تعال لعندنا.. اشتقنا لك بابا.

ــ أنا جاي.. أنا جاي. حبيبتي..

وعادت أمنية إلى سماعة الهاتف:

ــ وين انت أخبرني. لا تترك الهاتف قبل أن تقول لي جاي.

ــ لا تخافي.. أنا جاي بعد شوي.. يعني الليلة ح اكون عندك..

ـ وين انت الآن؟

ـ أنا عند الأستاذ محمد.. محامي المعهد.. لعلك تذكرينه.

ـ نعم.. نعم.. كنت تحدثني عنه دائماً.

ـ تم الإفراج على يديه والحمد لله.. عندما يأتي أبو صلاح وأراه.. سوف أجيء هذه الليلة..

ـ أنا عم انتظرك.. تقبرني.. حبيبي.. لا تتأخر.. تعال.. الأولاد طقوا عليك.. وأغلقت السماعة..

كنت أرتجف من رأسي حتى أخمص قدمي.. كان جميع من حولي صامت بخشوع.. لم أستطع أن أنظر إلى وجه أحد من هؤلاء.. لا الأستاذ محمد ولا زوجته أو ولديه.. وحاولت أن أستعيد روعي.. تبللت ذقني بالدموع، وصار ملحها يضنايقني، فرحت أفرك وجهي وذقني بكلتا يدي. اقترب مني الأستاذ متعاطفاً معي:

ـ قم.. تعال.. اغسل وجهك.

فقالت زوجته:

ـ دعني أعد له ماء ساخناً.

قلت:

ـ لا.. لا.. الماء البارد أفضل.

ذهبت إلى المغسلة، كان الماء مقطوعاً، فجلب لي الأستاذ ماء بوعاء وراح يصبه على راحتي المضبوبتين بهدوء. غسلت وجهي وعيني ومسحت رأسي. ثم بدأت أستعيد روعي وارتحت قليلاً، التفت نحو الأستاذ أشكره.. فقال لي:

ـ أنا مقدر ما حدث لك.. إنها تجربة قاسية يا عزيزي..

نرجو من الله أن لا تعود.

سألته:

ــ هل ننتظر أبو صلاح؟

قال:

ــ سنشرب معاً فنجان قهوة.. وإذا لم يأت أبو صلاح آخذك أنا إلى البيت.

ورويت للأستاذ باختصار شديد ما حدث لي منذ اختطفوني من أمام المنزل، وكانت أسرته تستمع إليّ، وعندما عادت زوجته بالقهوة، أنصتت لروايتي، ودمعت أعينهم جميعاً. وقلت لها:

ــ لو تعرفي كم قلقت عندما ظننت أن زوجتي عند أبو صلاح.. قالت:

ــ ليتني لم أفعل ما فعلت.. على كل حال، كان المقصد من وراء ذلك التعجيل برفع هذا الهم عنك..

قلت لها:

ــ أنا مقدر جداً ما فعلت.. أشكرك جزيل الشكر.. على كل حال عندما يتاح لك أن تتعرفي على أمنية.. ستحبينها.

قالت:

ــ بالطبع.. أنا راغبة بالتعرف إليها فعلاً..

وفيما نحن نتحادث رن جرس الهاتف. فرد الأستاذ محمد، وسمعته يقول: نعم.. إنه عندي الآن.. ويشرب القهوة.. نحن ننتظرك.

وعندما أغلق السماعة قال لي: أبو صلاح قادم.

وبالفعل لم تمض عشر دقائق تقريباً حتى سمعت ضجيجاً خارج المنزل فأسرع الأستاذ محمد ليرحب بالقادم.. فدخل علينا

رجل طويل أشيب الشعر، يرتدي بذلة كاكية، وقدمه لي الأستاذ: الأخ أبو صلاح.

اقترب مني أبو صلاح وعانقني وهو يكرر الإعتذار تلو الاعتذار: ظلمناك يا رجل.. عندنا مرتزقة.. وعندنا عملاء مزدوجون يسببون لنا دائماً الإحراج والمشاكل.. إنني أعتذر منك شخصياً.. ونيابة عن القيادة كلها. وسنعاقب الذين سببوا لك كل هذا الألم.

شكرته، وقلت له: على كل حال سامحكم الله.

قال:

ـ نحن على استعداد لنعوضك مالياً ومعنوياً.

قلت:

ـ مالياً.. لا أريد شيئاً.. ومعنوياً أكتفي بهذا القدر من الاعتذار والتعاطف.

قال:

ـ أنا مصر على التعويض المالي.

قلت وأنا أتصنع الجد:

ـ أنت متأكد.

قال:

ـ طبعاً.. طبعاً.. هل تعتقد أنني أمزح؟

فقلت ضاحكاً:

ـ كل ما أريده منكم أن ترسلوا لي كل يوم وجبة طعام من السجن.. إنهم يطبخون طعاماً لا نجده في أفخم الفنادق.

قال ضاحكاً:

ـ هل هذا صحيح؟

ـ نعم.. نعم.. على كل حال.. أنا أمزح.. لكن عندي طلب حقيقي.

ـ تفضل.

ـ في السجن امرأة مسجونة فقط لمجرد أن مهمتها أن تصنع الطعام للمساجين، وأظن أنك تستطيع المساعدة في إيجاد صيغة أخرى للتعامل معها.. لتصنع الطعام، ثم تذهب إلى بيتها عوض أن تذهب إلى زنزانة.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ وصحيح أيضاً أن الآخرين ربما كانوا أبرياء.

ـ حسناً.. سأحقق في الأمر كرماً لك.

ـ أشكرك.

ـ أرجو عميق الرجاء أن تنسى. أعرف أنك لن تستطيع النسيان، ولكن لا تظلمنا جميعاً.. ونحن نعرفهم جيداً هؤلاء العملاء.

ـ إذا كنتم تعرفونهم.. لماذا لا تستغنون عن خدماتهم؟

ـ هل تعرف ماذا يفعلون لو أقدمنا على خطوة من هذا النوع؟

ـ ماذا؟

ـ إنهم سيلتحقون فوراً بالتنظيمات الأخرى التي تناصبنا العداء، هذه المشكلة نفكر فيها كثيراً.

ـ لكن.. بهذا التردد تظلمون ناساً كثيرين؟

ـ ما العمل.. إنها الفوضى.. إنها الحرب.. وهناك أولويات أجدر بنا الاهتمام بها على كل حال.. إن شاء الله سنتخذ اجراءات حازمة.

وتقدم مني وصافحني.. ثم قال لي.. سأطلب من الرجال أخذك إلى بيتك.

قال الأستاذ محمد: لا.. أشكرك.. وعدته أن أرافقه بنفسي إلى أسرته.

قال أبو صلاح: كما تريدون.

واستأذن وخرج.

قلت مباشرة: هيا يا أستاذ محمد.. لا أريد أن أتأخر عن المنزل.. والساعة أصبحت تقترب من منتصف الليل.

قال: هيا.

ودعت أسرته ونزلنا الدرج.. ثم صعدت إلى جانبه في السيارة التي انطلق بها خارج تلك المنطقة ونحن نتجاذب أطراف الحديث، وبدأت الشوارع التي أعرفها جيداً تظهر أمامي، وكانت أصوات القذائف عند خطوط التماس تسمع عن بعد بوضوح، فقلت له: الحرب ما زالت مستمرة.. قال: الحرب الحقيقية لم تبدأ بعد يا عزيزي.. الحرب الشرسة قادمة.. قادمة.. وكل ما مضى ما هو إلاّ استعداد لها.

وصلت الحي، وما ان ترجلت من السيارة حتى وجدت أهل الحي بكاملهم ينتظرون وصولي، لعل أمنية أخبرتهم.. هجم علي أبو زهير وعانقني وراح يصرخ: بالسلامة يا أخي أبو بسام.. بالسلامة.. وسرعان ما أحاط بي جمع من السكان: أبو زياد. الدكتور. أبو ابراهيم.. أبو محمد الداعوق. أما نساء الحي فكن يقفن على الشرفات وهن يلوحن بأيديهن: ريتا وأمها.. لوريس وسناء. ثم إذ بي أمام ابني بسام يقفز إلى صدري ويعانقني، ثم يقبلني من ذقني وهو يردد: بابا.. يا حبيبي يا بابا.

ودعني الأستاذ محمد، وصعد الجميع معي إلى المنزل. كانت أمنية بقامتها الرهيفة تقف بالباب. ورمت نفسها على صدري وهي تبكي وتردد كلمات الود والأشواق. ثم رحنا نتأمل بعضنا، كانت شاحبة الوجه، بدت لي كأنها لم تنم منذ وقت طويل، ثم قالت: يا إلهي.. ماذا فعلوا بك؟

دخل الجميع المنزل، وامتلأ الصالون بالسكان نساء ورجالاً وهم يهنئونني بالسلامة، وأسرعت لوريس إلى منزلها وصنعت لنا ركوة كبيرة من القهوة، فيما أسرع أبو ابراهيم وجلب من بيته «اللوكس» فأضاء البيت بنوره القوي. وراح الجميع كل واحد فيهم يتأملني كأنني ميت خارج من القبر، ألم أكن ميتاً؟ ألم أكن في قبر؟ حتى أن البعض ردد أنه لم يعرفني للوهلة الأولى.. فعلاً، لقد تبدلت كثيراً، بدوت مرهقاً ومتعباً، كانوا يريدون أن يعرفوا تفاصيل ما حدث، غير أن أبو ابراهيم أنقذني قائلاً: أتركوا الرجل يرتاح ويفرح بأسرته.. ولكل حادث حديث. ثم التفت نحوي وقال: كنا نصلي لك ونعرف أنك بريء من أي اتهام.

وفيما أنا أنصت للأحاديث المتوالية والترحيب المختلف انتبهت إلى أن معظم أثاث المنزل محطماً: المكتبة، وجهاز التلفزيون.. والزجاج.. ظننت أن قذيفة سقطت قريباً من البيت وأحدثت هذا الخراب. فقالت أمنية: عادوا بعد خطفك واعتدوا علينا، كانوا يريدون أشرطة التسجيل.. في البداية لم أرضخ لهم. خفت أن يكون فيها أشياء ضدك.. لكن بعد التهديد والإعتداء تركتهم يأخذون ما يريدون.. أرجو أن لا أكون قد ارتكبت خطأً.. قلت: لا عليك يا عزيزتي.. لا عليك.

وانتبهت أن أبو توفيق لم يكن من المرحبين والزوار، فآثرت

الصمت.

وبدأ الناس بـالإنسحاب. كـان كل واحـد يقبلني وهو خـارج من المنزل ويدعو لي بطول السلامة. وأثناء ذلك دخل علينا ثـلاثة رجـال مسلحين. فنفرت. لكن أبـو ابراهيم قـال: إنهم من رجال أبو محمد.. لقد وضع حراسة دائمة على المبنى.. حتى لا يعود أحد للاعتداء على منزلك.. فرحبت بهم وسـألت عن أبو محمـد فقال أحدهم: لقد أخبرناه باللاسلكي عن عودتك.. وجئنا نحمل لك تحياته، سيراك قريباً لأنه الآن في مهمة عاجلة.

وبعد انسحاب الجميع، جلست بين أيدي أُمنية وبسام ولينا، وأنا فرح بهم وهم فرحون.

قالت أُمنية:

ــ لا أريـد أن أخبرك بكـل ما حـدث، لن أتعبـك.. ولكن عشت رعباً مستمراً. كنت كلما سمعت سيارة مسـرعة تـدخل إلى الحي أرتجف، وأتـذكر جميـل عندمـا رموا جثتـه على الرصيف، وأنتـظر لحظات قبـل أن أتأكـد أن كل شيء عـادي. لقـد اتصلت بكـل من تعـرفهم، اتصلت بـالسيـاسيين والنـواب وزعمـاء الميليشيـات. وكنت في كـل اتصـال لا أتلقى إلّا التمنيـات حتى فقـدت الأمل تمـاماً. صـرت لا أتوقـع إلّا جثتك ـ لا سمـح الله ـ مرمية على الرصيف.

وعانقتني، وراحت تقبل كل نأمة في وجهي، بينما ظلت لينـا ملتصقة بي، أما بسام فكان يتـأملني بإعجـاب. قالت أمنيـة وهي تشير إليه:

ــ عنـدما عـادوا إلينا ثـانية تحـايلوا في البدايـة، قالـوا إنك ذهبت معهم لإجراء مقابلة مع القائد، وإنهم يريدون آلة التسجيل

والأشرطة بناء على طلبك، كانت عندي أم ناصيف وهي تهدئني وتبث الأمل بي. طلبوا منها أن تأخذ الأولاد إلى غرفة النوم وتغلق الباب كي نتحدث بهدوء. ولكن عندما رفضت تسليمهم الأشرطة وراحوا يحطمون كل شيء في المنزل، تقول أم ناصيف أن بسام أسرع إلى خزانة الملابس وأخرج الكلاشن وخرطشه.. كان يريد أن يخرج إلى الصالون ويطلق النار على المعتدين.. فمنعته ـ والحمد لله ـ وإلّا كانت حدثت مأساة.

قلت لبسام: يا بطل.. كنت أثق أنك ستثأر لي لو حدث مكروه.

فقال لي متباهياً: كنت سأقتلهم يا أبي.. لو تركتني أم ناصيف أخرج إليهم.

قلت: حسناً فعلت أم ناصيف.. ما كان يجب أن تفعل ذلك يا بسام.. إنك ما زلت صغيراً.. ربما كانوا أسرع منك وقتلوك.. ماذا كنت أفعل لو خرجت ولم أجدك في البيت.. الحمد لله.. الحمد لله.

وتذكرت كأن هذا المشهد نفسه مر أمامي في السجن.. هل كنت أحلم فيه.. أم كنت أفكر أن هذا ما قد يحدث.

وتمنيت على أمنية أن تهيىء لي ماء ساخناً لأحلق وأغتسل.. إذ كانت رائحتي الكريهة مزعجة.

وعندما انتهيت من الحمام والحلاقة، ألقيت بنفسي على الفراش ونمت نوماً عميقاً، قالت لي أمنية فيما بعد أنني نمت يومين متواليين دون أن يرف لي جفن، رغم أن بعض القذائف طالت مناطق قريبة من المنزل. كانت تفتح باب الغرفة فتجدني ما زلت نائماً، فتغلق الباب، وتستقبل الزوار الذين جاؤوا يطمئنون

عليّ، أبو محمد وأبو الطيب وكل من عرف أنني عدت إلى بيتي سالماً. وأخيراً، عندما صحوت، أحسست أنني كنت نائماً نومة أهل الكهف، وأن كل ما مضى كان حلماً مزعجاً، وتصورت أن بسام أصبح شاباً ولينا أصبحت صبية.

وأول ما أخبرتني به زوجتي أنها تلقت هاتفاً غريباً ليلة البارحة، من رجل بدا لها مسناً. قال أنا أبو ابراهيم. وتخيلت أمنية أنه جارنا أبو ابراهيم. فطلبت منه أن يصعد ويشرب القهوة. قال لها: أنا أبو ابراهيم.. رجل لا تعرفينه.. ولكن أريد أن أخبرك.. أن زوجك ما زال حياً. وأنه موجود في السجن الفلاني. لقد طلبوا مني أن أخبرك.. وها أنا أؤدي الأمانة.. والسلام عليكم، ثم أغلق الهاتف.

أدركت الآن أنهم كانوا صادقين، رفاقي في السجن، لقد بروا بوعدهم فعلاً.. وعندما رويت لأمنية حكاية رقم الهاتف والسجناء ووعدهم الإتصال بها، دمعت عيناها وقالت لي: ما زال هناك ناس خيرون.. ما زال هناك طيبون.. أمام هذا الشر الذي تتسع بقعته كما تتسع بقعة تلوث في البحر.

* * *

القسم الثالث

الحصار

الفصل العشرون

ظللت زمناً طويلاً أحاول أن أمسح من ذاكرتي تلك الأيـام، وأبو توفيق اختفى من الحي فترة طويلة، ثم علمت من أبـو الطيب أنهم حققوا معه وأدانوه، لأنه افترى، ليس عليّ وحدي فقط، بـل على كثيـرين، بعضهم صفيّ نهـائيـاً، بسبـب الأكـاذيب الـتي اختـرعها. ثم اكتشفـوا أنهم أبريـاء حقـاً، بعض سكـان الحي لم يصدقوا أن أبو توفيق الستيني، الجم الأخلاق، المتواضع، يمكن أن يكون شريراً إلى هذا الحد، ويمكن له أن يلعب بأقدار النـاس مقابل كسب مـادي رخيص. وبعد شهـور، ظهر أبـو توفيق بضعـة أيام في الحي، وعندما عاتبه أبو زياد عما اقتـرفت يداه، نفى نفيـاً قاطعاً علمه بالأمر. ونفى أنه كان جاسوساً على الحي يفتري على هذا وذاك. لكن، لـم تمض أيام أخرى، حتى غادر بيروت نهائياً، وقيل أنه سافر ليعمل بالسعودية في احدى مكاتب شركة التابلاين. نسيـه الجميع، لكنني لم أنسـه أبـداً، ولـم أنس مـا فعله بي حتى اليـوم. وقـد التقيت فيمـا بعـد بـالكثيـر من المسؤولين عن تلك المنظمة، كانوا جميعهم على علم بما حدث لي، فظلوا يعتذرون لي بـاستمـرار، حتى صـرت أخجـل من تكـرار روايـة القصـة إذا سـألني سائـل فيما بعـد. وغفـرت، غفـرت لهؤلاء الـذين كـانـوا يتعرضون كل يوم للفناء. ويتعرضـون كل يـوم للمؤامرات، تحـاك

ضدهم من القريب والبعيد. . ولماذا لا أغفر لهم وبينهم أحبة وأصدقاء ليس أبو محمد أولهم ولا أبو الطيب آخرهم.

وعدت مجدداً أتعاطف معهم، بل ازددت اقتراباً من أبو محمد الذي اصطحبني ذات يوم إلى صيدا، وكان برفقتي إبني بسام، لتشييع شهيد سقط تحت وابل قذائف الطائرات الإسرائيلية، ذهبت معه إلى مخيم عين الحلوة، وحضرت الجنازة المذهلة التي أبكتني وأبكت ولدي ونحن نسير خلف النعش المحمول على أكف الشباب بين شوارع صيدا وأزقتها، وكان خلف النعش أولاد الشهيد التسعة، أكبرهم في الخامسة عشرة من عمره، كانوا يبكون بصمت، ويرفعون أيديهم بشارة النصر، وكان يبدو على وجه الولد الأكبر التصميم والعزم على الثأر. . ولكن أي ثأر، وماذا يملك هذا الفتى أمام همجية الإسرائيليين وقوة سلاحهم. وأنا أمشي وراء الجنازة، أتذكر ما تعرض له هؤلاء، وأتذكر سلاح المقاومة البسيط أمام قوة سلاح الإسرائيليين، وأتذكر أنه مقابل مقتل جندي واحد من جنودهم، يتعرض مخيم كامل للقصف بكل أنواع الأسلحة، فيدفع الثمن عشرات من الشهداء، من الأطفال والنساء عادة، ومن الشيوخ والشبان.

كان أبو محمد، كلما جلسنا معاً على فنجان قهوة، يقول لي: لن يستطيعوا افناءنا، نحن نقاتلهم منذ خمسين عاماً وما زلنا نتكاثر. إن بطون نسائنا خصبة للغاية، وتحبل كما تحبل القطط. كل بطن تحمل أربع توائم من الرجال. الزمن لنا يا أبو بسام. المستقبل لنا، حتى لو جلبوا إلى فلسطين كل يهود العالم سيظلون غرباء بيننا، لن تقبل بهم الأرض، ولن يقبل بهم الماء. . جلدة بشرتهم غير جلدتنا، واحتمالهم غير احتمالنا. . ثم لا تنسى أنهم

محكومون بالتشتت أبداً، مهما تلاقوا، دينهم يقول هذا، ولن يبقى لهم إلّا القليل بين ظهرانينا.. إنني أراه، ذلك اليوم الموعود، سنعود.. وهم سيظلون غرباء أبداً، هنا أو في كل مكان.

وأضحك بمرارة قائلاً له: لا أتصور أنك حالم إلى هذا الحد.. ماذا يفيد التكاثر البشري إزاء التكاثر السلاحي، أنتم بحاجة إلى طائرات ومدافع ودبابات وبوارج وغواصات أكثر من حاجتكم للبشر، أنتم بحاجة إلى الأهم من كل هذا، إلى الأرض، إلى مكان يابس تتمسك به أقدامكم..

لكن حماس أبو محمد يرد عليّ: البشر أهم يا أخي.. الرجال أهم.. صدقني عندما تصدق العزائم، النصر في النهاية للإنسان وليس للآلة. وأسأله: أي نهاية تقصد يا أبو محمد. أنا عشت طفولتي على حلم بدأ يتبدد الآن، حلم استعادة الوطن والانتصار العظيم. ألسنا قوى بشرية هائلة، وأن عددنا قياساً لعددهم يفوق عشرين ضعفاً، فماذا استطعنا أن نفعل كل هذه الأعوام؟ هزمونا في ثلاثة حروب، وكدنا نهزمهم في حرب واحدة لولا الخيانات. لولا التآمر الدولي علينا، وها نحن الآن قاب قوسين أو أدنى من حرب أخرى تتطاول علينا، وأخشى هذه المرة أن تصل إلى ذقونكم.. وإنني أتساءل.. لماذا كل العالم معهم وكل العالم ضدنا؟ ضدنا منذ البداية، ضحكوا علينا، وسخرونا لمآربهم.. ثم تخلوا عنا ليزرعوا هذا السرطان في أعز أرض وأقدس مكان.

هل كنت أتنبأ؟

هذا ما حدث فعلاً فيما بعد.

اجتاحت إسرائيل الجنوب، وخيّل لنا، كما خيّل للجميع إنها ستتوقف عند حدود معينة، كما كانت تفعل كل مرة، تتقدم نحو أربعين كيلومتراً، تضرب وتدمر، وتحاول قتل أكبر عدد من الأبرياء، ثم تنحسر عائدة إلى ما وراء الحدود.

ما الذي حدث في ذلك اليوم الرهيب.

تراجعت كل القوى إلى بيروت، وفي الظن أن الغزو سيفعل، مثلما كان يفعل في كل مرة، يضرب ويتراجع. لكن سرعان ما وضحت الصورة الآن. فالعدو يريدها حرباً حقيقية لا معركة واحدة، هدفها أصبح واضحاً كل الوضوح، إخراج الفلسطينيين وقتل أكبر عدد ممكن منهم ومن حلفائهم، إنها خطة مرسومة وجاء وقت تنفيذها الآن.

بدأت الحرب بغارات مفاجئة على بيروت، وبالذات، على المناطق التي يوجد فيها الفلسطينيون. كانت غارات قاسية، أسراب من الطائرات في أثر أسراب، طوال ثلاثة أيام دون توقف، مستعملة أشرس أنواع القنابل، هدمت مناطق بكاملها، بنايات سقطت فوق رؤوس سكانها، وفيما كانت الطائرات تقصف، عادت الحرب القديمة لتطل برأسها أيضاً، فبدأ القصف على بيروت الغربية من شرقها ومن الجبال المحيطة بها وعادت النار تلتهم الجميع، فلم نعد نعرف تلك الأيام أين يمكن لنا أن نتلافى القذائف والصواريخ وأين نختبىء؟

راحت الإذاعات تروي لنا الأخبار المتناقضة، بعضها صحيح، وبعضها غير صحيح، وبتنا ننتظر الموت، جميعنا أدرك، أننا لن ننجو هذه المرة، فها هو الموت بكل بشاعته يجيء من الجو والبر والبحر، ومن الأهل أيضاً. إنه يدخل أعمق أعماق

الأرض، عبر الأقبية والملاجىء، لم يعد أي مكان آمناً، ومع ذلك، كان لا بد لنا، نحن سكان بنايات رأس بيروت أن نتلاقى في الأقبية، لعل ذلك يمنع عنا، ليس الموت، بل صراخ القنابل ودويها ورعبها على الأقل. أبو ابراهيم يرتل آيات القرآن، الجميع مبهور وخائف. الأطفال يبكون، النساء يرتجفّن، الرجال لم يكونوا أقل خوفاً.. وتساءلت أم ابراهيم: هل هذا هو يوم القيامة؟ كل أبنائها حولها ما عدا وليد الذي لم يترك الهاتف وهو ينتظر من سوزان أن تتصل به من الطرف الآخر من المدينة. الطائرات تضرب الملعب البلدي، والفاكهاني، وصبرا وشاتيلا امتداداً إلى طريق الجديدة، والمزرعة، حيث التجمع الأكبر للفلسطينيين.. ولم توفر الغارات الثكن والتجمعات العسكرية السورية التي كانت موجودة في مناطق كثيرة من المدينة في إطار قوة الردع التي جاءت لتوقف الحرب الأهلية، فنجحت مرة وفشلت مرات.

كانت أصوات الإنفجارات تهز رأس بيروت وبقية مناطق المدينة، قال الدكتور أسعد: القيامة قامت يا أم ابراهيم.. ولسنا بحاجة الآن إلّا لبركتك ودعاويك وصلواتك..

طائرات «كفير» الإسرائيلية تهدر فوق رؤوسنا بصوت يشبه صوت الرعد، بينما كانت تطلق في اتجاهها صواريخ سام من على كتف المقاومين دون أن تستطيع إصابتها، لقد استفاد الإسرائيليون من تجربة حرب ٧٣، عندما كانت طائراتهم تتساقط كالعصافير التي راحت تصطادها صواريخ سام، فوق دمشق فطوّروا طائراتهم ليمنعوا وصول هذه الصواريخ إليها، صارت الطائرات تقذف بوالين حرارية تجعل صواريخ سام تتوه عنها. هذا ما حدث فعلاً، فلم تسقط طائرة لهم. أصبحوا أسياد

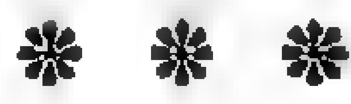
السماء. وراحت الضربات تتوالى فوق رؤوسنا على مدار الساعة، وتحولت السماء والأرض والجبال إلى نيران متبادلة، امتزجت فيها أصوات الإنفجارات على وتيرة واحدة، فكأننا نسمع هدير شلال ضخم من القنابل والصواريخ دون توقف.

كنت قلقاً على أبو محمد، الذي التحق برفاقه في مخيم عين الحلوة منذ بداية الغزو، لكن القوات الغازية، احتلت صيدا، واحتلت مخيم عين الحلوة بالذات، بعد مقاومة ضارية، دخلت قوات الغزو في أثرها على الأشلاء. خفت على أبو محمد. كنت أعرف أنه يفضل الموت على الأسر. كان دائماً يقول لي أنه سيقاتل حتى يقتل. لن يرفع علماً أبيض أبداً. كان أبو محمد على مدى السنوات العشر الماضية، يدرب شبان عين الحلوة على المقاومة والقتال، بل أصبح المخيم معقله الأول، وكان كثيراً ما يحدثني عن تحصينه ضد كل هجوم. لكن المخيم سقط في النهاية، كما سقطت صيدا. ومن قبل بلدات الجنوب كلها.. فأين أبو محمد؟ صلينا جميعاً من أجله وأجل رفاقه، رجونا الله أن ينجيه ويساعده.

وعندما استطاع أبو الطيب زيارتنا، في يوم من أحلك أيام بيروت سواداً، طمأننا على أبو محمد، روى لنا كيف قاتل مع سكان المخيم قتالاً شديداً، واستطاع الإنسحاب مع رفاقه بعد أن تعرضوا لضغط شديد صوب الجبال. وهو الآن يعيد تجميع قواته خلف الخطوط. وحمدنا الله أنه لم يقع في الأسر. كان أبو الطيب متحمساً، فقال لنا: هذا يومنا يا أبو بسام.. صدقني، هذا يومنا. غداً أدعوك إلى غذاء سمك على شاطىء حيفا. هم يتصورون أنهم سينالون رقابنا. خسئوا. والله سنردهم على أعقابهم،

ونلاحقهم إلى قلب بيوتهم التي كانت بيوتنا ذات يوم.

حماس أبو الطيب لم يغير من وجهة نظري، فقد كنت أدرك أن المخفي أعظم، وإسرائيل لم تقدم على هذه الحرب إلّا وقد حسبت لكل شيء حسابه. وواضح أمام هذا التشتت العربي، أن أحداً لن يستطيع التدخل. والخلافات المتجذرة في ألف إتجاه، شجعت إسرائيل على القيام بحربها الجديدة هذه. تذكرت أبو محمد عندما كنا نتناقش فيما آلت إليه حالتنا. كان يقول لي: أكثر من جهة لها مصلحة في تصفيتنا. كان يقول أيضاً: صدقني.. لقد أصبحنا عبئاً على العالم. وما حادثة عين الرمانة إلّا بداية البداية، تصفيات مخيماتنا هنا وهناك جزء من المؤامرة، كل العالم شرقه وغربه يريد القضاء علينا، إننا مثل الصبي الأزعر الذي أصابته لوثة من الجنون، وصار يحطم كل شيء يصادفه في طريقه، لقد دفعنا اليأس إلى القيام بأعمال غير مسؤولة. فعلنا المستحيل لنلفت أنظار العالم إلى مأساتنا، لكن الأساليب التي استعملناها جعلتنا نبدو خطرين على العالم، أقول لك: لو جاءت إسرائيل يوماً إلى بيروت لن نجد أحداً يقف إلى جانبنا.



دخل أبو الطيب علينا في الملجأ، فالتمعت عينا ريتا بدهشة جميلة. كانت مرتعبة مثلنا جميعاً، لكن دخول أبو الطيب المفاجىء ببذلته الكاكية وبكوفيته المرقطة التي تركها على كتفيه، وبندقيته الرشاشة، جعلها تطمئن قليلاً، فانزاح عن وجهها بعض أمارات التوتر. كانت قد اتخذت زاوية الملجأ مكاناً ثابتاً لها، وفي ظنها أنه أكثر أمناً. لم يستطع أبو الطيب التوجه نحوها مباشرة، تظاهر أنه جاء ليسلم عليّ وعلى بقية رجال الحي الذين

أصبحوا يكنون له كل الود. كنت أعرف، أنه جاء أولاً لـلاطمئنان على ريتـا. كان المبنى يهتـز باستمـرار من قسوة الضـربـات التي نسمعها من الخارج. قال موجهاً كلامه للجميع: لن يضرب العدو هنا. صدقوني، إنهم يضربون هناك، حيث نحن، شيبـاً وشبابـاً، إنهم يضربون هنـاك لإفنائنـا. إننا الأخـطر عليهم، لهذا يضـربون هناك. لا حاجة لكم لكل هـذا الخوف. فـرد أبو ابـراهيم قائـلاً: إنهم لن يفرقوا بين مكـان ومكان. عنـدما ينتهـون منكم سيلتفتون إلينا، بل سيفعلون بنا ما فعلوا بكم. لكنني، والله، يا أبو الطيب، سأتمسك ببيتي. لن أبرحه ولو هدم فوق رأسي.

قال أبو الـطيب: كان هـذا ما يجب أن نفعله نحن من زمن. صدقنا يا أبو ابراهيم الإذاعات. صـدقنا الخـطب الهوجـاء، حتى أننا حملنا مفاتيح بيـوتنا معنـا. إنك تتكلم الحق يـا أبو ابـراهيم، لكنهم هذه المرة لن يستطيعوا اقتلاعنا. سنردهم.. سنردهم. لن نسمح لهم باحتلال عاصمة عربية أخرى.

قال أبو ابراهيم:

– كفى تفاؤلاً يا أبـو الطيب. يـدي على قلبي. إنهم ينوون دخول المدينة.

– لن يـدخلوا إلاّ على جمـاجمنـا.. ونحن لهم الآن.. سنقاتلهم حتى الرمق الأخير..

أبو ابراهيم قال بغضب:

– يعني ستشاركون في تدمير المدينة.

– وهـل تريـدنا أن نـرفع العلم الأبيض كي تسلم المـدينة؟ هـذا قدرنـا وقدركم أن نقـاتل وأن نـدافع عن بيـروت. هـذه هي الحرب يا أبو ابراهيم.. ولست أستطيع غير أن أقاتـل حتى الرمق

الأخير.

البناء يهتز، شعرت كأنه سيسقط فوق رؤوسنا. كانت ريتا خائفة، تنظر نحو أبو الطيب بعينين فزعتين كأنها تطلب منه أن ينجدها. دخل علينا عابر سبيل غريب عن الحي وقد امتلأ بالغبار والهباب، صاح بنا أن قذيفة سقطت في رأس الشارع فدمرت السيارات المتوقفة وأشعلت حريقاً. تذكر أبو ابراهيم أن برميلاً كبيراً من المازوت تركه أبو محمد الداعوق في ساحة القبو الخارجية احتياطاً لوقود تدفئة منزله، كان أبو محمد الداعوق قد ترك بيروت مع أسرته منذ الأيام الأولى للغزو وسافر إلى دمشق. قال أبو ابراهيم: الله يستر.. لو وصلت النار إلى المبنى لانفجر البرميل وأتى على البناية كلها.. قال أبو الطيب: إذا أردتم التخلص من المازوت نحمله إلى أقرب فرن لصنع الخبز.. إن الأفران تعاني نقصاً من المازوت.. قال أبو ابراهيم: ومن يتجرأ تحت وابل هذه النيران أن يحمل برميل المازوت إلى الخارج. فرد عليه أبو الطيب: أرجو من الله أن يساعدنا فلا تقرب منا النار.. لكن علينا أن نفكر بوسيلة لإخراج هذا البرميل من المبنى.. سوف أحاول. سأطلب من فرقة الطوارىء أن تحضر وتخرج البرميل من هنا.

صبرنا ساعات، ونحن في القبو، استطاعت أم ابراهيم خلال ذلك، أن تعد لنا بعض الصندويشات التي التهمناها بسرعة، فقد كنا جياعاً حقاً. ومع قدوم الظلام انحسرت الطائرات عن المدينة، لكن القصف الشرقي ظل يطالنا برتابة.. إلى أن خفت حدته مع قدوم منتصف الليل. فخرج كل منا ليتفقد بيته. كان الظلام دامساً، فأشعلت أمنية شمعة وأمسكت بولديها وبدأت

تصعد الدرج، وخلفها أنا، تلكأ أبو الطيب حتى صارت ريتا إلى جانبه. فسمعتها تقول له: ستبقى عندنا. . لن أسمح لك بالذهاب. . وماذا كان يريد أبو الطيب غير ذلك، لكنني فوجئت يقول لها أنه لن يستطيع، لقد جاء ليطمئن عليها، وعليه الآن العودة إلى قاعدته، ثم ترتيب خطة لإخراج برميل المازوت من المبنى.

كنت أسبقه ببضع درجات، فنادى عليّ. استجبت ورجعت. قال لي هامساً: لا أريد أن أوصيك. هذه نصف حياتي. وأشار إلى ريتا. نظرت نحوها، كانت الشمعة التي في يدها ترتجف، وقد وقفت إلى جانبها أمها قلقة ومحتارة ماذا تفعل، فأجبت أبو الطيب بهمس أيضاً: ولو يا أبو الطيب. . ، ريتا غالية على الجميع. . أمسك أبو الطيب بيد ريتا وقبلها على عجل. . ثم هبط الدرج مسرعاً واختفى. فقالت ريتا: هل تزورنا لنأخذ فنجان قهوة. .؟ رحبت بالفكرة. . لكن أمنية صاحت من أعلى: ألا تصعد. . هيا. . تعال ساعدني. . فلبيتها، وأسرعت لأحمل لينا بين ذراعي، كانت نعسانة ومتعبة. أما بسام فظل مشدود القامة إلى جانب أمه، يريد أن يصبح رجلاً بسرعة. فما زال مهووساً بالبنادق والرجال الملثمين بكوفياتهم، أما أنا، فكنت أفكر بالغد، ماذا سيأتي به الغد؟ وأحسست بتشاؤم يغمرني، كانت أمنية تسبقني ببضع درجات تصعد على مهل وأنا خلفها. وما أن رأينا فراشنا حتى سقطنا عليه متعبين. . فغداً يوم آخر.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

ظلت أسراب الطائرات الإسرائيلية تضرب المدينة منذ الصباح الباكر، فتترك أمنية البيت مصطحبة معها ولديها، بعد أن تلحّ عليّ أن أهبط معهم إلى الملجأ. . وأرفض ذلك، كنت أعرف، ـ كما يقول لنا أبو الطيب ـ أننا لسنا المستهدفين في رأس بيروت، وأن الطائرات تضرب في عمق المناطق التي يتكاثر فيها الفلسطينيون، صبرا وشاتيلا والطريق الجديدة والمزرعة والفاكهاني كما أن كل القيادات تتجمع هناك أيضاً.

لم تكن المقاومة الأرضية على مستوى الغارات المتتابعة، كنا نسمع في الإذاعات أن طائرات أسقطت، لكننا لم نر بالعين المجردة أي طائرة سقطت. . كان واضحاً أن تلك الأخبار لرفع المعنويات. وفيما القوات الإسرائيلية تتقدم لتحكم حصارها حول المدينة، حدث الصدام الكبير بين قوات الردع السورية والقوات المهاجمة في المناطق المتاخمة لبيروت، وكان واضحاً أن القوات السورية لم تكن بحجم رد هجوم كبير من هذا النوع، ومع ذلك قاومت تقدم القوات المهاجمة ببسالة منقطعة النظير، وبالفعل استطاعت أن توقف الهجوم في الجبال المحيطة ببيروت. كما أن القوات الموجودة داخل المدينة، استطاعت أيضاً أن توقف الهجوم عند مدخل خلدة في الجنوب. إلاّ أن الضغط استمر

بمختلف أنواع الأسلحة الحديثة، وبغارات لا تنقطع، مما اضطر قوات الردع إلى التراجع نحو صوفر منسحبة من عاليه وبحمدون. . وهكذا أحكم الحصار تماماً، ودخلت جحافل الدبابات الإسرائيلية إلى شرق المدينة حيث استقبلت من السكان استقبال الفاتحين، لكنها لم تستطع عبور بوابة المتحف إلى القسم الغربي من المدينة إذ جوبهت بمقاومة عنيفة من جميع القوات والميليشيات التي أصبحت صفاً واحداً، حتى أن خبراً غريباً من نوعه أذيع في إذاعة إسرائيل يقول أن الدبابات الإسرائيلية تقدمت عشرة أمتار صوب المزرعة. . فعلق أبو الطيب ساخراً: أنظر. . صاروا يحسبون إنتصاراتهم بالأمتار. . وفي كل مرة، كانت هذه الدبابات في مد وجزر خلال أمتار فقط، وحدث مثل ذلك بالنسبة لمدخل المدينة من جهة خلدة. إذ استطاع السوريون صد الهجوم بمقاومة عظيمة، وبقينا على هذه الحال أياماً عديدة. فلم تعد تصلنا المياه ولا المواد الغذائية، وفقدنا الحصول على الخبز وأبسط المعلبات المحفوظة. ويوماً بعد يوم صار الحصار يشتد. وظلت الطائرات في غارات مستمرة، بينما تركزت أرتال الدبابات في الهضاب المحيطة بالمدينة تقصفها عشوائياً، بينما انتشرت زوارق حربية إسرائيلية في عرض البحر، وراحت تقصف غرب بيروت والمطار والجبل بآلاف القنابل والصواريخ دون توقف. وتحولت المدينة إلى لهب من نار، ولم تسمح كثافة القصف لواحد منا أن يتحرك خارج منزله. كنا مع هذه المعركة نواجه معركة أخرى أشد مرارة ـ كما قال الدكتور أسعد ـ إنها معركة تحطيم المعنويات التي تبثها الإذاعة الإسرائيلية وإذاعة الكتائب والإذاعات الحليفة لهما. فنسمع أن اختراقا

حدث من الجنوب، وآخر من الجبال، وكانت هذه الأخبار تصور لنا المقاتلين يتركون أسلحتهم في أرض المعركة ويولون الأدبار حتى أن هذه الإذاعات بثت خبراً تكرر عشرات المرات أن الطريق إلى الشمال مفتوح.. وأن الطائرات لن تقصف الهاربين نحو الشمال، بل ستحميهم إذا أسرعوا بالهرب، لأن الجيش الإسرائيلي عندما يقتحم المدينة سيقتل كل من يقف في وجهه.

لكن تحطيم المعنويات هذه لم يؤثر بالسكان، بل ولم يؤثر أبداً برجال المقاومة، كنا نراهم ـ عندما يتاح لنا ذلك ـ يعبرون شوارع رأس بيروت وهم يشتعلون حماساً، بل أن أبو الطيب كلما زارنا كان يشد من عزيمتنا ويعلن أن ساعة الخلاص قد حانت، وأن العد العكسي بالنسبة للإسرائيليين قد بدأ فعلاً. فيهمس أبو ابراهيم متضايقاً من هذا التفاؤل ويقول: عد عكسي.. منذ متى ونحن نقول العد العكسي بدأ بالنسبة للإسرائيليين، وفي كل مرة يتوسعون أكثر.

لكن ما حدث ذات يوم لا ينسى.

فقد أذاعت إذاعة «صوت لبنان» التي يبثها حزب الكتائب في شرق المدينة، وفي نشرتها الصباحية الأولى أن إنزالاً إسرائيلياً بدأ مع خيوط الفجر في منطقة الحمام العسكري على الشاطىء المتاخم لرأس بيروت مباشرة..

وما أن بث الخبر، حتى حدث الهيجان العظيم.

نهضت بيروت الغربية بأسرها، وبدون تنظيم، بل وبدون دعوة من أحد، هبت الجماهير من كل مكان، كل واحد يحمل السلاح الذي بحوزته.. ورأيت من شرفة بيتي شيئاً لا يصدق، أبو زهير شمّر سرواله إلى فوق ركبته، وشهر سيفاً كان يحتفظ به

في كوخه، سيفاً صدئاً لا يستطيع أن يذبح دجاجة، ومع ذلك كان يقول عنه أنه سيف زين العابدين إذا شهره يصبح حداً كالشفرة، لا. فعلاً لم أكن أتخيل، فما أن شهره عالياً حتى لمع حده لمعاناً أعمى العيون، وأخذ يصيح بصوت كأنه آلاف الأصوات دفعة واحدة: الله أكبر. . الله أكبر. . هيا يا رجال. لقد حانت ساعة الحساب. . وراح مهرولاً نحو الشاطىء، فإذا بمئات وراءه يهرولون وهم يصيحون بصوت واحد: الله أكبر. . الله أكبر. .

وراحت المدينة تهدر كالرعد، رجال تركض بالبنادق والعصي والكلاشينكوفات بينما النساء يزغردن كأنه يوم عرس كبير، وقد انتشرن على الشرفات وهن يلوحن للرجال الزاحفين نحو الحمام العسكري دون أن يدور بخلدهم أنهم سيواجهون جيشاً وبوارج وطائرات. كانت الحماسة طاغية على الجميع، حتى أن المختبئين خلف أبواب بيوتهم ومداخل البنايات خرجوا جميعاً إلى عرض الشارع، أبو ابراهيم نراه لأول مرة يحمل بندقيته التي تركها له ذات يوم أبو محمد ويصرخ علينا الواحد تلو الآخر، وبالأسماء: هيا. . ماذا بكم أيها الجبناء. خجلنا من أنفسنا، وخرجنا جميعاً، أبو النبل، وأبو زياد، سعيد بطاطا والدكتور وجميع رجالات الحي نلحق بأبو زهير ونحن نصيح مع الصائحين: الله أكبر. . الله أكبر.

وما أن أطللنا على الروشة نزولاً نحو الحمام العسكري حتى رأينا الألوف من الرجال قادمين من كل حدب وصوب وهم يهزجون باسم الله أكبر. شيوخ وشبان، أشكال من البشر زاحفة نحو الموت: إنه يوم الشهادة. .

ـ هكذا صرخ أبو ابراهيم ـ

لكن ما ان اقتربت هذه الموجات البشرية من الحمام العسكري حتى أدركنا الخدعة الرهيبة، فلم يكن هناك أي إنزال بحري، إذ وقعنا في الفخ، وأخذت البوارج الإسرائيلية تصب حممها علينا بدون استثناء. . فراح الرجال يتساقطون كالعصافير. . وحدث هرج ومرج، وتحول الضجيج الحماسي إلى صراخ وألم وعذاب، وصار البعض يساعد في حمل الجرحى بعيداً. بينما تركت عشرات الجثث في مكانها.

وعدنا القهقرى إلى الحي، أصيب أبو ابراهيم بجرح طفيف في جبهته، أما أسعد فلم ينتبه أن قدمه اليسرى كانت تنزف دماً. أبو زهير عاد منكس الرأس وسيفه يجره خلفه وقد بدا لنا مهدماً حزيناً. أبو زياد كان يردد: الكلاب. . خدعونا. فيما سعيد بطاطا يتوعد الخونة من العرب والعالم. وما أن وصلنا إلى الحي حتى سقطنا أعياء على درج المبنى، اختفت النساء من الشرفات. وساد الحي سكون رهيب. حتى البوارج كفت عن القصف. . فقد كان الصيد ثميناً للغاية، حصاده عشرات القتلى ومئات الجرحى، وخيّم الحزن على غرب المدينة كلها. . إلاّ أن النفوس كانت تضطرم بالغضب.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

هذه المرة أبو ابراهيم

فقد تابعنا أخبار وليد الذي استطاع أن يعبر غرب المدينة بمساعدة أبو جميل إلى شرقها، واصطحب معه سوزان بعد أن تم زواجهما بسرعة، عبر البحر إلى قبرص لمتابعة أمور المنحة التي حصل عليها للسفر إلى أمريكا وإتمام دراسته، لكن الفرحة لم تكد تصل إلى رأس أنفنا، حتى وقع الخبر الآخر علينا وقوع الصاعقة: لقد قتل أحمد أصغر أبناء أبو ابراهيم برصاصة طائشة بينما كان يحاول الحصول على الخبز من أحد أفران الطريق الجديدة، كان أحد رفاق أبو ابراهيم هو الذي شاهد الحادثة، حمل الشهيد بسيارته إلى مستشفى الجامعة الأميركية، ثم كتب رسالة قصيرة سلمها إلى سائق تكسي ونفحه الأجرة كي يوصل الرسالة إلى أبو ابراهيم، وقال لأسعد فيما بعد أنه كان يخشى نقل الخبر إلى أبو ابراهيم. فهو يعرف أن أحمد أحب أولاده إليه، وأنه كان يخاف عليه أكثر من خوفه على نفسه. ولا يدري كيف سمح له بالذهاب إلى الطريق الجديدة للحصول على الخبز. وقدّر الدكتور أسعد الموقف وقال: لا شك أن أحمد لم يجد خبزاً في الأفران القريبة، فغامر بالذهاب إلى هناك حتى لا يعود بدون خبز.

كـان الخبـر قـاسيـاً على أبـو ابـراهيم وأولاده جميعــاً، ففي الصبـاح كان يحـدثنا بفـرح عظيم عن إبنـه وليد وزواجـه بسوزان وسفـره إلى أمريكـا، لكنه في المسـاء كان يبكي كـالأطفال. ولم يكن وحـده الذي آلمـه المصاب، بـل أهـل الحي جميعـاً. قـال أسعد: كانت الأم مفجوعة بمقتـل خضر شـاتيلا. وكـانت تضرب كفـاً بكف، ومن خلال نـدبها على إبنهـا أحمد كـانت تنادي على خضر: أخوك أحمد لحق بك يا خضر. أحمد الذي كـان يحلو له اللعب معك، والسباحة في البحر معك، ولعب كرة القـدم معك، ها هو مثلك شهيد من غير أن يكـون له دخـل في كل مـا يجري، وكما قتلوك غيلة قتلوه.

كـان أبو ابـراهيم يحاول مـواساة زوجتـه، لكن دموعـه كانت تفضحه، فيعود ليندب مع زوجته إبنهما الراحل.

الحي بأكمله أصيب بالـوجوم، صمت فـاجع، لا يسـود عليه إلّا صـوت الشيـخ عبـد البـاسط عبـد الصمـد من خــلال مسجلة الخياط موسى وهو يرتل القرآن الكريم. كان مـوسى لا يكفـ أبداً عن الاستماع إلى ترتيل القرآن داخل محله.. ولكن عندما يصيب الحي مصيبة من هذا النوع يخرج الـراديو إلى رصيفـ المحـل ثم يضع شريط القـرآن ويفتح صـوت الراديـو إلى آخره. كتعبيـر عن مشاركته المصاب الذي ألمّ بالجميع.

ويوم شيّع الحي أحمد، تذكر الجميع تشييـع خضر شـاتيلا. ولم يأبه أحـد للقصفـ المتوالي من البـر والبحر والجـو، المدينـة كلهـا كانت تهتـز تحت هذا القصف النـاري. ومعظم النـاس في المــلاجيء. لكن حي التنـوخيين كــان خـارج هــذا الخــوف. فـأبو ابـراهيم عزيـز على الجميع، وهـا هـو مصـاب في فلذة من

فلذات كبده أصغر أبنائه أحمد. وكان أشد الفتيان حزناً إبني بسام، الذي ظل يبكي زمناً طويلاً، ولم تكن لينا أقل منه بكاء، حتى أن أمنية قالت من خلال دموعها: يا إلهي.. كم يتعذب هؤلاء الأولاد. إنهم يرون الهول في الوقت الذي يجب أن يكونوا فيه في أحلى حالاتهم. ماذا سيخبىء لهم المستقبل أكثر وأشد شراسة مما يعيشونه الآن. وأسعد، بين الحين والآخر، يقول ما يشبه أقوال أمنية: هذا الجيل معذب.. لم يروا شيئاً من حلاوات الدنيا، نشأوا على صوت القنابل والرصاص والموت، منذ ثماني سنوات إلى الآن وغبار الحرب يزكم أنوفهم. كانوا أطفالاً صغاراً عندما اندلعت نار الحرب، ها هم الآن فتيان وشبان وشابات، لم يعرفوا سوى الاختباء في الملاجىء وعتمة الليل والنهار، لم يعرفوا سوى الموت والدمار والخوف. ولا أدري ماذا ستكون حالتهم في المستقبل. أي عقد سيحملونها داخل نفوسهم، وأي حقد سيعيش داخل أعماقهم. الخفي أعظم، والذين عاشوا هذه الأهوال الساحقة ماذا سيكون مصيرهم فيما بعد؟

الصورة ذاتها تكررت يوم تشييع أحمد، جاءوا بالنعش من مستشفى الجامعة الأميركية، كل شبان الحي حملوه على الأكف وهم يهزون أهازيج الشهداء. بدا لي النعش خفيفاً بين أيدي الشبان. كان أحمد نحيلاً ورشيقاً. كنا نحبه جميعاً، كان أقل الأولاد ضجيجاً ولعبا، وفي أيام الهدوء كنا نراه ملتصقاً بأبيه حيث يمشي الأب. أو جالساً قرب أمه على ذلك المقعد الواطىء ليلتصق بها أكثر. ولد أشد نعومة من البنات، لا يكاد يظهر منه صوت. ويوم غادرنا خضر شاتيلا كان أحمد وحده أقل بكاء، كأن حدسه كان ينبئه أنه لاحق به آجلاً أو عاجلاً. وكان أشطر رفاق

مدرسته. ورغم مآسي الحرب، وعدم انتظام الدراسة في المدارس كان أحمد شغوفاً بالدراسة، ظل يقول أنه يريد أن يصبح ضابطاً في الجيش، أو طياراً. لكن أسعد كان يمزح معه دائماً ويقول له: يا أحمد كل جيداً حتى تسمن. أنت نحيف أكثر من اللازم.. فيضحك أحمد ويقول له: لا يا دكتور.. أنظر محمد كيف يسير بطيئاً كأنه دبابة.. بينما أنا أستطيع لعب كرة القدم والسباحة والركض بخفة طائر.

والنعش فوق الأيدي تذكرت مداعبات أسعد. حقاً إنه طائر، لعله طائر الفينيق. ربما هو.. تخيلت بسرعة البرق كأن النعش يفتح وينهض أحمد من داخله.. يصفق بجناحيه ويطير. يا إلهي.. إنه يطير فعلاً. كم كان يهوى الطيران.. وبدا لي النعش فوق أكف الشبان خفيفاً كريشة.. لم ير أحد ما رأيته من شرفة منزلي. أحمد بطفولته الرائعة يحلق فوقنا جميعاً، بجناحين ناصعي البياض. وتذكرت كلمات أبو ابراهيم كلما مر بنا تشييع شهيد ما: الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، يا إلهي.. من رأى ما رأيت؟ تابعت بعينين دامعتين هذا الطائر العظيم يشق عباب الفضاء بعيداً بعيداً، حتى أصبح غيمة بيضاء تخترق حجاب الأفق.. لا.. لم أكن أتخيل، ما رأيته رأيته بأم العين، أتذكره بكل تفاصيله، وفيما بعد كانت جثة أحمد توارى التراب، رفعت رأسي نحو السماء فرأيته، رأيته هو نفسه يطل علينا وعلى وجهه إمارات سعادة لا توصف.

وأنا أعزّي أبو ابراهيم في المقبرة ذكرته بحكاية الشهيد الذي سيظل حياً عند ربه، فأشرق وجهه بنور مضيء، قلما شاهدت مثله من قبل. ورأيت كأن شيئاً من الداخل هزّه، إذ توقفت دموعه

فجأة والتمعت عيناه ببريق المؤمن الذي يـركن إلى القدر بسـلام. مسـح دموعـه بباطن كفـه، ثم ردد أمامي: كـل هذا مشيئـة الله يا أبو بسام.. حفظ لك بسام من كل مكروه.

وخـرجنا من المقبـرة. وكنت بين الحين والآخـر أرفـع رأسي إلى السمـاء فأرى ذلـك الطيـر الأبيض يلاحقنـا ببطء. خشيت أن أقول شيئاً.. خشيت أن أكون متخيلاً.. فصمت.. وثمة ما جعل أبو ابراهيم ينهض من حـزنه. ويـرفع رأسـه إلى السماء. ويـردد: برعاية الله يا بني..

ترى هل رأى ما رأيت.. خشيت أن أسأله. إتكأ أبـو ابراهيم قليــلاً على كتفي، ثم تـوقف، التفت إلى الخلف، وألقى نــظرة أخيرة نحو المقبـرة، ثم نظر نحـو أبنائـه الواحـد تلو الآخر. بعـد لحـظات مضينا ونحن نسمـع أبو ابـراهيم يردد: إنـا لله وإنـا إليـه راجعون.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

تابعت إسرائيل حربها الإعلامية، فصارت ترمي طائراتها فوق المدينة آلاف المناشير تطلب من السكان الهرب شمالاً، استبسلت المقاومة وازداد إيمان الناس رسوخاً للتشبث بالبيت والأرض، فلم يهرب أحد. بل تطوع في صفوف المقاومة الكثير من الذين كانوا يقفون على الحياد، وعجزت المقاومة عن مد كل هؤلاء الناس بالسلاح، فحدث ما لم يكن في الحسبان، إذ سرعان ما قامت اتصالات سرية ببعض الإسرائيليين عبر خطوط الحصار كان من نتيجتها أن خضع هؤلاء للإغراء الذي قدم لهم، وهو عبارة عن آلاف الدولارات وعشرات المغلفات من الحشيشة والأفيون، ففتحوا عدة ثغرات لمد المدينة بالمواد الغذائية عبر الجنوب، ولتهريب السلاح أيضاً الذي كان يسرق من مخازن الجيش الإسرائيلي.

وفجأة، وبعد طول احتباس للمواد الغذائية ظهرت شاحنات صغيرة في شارع الحمراء والشوارع المتفرعة منه، تحمل أطناناً من المواد الغذائية الطازجة كالبندورة والقرنبيط والباذنجان وكل ما تطلبه الأسر من مواد إضافة إلى فاكهة الجنوب المشهورة. . وأشرف على هذه الشاحنات ضباط يساعدهم رجال آخرين، وكانوا يبيعون «البضاعة» بأسعار رمزية، وقال لنا أبو سعيد زوج

السيدة سناء ورجل المقاومة الذي يسكن بجوارنا، أنهم كانوا يشترون هذه المواد بأسعار خيالية من مزارعي الجنوب، ويهربونها عبر تلك الثغرات من الخطوط الإسرائيلية لتصل إلى المدينة، فيبيعونها. وكان هناك من أشار أن توزع هذه المواد مجاناً، لكن سرعان ما استبدلوا بهذا الرأي رأياً آخر أكثر صواباً: نبيع بأسعار رمزية لئلا يحدث بين الناس تزاحماً واشتباكات للحصول على قوت يومهم. وبالفعل فقد كان هذا التصرف ناجحاً. إذ استطاع كل الناس الحصول على المواد الغذائية وبنظام منقطع النظير.

ومع ازدياد الحصار شراسة، كانت الثغور تعمل ليلاً نهاراً، مقابل تلك الرشاوي التي كانت تدفع باستمرار للجنود الإسرائيليين، حتى أن شاحنات صغيرة حملت الطحين من الجنوب ومن شمال إسرائيل بالذات ودخلت بيروت، وقد نالنا نحن في حي التنوخيين عدة أكياس من الطحين رماها رجال المقاومة على مدخل بنايتنا، فأشرفت أم إبراهيم بنفسها على صنع عجينة الخبز وقسمتها إلى أرغفة بمهارة تبز مهارة الخبازين أنفسهم، وكان منير شاتيلا ورفاقه يحملون هذا العجين إلى فرن صغير على الحطب يقع على هضبة تقع في آخر شارع اللبان، وسرعان ما يعود لنا بالخبز طازجاً وطيباً ويوزع على الجميع. وكانت هناك أسر كثيرة فقدت دخلها وشحت مدخراتها، فإذا بأبو سعيد يحضر إلى الحي ذات يوم وقد اصطحب معه ثلاثة رجال آخرين، ووزع أموالاً على هذه الأسر مقابل إيصالات، وكان إذا قدم مالاً إلى البعض، تعففوا عنه لأنهم ليسوا بحاجة له. واكتشفنا أن الذين حصلوا على المال لم يأخذوا إلاّ حاجتهم، طالبين من أبو سعيد أن يقدم الفائض إلى أسر أخرى

في الشوارع والأحياء المجاورة.

دب الحماس في كل إنسان، ولم نعد نرى كسالى يختبئون في الملاجىء، أو وراء الجدران، فقد عرف كل إنسان واجبه، وقال لنا أسعد ذات يوم.. أنظر.. الآن توحّد الشعب، فعندما يدق بابك عدواً فإن الخلافات تذوب، ويصبح الكل واحداً. كان هذا صحيحاً بالفعل، حتى أمنية زوجتي صارت تصنع كل يوم طعاماً لعشرات المقاومين، وغالباً ما حضر أبو الطيب ورفاقه ليسدوا بعض جوعهم من هذا الطعام. على أن الأكثر غرابة كانت ريتا، ريتا كانت تقبع في زاوية من زوايا الملجأ خوفاً وارتعاداً، إذا بها تعلن لأبو الطيب أنها قررت التطوع لتخدم في مستشفى للمقاومة، وكاد أبو الطيب يطير فرحاً.. ها هو الحس الإنساني ينهض من أعماق هذه المرأة الجميلة ـ كما كان يقول ـ وسرعان ما التحقت ريتا ـ رغم اعتراض أمها ـ بذلك المستشفى بعد أن خضعت إلى تدريبات عاجلة، ثم، إذا أطلت لبضع دقائق على الحي لزيارة أمها، رأيناها بصورة مختلفة كلياً عما كنا نراها في السابق، ممرضة بثيابها البيضاء وقد حزمت شعرها الذي كانت تعتني به في السابق عناية كبيرة، حزمة واحدة تحت قبعة الممرضة، وأزالت عن وجهها تلك الأصباغ فبدت لنا أكثر جمالاً وبراءة، حتى أبو ابراهيم صار يردد: سبحان مغير الأحوال، ثم يعلق: من كان يفكر أن تكون هذه المرأة على هذا الوعي؟.. كم ظلمناها..؟

وكلما ازداد الحصار شدة واختناقاً، أصبح غرب المدينة أكثر تماسكاً. وكنا ننصت بين الحين والآخر إلى إذاعة المقاومة لنتأكد من تلك الأخبار التي كانت تذيعها إذاعات إسرائيل والكتائب،

فنسمع صوت أبو الطيب وهو يصرخ بلهجته الفلسطينية: سنقاتلهم حتى أبواب تل أبيب. وكانت هذه الإذاعة تصلنا قوية أحياناً وأحياناً ضعيفة جداً.

وذات يوم اقترح أبو الطيب أن يصطحبني إلى هذه الإذاعة، فعبرت له عن خوفي: يا أبو الطيب أنا عندي أسرة وأولاد. قال: كلنا في الهوا سوا، قم وامشِ معي، الإذاعة اليوم قريبة منك، إنها في منطقة فردان خلف السفارة الأردنية، فمشيت معه على مضض، إلى أن وصلنا مبنى من عشرة طوابق. ونزلنا عدة أدراج أسفل البناية وطرق أبو الطيب طرقات محددة كانت عبارة عن شيفرة سرية، ففتح الباب وما ان دخلنا حتى قال لي: هنا الإذاعة.

استغربت، فلم أرَ أمامي غير بضعة شبان على طاولة، وهاتف لاسلكي يتلقون فيه الأخبار ثم يسجلونها على الورق.. ولم يكن ما ينبيء أننا في إذاعة فعلاً. قال أبو الطيب: تعال إلى الاستديو. وشدني من يدي إلى زاوية القبو، الذي بدا لي الآن أنه عبارة عن مخزن للمبنى كله، فيه أشياء قديمة محطمة جمعت في الزاوية. وإلى جانب هذه الأشياء شيء يشبه الكوخ، شيء من الكرتون المقوى وما أن دخل أبو الطيب إليه حتى رأيت في الداخل نوراً خفيفاً على طاولة صغيرة وعليها ميكرفون إضافة إلى مقعد لا يتسع إلّا لشخص واحد. قال أبو الطيب ضاحكاً: هذا هو الاستديو، ثم أشار بسبابته أن أصمت. رفع يده عالياً، فاشتعل ضوء أخضر أمام الميكرفون، وهنا بدأ أبو الطيب يرتجل خطاباته الحماسية إلى المقاتلين.. وفيما هو يرتجل كان أحد الشبان يضع أمامه أوراق فيها أخبار عن سير المعارك في أطراف المدينة،

فيتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه. ثم يـذيع الأخبـار بصوت مختلف، هـادىء ورزين، وخلال ثلث سـاعة تقـريباً، كـان يشتعل حمـاساً كلما تلقى خبراً جديداً يشيـر إلى انتصار مـا، ثم ختم تلك الفترة بعبارة: أيها الأبطال إلى اللقاء في تل أبيب.

كنـا في شهـر تمـوز الـذي تلتهب بـه بيـروت في أشـد أيـام الصيف حـرارة، فخرج أبـو الـطيب من ذلـك الكـوخ الكـرتـوني يتصبب عـرقـاً. التفت نحـوي ضـاحكـاً: أرأيت. . هـذه هي إذاعتنـا. . فسألتـه: هل هـذه هي الإذاعة التي كنـا نستمـع إليهـا باستمرار عبـر سنوات القتـال المـاضيـة؟ قال بضجيجـه السـاحـر: «ولـك» هذه إذاعـة سريـة ننتقل بهـا من مكان إلى مكـان. . لقـد دمروا إذاعتنا الحقيقية منذ أول يوم من الهجوم. . وهم يلاحقوننـا بغاراتهم من مكان إلى مكان. فلديهم أجهزة يعـرفون من خـلالها أين تقع الإذاعة. . لهذا ننتقل بها من مكان إلى مكان. . وأحيانـاً نبث عبر شاحنة، أو سطح بناية. . أو زاويـة شارع. إننـا نضللهم بـاستمـرار. . ومن الصعب أن يعثـروا علينـا. . هيـك. . يـا أبو بسام. . هذه هي البطولـة. والله لو استمـرت هذه الحـرب مئة سنة على العين والرأس. هـذه حربنـا الأولى معهم. في كل مرة يحارب العرب نيابة عنا ويهزمون. . أما هذه الحرب، فـلأول مرة نحن أبطالها. ونحن وقودها. . ألم أقل لك دائماً: أنا أدعـوك إلى غذاء سمك على شاطىء يافا أو حيفا أو عكا أو تل أبيب. . اختـر من الآن. . اختر يا رجل. .

حماس أبو الطيب يحيّرني، فما أراه بعيني غير ما يراه، وهـو أمام هذه المعنويات المرتفعة، كنت أشعر بالمقابل أن العـالم كله ضدنا. شهران من القتال الشرس ولم يتحرك أحـد لينجدنـا، كأن

الجميع يريدون نهاية المقاومة، ونهاية الفلسطينيين.. ألم يقل لي أبو محمد ذات يوم أن الفلسطينيين أصبحوا يشكلون خطراً على العالم «إننا الزعران الذين يقضّون مضاجع الناس يا أبو بسام لقد آن الأوان لوضع حد لنا.. خسئوا.. والله لا يقدرون على إفنائنا.. أمهاتنا تلد كما تلد القطط، تحمل الواحدة منهن أربعة توائم في البطن الواحد. لا أحد يستطيع إفنائنا.. لا أحد». وتساءلت بصوت عال: لكن.. أبو محمد الآن؟ واعتقد أبو الطيب أنني أسأله فأجاب.. لم يستطيعوا القبض عليه.. ألم أقل لك أنه قاتل في عين الحلوة قتال الأبطال، وانسحب بدون أن يستطيعوا الوصول إليه، وها هو الآن في الجبل مع معظم رجاله.. ستراه قريباً في بيروت أو في حيفا.

كنت في أعماق قلبي أتمنى ذلك، ولكن ما حدث الآن يقول لي أنني لن أرى هذا الرجل أبداً.

والتفت أبو الطيب نحوي وقال: لن أعود إلى الإذاعة إلاّ مساء.. هناك من سيحل محلي في نقل الأخبار. وربما نقلوا الإذاعة من هذا المكان إلى مكان آخر.. هل تريد الذهاب إلى منزلك أم تذهب معي لنرى ريتا؟ قلت له: وأين ريتا الآن..؟ قال: في المستشفى الميداني.. قرب المطار.. هل تذهب..؟ ترددت. فقال لي: يا جبان.. تعال.. لا تخف أنا حريص عليك حرصي على حياتي.. تعالى لنر هذه المرأة التي كنتم تعتقدون أنها امرأة لعوب كيف تداوي الجرحى وتواسيهم؟ وتعمل كأنها لا تخاف الموت..

وخجلت من نفسي، كنت أريد العودة إلى بيتي وأسرتي فعلاً. فالقصف يشتد بين الحين والآخر.. ومع أن هدوءاً متردداً

يسود المدينة الآن، فلا بد أن يعود القصف المتبادل الذي يحوّل هذا السكون إلى جحيم..

وفجأة دب بي إحساس مختلف فأبو الطيب له أفضال على الحي وعليّ شخصياً، فكيف أخذله الآن. قلت: على بركة الله.. هيا.

التفت أبو الطيب إلى مساعديه وطلب مفاتيح سيارة جيب متوقفة قرب المبنى، ثم خرجنا من القبو، وصعدت إلى جانبه، وعندما قاد السيارة عاد الخوف إليّ من جديد. فالشوارع فارغة من المقاتلين الذين تجوب سياراتهم كل مكان. وما أن أطللنا على البحر، حتى رأيت ما أشعل قلبي بالحماس. مئات المقاتلين منتشرون على شاطىء الرملة البيضاء بأسلحتهم المختلفة، حواجز من التراب وأكياس الرمل تفصل بينهم وبين البحر. وعن بعد، شاهدت الزوارق الحربية الإسرائيلية على سطح البحر، شاهدتها بالعين المجردة، خفت، قلت لأبو الطيب: كأنهم على وشك الهجوم؟ قال: لا تخف. إنهم على هذه الحال منذ أربعين يوماً.. إن مدى مدفعيتنا لا يطولهم.. ولكننا نستطيع أن نبقيهم في مكانهم إلى الأبد..

وتقدم أبو الطيب نحو اليونسكو، فكانت تمر بنا سيارات الجيب المحمّلة بمدافعها المضادة للطائرات، فيحيي ركابها أبو الطيب بحماس: مرحباً أبو الطيب.. اليوم يومنا.. ويصرخ: الله معكم يا رجال.. الله معكم.. هذا يوم البطولة.

ودخلت السيارة أحياء صبرا والطريق الجديدة، وفجأة هدرت فوق رؤوسنا الطائرات، وبلمح البصر لم أجد أبو الطيب إلى جانبي.. فوجئت.. وارتبكت.. وسمعت صوت أبو الطيب

يصرخ عليّ من الجهة الشمالية: إنزل.. إنزل من السيارة.. يحرق شيطانك. وشعرت كما لو أن إحدى الطائرات فوق رأسي تهدر بصوتها المرعب. صرت أرتجف.. ولم أعد أدرك ماذا عليّ أن أفعل. كانت السيارة في منتصف الشارع.. وصوت أبو الطيب يصرخ عليّ: إنزل.. إنزل.

ودوّى إنفجار هائل صم أذني، فازددت خوفاً. وفي لحظة خاطفة شعرت بيد قوية تشدني من كتفي. وكدت أقع أرضاً، غير أن اليد أمسكت بساعدي بقوة وشدتني إلى مدخل البناء، فنزلنا الدرج إلى القبو، ثم سرعان ما اهتز البناء كأن قنبلة ذرية انفجرت إلى جانبه. وانتبهت إلى أبو الطيب يهزني من كتفي: اصح يا رجل.. اصح.. لا تخف. لكنني كنت أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي، لا أدري لماذا أحسست هذه المرة أنني سأموت. كان قلبي يهتز في صدري كأن آلاف الطبول تقرع فيه.. لكن أبو الطيب صفعني على وجهي بقوة وهو يصرخ: يحرق عرضك شو جبان.. اصح.

وصحوت. لا أدري ما الذي حصل، فجأة شعرت أن قامتي استعادت ثباتها. وزال عني الخوف.. لم أعد أرتجف.. لكن العرق كان يتدفق من جبيني ووجهي وكل جسدي بغزارة. وحدقت إلى أبو الطيب، فرأيته بكل قامته وشجاعته ونبله أمامي يصرخ: ماذا بك يا رجل.. ماذا بك.. ثم ضمني بقوة وهو يضحك.

وانتبهت إلى وجود رجال آخرين في القبو، كلهم هادئون. وينظرون نحوي باستغراب، فقال أبو الطيب: لا تواخذونه.. إنه ليس من هذه المنطقة.

كان قرع القنابل والمدافع قد اشتدت وتيرته، بينما أصوات الطائرات المغيرة تصدع رؤوسنا. واقترب أحد الرجال مخاطباً أبو الطيب: نحن نسمع أن فيليب حبيب قد توصل إلى إتفاق مع الجميع.. وأن هذا الإتفاق سيطبق خلال أيام. فصاح أبو الطيب: لا إتفاق.. بلا.. سنقاتلهم حتى هزيمتهم نهائياً. إسمع يا أخي.. كلما قست ضرباتهم اقتربت هزيمتهم.. هذا هو منطق الحروب.. إنها لعبة عض أصابع الذي يتحمل أكثر ينتصر في النهاية.

أما أنا فقد لعنت اللحظة التي قبلت فيها الذهاب مع أبو الطيب إلى هذا المكان. وأنا أعرف قلق أمنية والأولاد عليّ الآن.. سألت أبو الطيب: أما من هاتف هنا؟ ضحك وقال: لو كان يوجد هاتف لما استطعت الإتصال.. فلا كهرباء ولا خطوط.

وعادت الطائرات تهدر بقوة فوق الرؤوس، طائرات عديدة قدرها أبو الطيب بسرب كامل، بينما قدرت أنا أنها عشرات الطائرات تضرب دون هوادة، دخل علينا أحد المسلحين، واقترب من أبو الطيب مسلماً، فسأله عن الأمكنة التي تغير عليها الطائرات، أجاب: في كل مكان، في المزرعة، في رأس النبع، في شاتيلا، في الطريق الجديدة، البسطا، ومار الياس. إنهم يضربون دون تمييز، أبنية بكاملها سقطت فوق رؤوس سكانها، إنهم يستعملون سلاحاً جديداً، فقاطعه أبو الطيب: نعم.. نعم.. إنها القنبلة الفراغية يا أخ، ثم التفت نحوي وقال: لقد كذب فيليب حبيب علينا، كل مرة يقول أن القتال سيتوقف ريثما يتم الإتفاق على صيغة ما، ثم سرعان ما يغدرون. قلت له: يعني هناك اتصالات يا أبو الطيب.. أليس كذلك.. اتصالات

مع الإسرائيليين. صاح غاضباً: لا. . لا. نحن لا نتصل بهم، ولا نتصل بفيليب حبيب، بعض الساسة اللبنانيين يوفرون لنا هذه الإتصالات، أي بالواسطة. إنهم يلحون على إنقاذ المدينة، وهذه الطائرات تضغط عليهم لا علينا، هم يعرفون أن ليس عندنا شيء نخاف عليه، لقد دمروا كل شيء لنا منذ البداية. لذلك يلعبون اللعبة الأخرى، يضغطون على السكان كي يطلب هؤلاء منا الخروج بدورهم.

لعبتهم هذه يمارسها، في الطرف الآخر فيليب حبيب الآن، وأخشى ما أخشاه أن ينجح، فيسقط صمودنا في دوامة المفاوضات والتنازلات.

لعل إصابة مباشرة ضربت المبنى الذي نلجأ إليه. إذ اصطدمنا بالجدران، وبعضنا وقع أرضاً، صرخ أحد الرجال: الله يستر. . وسمعنا صراخاً وعويلاً، فصاح أبو الطيب، هيا يا إخوان. . المبنى أصيب ولعل هناك جرحى وقتلى. . والتفت نحوي قائلاً: أما أنت فابق هنا. لم أستجب، شعرت بدافع قوي يدفعني لألحق بهم، فإذا بواجهة المبنى قد أصيبت إصابة مباشرة، غبار وحجارة وزجاج مطحون وسيارات مدمرة تماماً. سيارة الجيب التي امتطيناها تناثرت قطعاً صغيرة وكأنها مسحت من فوق الأرض. . صعدنا الدرج لنجد نساء وأطفالاً يبكون ويصرخون، وكانت سيارة إسعاف قد حضرت للتو، فسحب الرجال جثثاً وجرحى من الطوابق الخامس والسادس والسابع، وساعدت أبو الطيب الذي اندفع لإنقاذ الجرحى بجنون، كان يصرخ: الكلاب. . الكلاب. . ما ذنب هؤلاء حتى يستهدفوهم.

ولم يمض وقت قليل حتى عادت الطائرات المغيرة تضرب

في نفس المكان فترك كل سكان البناية بيوتهم ونزلـوا إلى الملجأ دفعـة واحدة. إلاّ أبـو الطيب ونحن كنـا نجلي بقية الجـرحى إلى سيـارة الإسعاف التي كـوّمت المصـابين فـوق بعضهم بعضـاً، ثم انسحبت وهي تصفّـر صفارتهـا المميزة. نـزلنا إلى القبـو مجدداً، ورحنـا جميعاً ننفض عن مـلابسنا الغبـار والـزجـاج العـالق وآثـار الـدمـاء. كـان أبـو الـطيب يستشيط غضبـاً ويـردد: الكـلاب.. الكلاب. ثم أنه بدا لي فجأة كأنه تذكر شيئاً قد فـاته. صـرخ: يا إلهي.. لا بد أنهم ضربوا المستشفى.. ريتا هناك.

حاول أن يخرج لكن بقية الرجـال منعوه: هـل تريـد أن تقتل نفسك؟ - صاح أحدهم - ألا ترى أن القصف ما زال أشد شراسة.

وبين عويل وصـراخ الأولاد وبكائهم، كـان أبو الـطيب يزرع المكان جيئة وذهاباً وهو في ذروة غضبه، ويردد كلمات سفيهـة لم أكن أسمعها منه من قبـل. شتائم من كـافة الأنـواع، على أميركـا وإسـرائيل والعـرب وفيليب حبيب الذي أرسلتـه أميـركـا وسيـطاً، ويبدو، أنه كان - كما قيل فيما بعد - يلعب لعبته القذرة.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

مع قدوم الليل، انحسرت الغارات، فخرج الناس من الملاجىء يتفقدون الأضرار، وخرجت مع أبو الطيب، كان قلقاً للغاية، سألني إن كنت أريد العودة إلى البيت، فسألته ماذا سيفعل، قال: سأذهب إلى المستشفى.. قلبي يحدثني أن مكروهاً حدث هناك، فقلت له: سأبقى معك.

غادرنا المبنى، فإذا بالشوارع والأبنية قد تحولت إلى أركام، بعض الأبنية إنهار تماماً، غبار.. وأسلاك.. وسيارات محطمة، وعويل من هنا وهناك، صراخ أطفال، رجال مشدوهون. كان المشهد قاسياً في شراسته وعنفه.. كأن زلزالاً مدمراً زلزل المدينة، الأبنية التي لم تسقط. تصدعت. نوافذ وأبواب مخلوعة، زجاج كالطحين يملأ الشوارع والأرصفة. سيارات الإسعاف تذهب وتجيء. رجال يحملون قتلاهم لا يلوون على شيء، آخرون يحاولون إنقاذ الجرحى أو الذين طمرتهم القنابل تحت أبنيتهم وتحت أثاث بيوتهم، فوضى لا نظير لها، كل إنسان يبحث عن أب أو أخ أو قريب، جنون يصرخ في كل أطراف المدينة. لا أحد يلتفت إلى أحد من العابرين. وشعرت كأن الناس فقدوا عقولهم. قال أبو الطيب: هل رأيت وحشية أكثر من هذا الذي تراه؟ لم أجب.. ورجوت الله أن يحمينا من المخفي

الأعظم. وفجأة بدت لنا سيارة جيب تتقدم نحونا. ثم ترجل أحد ركابها وألقى التحية على أبو الطيب، سأله عن المستشفى. فقال الشاب: لقد دمّر على الآخر يا أبو الطيب، رغم أنهم يعرفون أنه مستشفى، الهلال الأحمر والصليب الأحمر على سقفه وعلى السيارات المحيطة به.. لكنهم استهدفوه مباشرة.. وسأل أبو الطيب بقلق عن الضحايا، فقال الشاب كأنه يردد كلاماً عادياً: ولو يا أبو الطيب، لقد دمر على رؤوس من فيه.. فسأله: هل يمكن لكم أن تأخذوني إلى هناك. رد الشاب: على العين والرأس يا أخي.. هيا.

وانحشرنا في الجيب، ثم أخذت تسير بسرعة بطيئة بسبب الخراب الحاصل في الشوارع التي تحولت إلى دمار لا يوصف، وكان الصراخ والعويل يلاحقنا في كل مكان مررنا به. وازداد الأمر صعوبة مع قدوم الليل، والظلام، الذي تبدد بعضه بشموع ضئيلة تضاء هنا وهناك.

وبعد أن تحررت سيارة الجيب من الشوارع الضيقة إلى طريق المطار، استطعنا أن نتابع سيرنا بنفس الصعوبة. فقد كانت هناك فجوات كبيرة تملأ الطرقات من جراء القنابل المتساقطة.

وعندما اقتربنا من المكان الذي من المفروض أن يكون المستشفى.. لم نجد إلّا خراباً هائلاً. كل شيء سوّي مع الأرض.. وكان ثمة رجال يحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فاقترب أبو الطيب منهم، ويبدو أن أحد الرجال قد عرفه فأسرع نحوه وعانقه وهو يجهش بالبكاء.. سأله أبو الطيب إن كان هناك أحد قد نجا.. التفت الرجل نحو الركام الذي احترق عن آخره.. وقال له: ألا ترى يا أبو الطيب.. كل الناس هربوا إلى الملاجىء

أثنـاء الغارات. . أمـا من كان في المستشفى فلم يهـرب، كـانـوا يؤدون واجبهم مـطمئنين أن أحداً لن يقصف المستشفى كمـا هـو المفـروض. . لكن غارة كـاملة استهدفتـه مباشـرة، فقتل كـل من فيه. .

غص أبـو الطيب، ولمعت عينـاه بـالـدمـوع. لأول مـرة أرى وجهه منقبضاً ومشدوداً وكان كل عصب فيه يرتجف، ثم أنه سـأل الرجل: والضحايا يا أخي. قال: بعضهم ما زال تحت الركـام. . وقد نقلنا بعض الجثث إلى مستشفى المقـاصد. سـأل أبو الـطيب متردداً: نساء ورجال. . أجاب الرجل: نعم. . نساء ورجال. .

عاد أبو الـطيب خطوات إلى الـوراء. . كان رفـاقه في سيـارة الجيب ما يزالـون ينتظرون. أمسـك بيدي. ثم مشينـا نحو سيـارة الجيب. كانت يده باردة كأن الدماء نزفت منها. صعـدنا الجيب. قال: يا إخوان خذوني إلى مستشفى المقاصد.

انـطلقت الجيب نحو مستشفى المقـاصـد، كـان أبـو الـطيب صامتاً، وترددت في سؤاله، ثم آثرت، مثله، الصمت.

كـان مستشفى المقاصـد قد أصيب إصـابات غيـر مباشـرة، مـا زالت بعض أجنحتـه تعمـل. تـرجلنـا من الجيب، ودخلنـا المستشفى. . سـأل أبو الـطيب عن الجثث، فـأشـار ممـرض إلى إحدى القاعات، فذهبنا إليها، فـإذا بالجثث مـرمية على الأرض، والدماء قـد صبغت أرض القاعـة بألـوان حمراء وقـانية. كـان في القـاعة عـدد من الممرضـات والممـرضين. . فسـأل أحـدهم عن جثث النساء. قال لـه: كل الجثث التي حملوهـا إلينا خـلال هذا اليوم هي هنا، جـاء أناس كثيـرون وبحثوا عن قتـلاهم، والبعض عثر على أقارب له والبعض لم يعثر. قال أبو الـطيب: ألم تفصلوا

بين جثث النساء والرجال. . خصوصاً الجثث التي سحبت من مستشفى المطار؟ أجاب الممرض: نعم. . نعم يا أخ. . أنت تسأل عن جثث مستشفى المطار. . حسناً، اتبعني. . فتبعناه ليدخلنا قاعة صغيرة، قال: لقد رمينا جثث المستشفى هنا. كان واجبنا كزملاء أن نفصلها عن بقية الجثث.

وتركنا الممرض وخرج. حدق أبو الطيب إلى أكوام الجثث، نحو عشرين أو خمس وعشرين جثة. . ظل يحدق فترة طويلة، وأنا مثله، أحدق إلى القتلى. . بعضهم ما زال ينزف، رائحة الدم تزكم الأنوف. ثم أن أبو الطيب التفت نحوي وقال بصوت متهدم: أظن أنها هناك. . وأشار بيده إلى المكان. . فاقتربت حيث أشار. . وسرعان ما انتبهت إلى شعر ريتا نفسه. ارتجفت. . ثم اقتربت من الجثة ودفعتها من جانبها. . ويا لهول ما رأيت. جثة مشوهة تكاد لا تبدو ملامحها، لولا الشعر الأحمر. . لما عرفناها. . كانت ريتا. . ريتا نفسها. اقترب أبو الطيب، وقال بصوت قاس: هي إذن. . وراح يحدق نحوها بنظرة ثابتة وقاسية. . كانت مشوهة تشويهاً فظيعاً. . إنحنى أبو الطيب نحوها وحاول العثور على يدها، ثم أمسك بها، فإذا بخاتم ذهبي يلمع في بنصرها. والتفت نحوي وقال:

ـ كنا سنتزوج يا أبو بسام.

انفجر فجأة ببكاء مرير وهو يردد: كنا سنتزوج يا أبو بسام. . كنا سنتزوج.

أمسكت بكتفه أواسيه لم أستطع، إذ ارتجف صوتي، ورحت أبكي مثله. وأنا أردد معزياً:

ـ كانت عزيزة علينا جميعاً يا أبو الطيب.

ظل أبو الطيب زمناً لا يبتعـد عن الجثة. وأنـا إزاءه لا أعرف ماذا أفعل..

وعنـدما كف قليـلاً عن البكاء، طلب مني أن أنـادي رفاقـه، أسـرعت إلى الخـارج، ونـاديت عليهم، فـرافقـوني إلى حيث أبو الطيب، قـال لهم: سنأخـذ هذه الجثـة.. فجاءوا ببطانية من الصـوف، ولفوا بهـا جثة ريتـا، ثم حملوها إلى سيـارة الجيب.. صعد أبو الطيب مخاطباً السائق: خذني إلى البيت أولاً.. ستبقى الجثة عندي حتى الصبـاح.. ثم خذوا أبـو بسام إلى بيتـه.. غداً ندفنها إن شاء الله.

ومضت بنا السيارة إلى بيت أبو الطيب في الطريق الجديـدة. عـاونه الـرجال في حمـل الجثة إلى بيتـه، وصعدت معهم. قلت لأبو الطيب: سأبقى معك حتى الصبـاح لندفن الجثـة معاً. قـال لي بصـوت هادىء: لا يـا أخي.. إذهب إلى أسرتـك.. لا شك أن أمنيـة قلقة عليـك الآن.. أما أنـا فأريـد أن أبقى وحـدي مـع ريتـا.. فأرجـو أن تلبي رغبتي.. ولا تقـل لأحـد في الحي مـاذا حدث.

احتـرمت رغبتـه، وهبـطنـا درج المبنى إلى الشـارع، وفي الـطريق إلى منزلي، داريت دمـوعي أنا الآخـر.. فقد كـانت ريتا غالية عليّ أحببتها أنا الآخـر واحترمتهـا دائماً.. وأدركت الآن كم كانت امرأة عظيمة.

وفيما كانت أمنية تعانقني معبـرة عن قلقها، والأولاد يتشبثـون بي، انفجـرت مجدداً بـالبكاء. حـدقت أمنية نحـوي.. وقالت: خيـراً.. هل أصـاب أبو الـطيب مكـروه.. قلت: لا.. لا.. لم يكن أبو الطيب.. بل ريتا.. ريتا نفسها..

الفصل الخامس والعشرون

لم يعد أبو الطيب، منذ استشهاد ريتا، أبو الطيب، انقلب من رجل مرح كثير الضجيج متفائل يعتقد أنه سيتناول طعام الغداء على شاطىء تل أبيب أو حيفا.. إلى رجل ساكن هادىء وحزين، شعرت، أن الحياة خرجت من بين يديه، خصوصاً، عندما أدرك أنه ورفاقه مهزومون، وأنهم سيبتعدون أكثر، وكان إذا زارنا يبدأ بزيارة أم ناصيف التي لم ينقطع عن زيارتها منذ ذلك اليوم المشؤوم، وحين شيّعت جنازة ريتا أمر رفاقه أن يمروا بها في أحياء رأس بيروت حياً حياً، حملوا النعش الذي لفّوه بالعلم الفلسطيني على الأكف، وتقدم الجنازة فتى صغير حاملاً صورة لها، كان جميع المسلحين الذين مر بهم النعش يحيون ريتا بزخات من الرصاص. وبدا لنا، نحن سكان حي التنوخيين، كأن بيروت بكاملها تشيّع الجثمان الطاهر إلى مثواه الأخير.

دفنت ريتا في مقبرة الشهداء إلى جانب شهداء من مختلف الطوائف، دفنوا جنباً إلى جنب، تعبيراً عن الأخاء وعدم التفريق بين هذه الطائفة وتلك، وكما كان أبو الطيب يردد: الدفاع عن الأرض والعرض من حق الجميع.

وشيّد أبو الطيب قبراً جميلاً لريتا، تتقدمه لافته رخامية على رأسها الهلال والصليب متعانقان. وقال لي مرة: أوصيك به إذا

قتلت. عندما يسمح لك الوقت ضع عليه باقة من القرنفل الأبيض. كانت ريتا تحب القرنفل الأبيض. وغالباً ما كانت تزين شعرها بواحدة منه. وعندما كان يتاح لنا زيارتها في البيت، كنا نرى القرنفل الأبيض قد زيّن زوايا الصالون بأناقة رقيقة. وتضحك ريتا مفسرة حبها له أنه يدل على سلام النفس وصفائها.

كانت الحرب قد توقفت تماماً، فلم يعد الإسرائيليون يقصفون المدينة، وكذلك فعلت ميليشيات المنطقة الشرقية، وقيل أن مبعوث الأمريكيين فيليب حبيب قد توصل إلى قرار شامل بين جميع الأطراف لوقف إطلاق النار. وسرت إشاعات عديدة على أن طبخة ما تطبخ، وأن الإتفاق تم بين الجميع على صيغة تنقذ بيروت من الدمار. . كما أن إشاعات مضادة بالمقابل كانت تتناقلها الناس على أن إسرائيل ستقتحم المدينة. . وظل الجميع يترقبون كأن على رؤوسهم الطير.

وذات ليلة، فوجئت بالباب يقرع، كانت الساعة حوالي منتصف الليل، خشيت من خطر ما، فحادثة خطفي ما زالت تثير في نفسي الكثير من الحزن والألم، وفي تلك الفوضى، كان الإنسان يذهب ضحية وشاية مهما كان حجمها. قالت أمنية: أنا سأفتح الباب، فإذا بها ترحب بأبو الطيب. دخل علينا محيياً، لكنه بدا لي مهدماً كجبل منهار. قال: أنت في الطابق الأخير. . وجاء دورك الآن.

نظرت نحوه مستفهماً. قال:

ــ زرت الجميع مودعاً. . أبو ابراهيم، أبو زهير، أبو زياد، أبو خضر. الدكتور. . والبقية التي تعرفها. هل أوصيك بأم ناصيف يا أبو بسام؟

قلت له:

ـ ماذا في الأمر؟

صمت لحظات، ثم قال بحزن وبصوت لا نكاد نسمعه:

ـ نحن راحلون في الصباح.

ـ ماذا تقول؟

ـ نعم.. اتخذت القيادة قراراً بالرحيل عن بيروت. وأنا سأكون في الوجبة الأولى.. غداً الساعة العاشرة.

فسألته:

ـ غداً.. غداً بالذات.

ـ نعم.

ـ قل لي.. ماذا حدث.

ـ تم الإتفاق على كل شيء.. المقاتلون يرحلون.. مع ضمان أسرهم. أميركا ضمنت حياة العائلات الفلسطينية.

ـ وأنتم إلى أين؟

ـ إلى البحر..

ـ البحر..

ـ البحر.. البحر.. ربما إلى قبرص.. أو اليونان.. أو إلى تونس.

ـ جميعكم..

ـ البعض سيذهب براً عبر سوريا.. أما نحن فقد اخترنا البحر.

صمت أبو الطيب، فيما دمعت عينا أمنية، ثم قالت له:

ـ هذا خير يا أبو الطيب.. المهم أن تخرجوا أحياء.. لتظل شعلة النضال فيكم متوقدة..

فقال أبو الطيب ساخراً:

ـ لقد سحبوا من تحت أقدامنا الأرض الصلبة. . وها نحن سنخرج إلى البحر. ولا نعلم ماذا يخفي لنا البحر.

قالت أمنية:

ـ ستخرجون بدون سلاح. .

ـ بدون سلاح إلّا بنادقنا. .

ـ والسلاح الثقيل؟

ـ سنتركه للجيش.

ـ والسوريون. .

ـ السوريون سينسحبون أيضاً. . وينتشرون في مناطق أخرى. . المهم أن الجميع سينسحبون من بيروت. هذا القرار ليس قرار إسرائيل. . بل قرار السياسيين اللبنانيين. . من حقهم أن يطلبوا ذلك. . وإلّا دمرت المدينة بالكامل.

قلت مقاطعاً:

ـ لا أريد أن تودعنا هنا. . في أي مكان ستتجمعون.

ـ في ساحة ملعب الجامعة العربية، من هناك سننطلق إلى البحر. سيتم إنسحاب المقاتلين خلال خمسة أيام. . وأنا ورفاقي ننسحب في الصباح.

ـ سأجيء في الصباح وأُودعك هناك.

ـ أتمنى عليك ألا تفعل. .

ـ لا. . أنا سأحضر. . ولعل أبو ابراهيم والدكتور يحضران أيضاً. .

قال أبو الطيب:

ـ الكل. . قالوا سيحضرون. . لكن لا أريد لكم هذا

الإزعاج.

وقف أبو الطيب، فيما أسرعت أمنية وأيقظت بسام ولينا صائحة:

ــ عمكم أبو الطيب سيرحل عن بيروت.

وفرك الولدين أعينهما، ثم اقتربا من أبو الطيب.. قال له بسام:

ــ هل هذا صحيح.. عمو أبو الطيب.

ابتسم. وضمه إلى صدره وقبله كثيراً. وقال له:

ــ لن نغيب طويلاً.. سنلتقي.

ثم تقدم من لينا وقبلها، فبكت بحرارة وقالت:

ــ لا أريدك أن ترحل عمو أبو الطيب.

وحانت مني التفاتة نحو أمنية فإذا بها تغص بالدموع. ابتعد أبو الطيب عن لينا والتفت نحو أمنية، وسرعان ما ألقت بنفسها عليه، وهي تجهش في البكاء.

* * *

كان ذلك الصباح من أصعب أيام بيروت، التقيت على مدخل البناية بأبو ابراهيم والدكتور. فقلت لهما: أنا ذاهب لوداع أبو الطيب ورفاقه.. قال الدكتور: كنا ننتظرك لنذهب معاً.

كان إبني بسام قد لحق بي. فامتطينا جميعاً السيارة، فإذا بأبو زهير يرمقنا من بعيد. اقتربنا منه: هل تذهب معنا؟ لم يجب. كان منقبض الوجه، جامداً كصنم. فابتعدنا عنه. واتجهنا بالسيارة صوب المزرعة. كان الازدحام شديداً. آلاف من البشر تتوجه نحو الجامعة العربية في حي الطريق الجديدة. ولم نستطع التقدم بالسيارة أكثر. فركنتها إلى جانب الرصيف وترجلنا، أمسكت بيد

بسـام ومشينا مـع الناس الـزاحفين في اتجاه واحـد. كنـا جميعـاً صامتين، وكنت أفكر بأبو الطيب.. وبرفاقه.. وقلت بنفسي: إنه الخروج الأخير.. فلسطين تبتعد كثيراً..

وكلمـا تقدمنـا كان الـزحام يشتـد، فـطلبت من أبـو ابـراهيم والدكتور أن يبحثا عن أبو الطيب، وسرعان ما لمحناه. وكان هـذه المرة بلباس الجندي الكامل. بزة عسكرية جديدة، وقبعة كاكيّـة، وبندقية خرجت للتو من صندوقها.. وحذاءاً جديـداً. كأنـه ذاهب إلى عـرض عسكري.. اقتـربنا منـه فأخـذنا بـالأحضان، ودمعت عيناه.. لم نكن وحـدنـا، مئـات من النسـاء والأطفـال والشبـان يودعون المقاتلين.. والرصاص هو أيضاً كان هذه المرة يلعلع في السماء مودعاً الرجال. بكاء وعويل، هـذا يضم ذاك، نساء يبكين هنا وهناك وهن يحملن أطفالهن على أيديهن والذين كانوا بدورهم يبكون. هرج ومـرج. شاحنـات يصعد إليهـا المقاتلون ويلوحـون بـأيديهم.. امـرأة تمسـك بقـدم رجلهـا تحـاول منعـه من دخـول الشاحنة، شيخ يضم ابنه إلى صدره وهو يدعو له بالتوفيق وأن يبدأ حيـاة جديـدة.. كان مشهـداً هائـلاً لا ينسى، فيمـا أبـو ابـراهيم يحادث أبو الـطيب التفت نحو الـدكتور، فـوجدتـه يمج سيكـارته بقسوة، ويغالب دموعه قبـل أن تطفـح من العينين الحمراوين. ثم همس في أذني: ألا تـرى أبـو بسـام.. إنهـا الهـزيمـة الكبـرى. فقلت: لكنهم هذه المرة قاتلوا بشجاعة.. خروجهم كان لإنقاذنـا يا دكتور.

استند الدكتور أسعد إلى الحائط، بدا لي هـو الآخر مهـدماً، كان يرتجف. ثم انتبهت أنني كنت أرتجف مثله، وأحـاول الثبات على كتف ابني بسام.

تقدم منا أبو الطيب، كان جبينه ووجهه يتفصدان عـرقاً. قلت له:

ــ هل عرفت أين ستذهبون..

قال:

ــ ربما إلى قبرص..

قلت:

ــ قد يهاجمونكم في البحر.

قال:

ــ مبدئياً تم الإتفاق على أن لا يتعرضوا لنا، على كـل حال هنـاك بوارج فـرنسية ويـونانيـة ستـرافق البـاخـرة التي ستحملنـا. والمفروض أن تحمينا من هذا الاحتمال.

وتقدم خطوة مني وعـانقني، فغمرتـه بصدري وأنـا أردد: في رعاية الله أبو الطيب.. في رعـايةالله. ثم قلت لـه: ومن سيحمي المدينة من الإسرائيليين؟ قال لا تخـافوا.. لم نخـرج إلا بشروط أن تحمي المدينة قوات من الأمم المتحدة وخصوصاً مخيمـاتنا.. نحن نخرج وهم يدخلون.. إن مـراكبهم قد رست في المـرفأ.. إنها نفس البواخر التي ستقلنا خارجاً.

عـانقنا جميعـاً، ثم أخذ بسـام بين ذراعيه، وقـال له: الأمـل فيك يا بطل.. الأمل فيك.

قبله، وعـانقه مـراراً، التفت إلينا وقـال عبر ابتسـامـة كئيبـة: استروا ما شفتوا منا يـا إخوان.. ثم صعـد إلى الشاحنـة، التي ما فتئت أن تحركت فيما تحركت بقية الشاحنات متجهـة إلى الطريق الرئيسي في المزرعة متجهة صوب المرفأ.

وتابعنا المشهد الحزين، عندما انعطفنا نحن أيضـاً في طريق

العـودة إلى الحي، فـرأينـا نسـاء يـركضن نحـو الشـاحنـات وهن يبكين، أولاداً يركضون مـودعين آباءهم. . فيمـا كان المسلحـون اللبنانيون يطلقون الرصاص في السماء وداعاً. . وأثناء ذلك كانت قـوافـل جنـود الأمم المتحـدة من الإيـطاليين والفـرنسيين تـدخـل المدينة.

* * *

الفصل الأخير

ساد بيروت حزن عظيم، خصوصاً في اليوم الأخير لرحيل رجال المقاومة. السياسيون اللبنانيون الذين أصروا على رحيلهم كانوا في وداعهم، إذ كان اليوم الأخير هو يوم القيادة. لم يرض قادة المقاومة أن يرحلوا قبل أن يطمئنوا بأن جميع الذين خرجوا، وصلوا إلى آخر محطة من رحيلهم بسلام، وقبل أن يطمئنوا بأن الإسرائيليين لن يدخلوا غرب المدينة.

والتأكيدات الأمريكية بأن القوات الإسرائيلية لن تدخل بيروت الغربية كانت تتكرر كل يوم في الإذاعات الخارجية والداخلية، وفي الصحف العربية والأجنبية. لكن هاجس غدر الإسرائيليين كان يخيّم على الجميع. فعبر كل الحروب التي اجتاحت المنطقة، ظل الإسرائيليون لا يحترمون تعهداتهم. هكذا كان يقول لنا الدكتور، فهو كباحث ومتخصص في القضية يبقى كلامه عين الحقيقة.

وبينما كان أبو ابراهيم يتنفس الصعداء أمام حديقته التي لم يبق منها إلّا الأغصان اليابسة والورود الذابلة، قال الدكتور موجهاً كلامه إليه:

ــ المخفي أعظم يا أبو ابراهيم.. المخفي أعظم.

فرد أبو ابراهيم:

ـ ماذا يريدون أكثر من ذلك؟ ها هي بيروت مدينة مفتوحة. . الذين كانوا سيقاومون رحلوا يا دكتور. . وبضع مسلحين لبنانيين لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً إزاء الآلة العسكرية الإسرائيلية.

قال الدكتور:

ـ يعني هل تريد أن تستسلم بيروت.

قال أبو ابراهيم:

ـ تستسلم أو لا تستسلم، كله مثل بعضه يا دكتور، على كل حال، أظن أن ما كانت إسرائيل تريده قد تحقق فعلاً. . وعليها الآن أن ترتد جنوباً.

لكن القوات الإسرائيلية لم ترتد جنوباً، إذ في صبيحة أحد الأيام فوجئنا بحركة غير طبيعية في المدينة، ثم راحت طلقات الرصاص تلعلع في الجو. أسرعنا إلى أجهزة الترانزيستور لنلتقط الأخبار، فأدركنا الكارثة الكبرى: القوات الإسرائيلية اقتحمت المدينة من كل الجهات، وأن هناك مقاومة ضئيلة تواجه قواتها من قبل بعض الميليشيات الصغيرة.

وسرعان ما انتشرت القوات الغازية في غرب المدينة كلها، ورأيت من شرفة منزلي، لأول مرة في حياتي خوذة جندي إسرائيلي. فبكيت، كانت أمنية إلى جانبي، وبسام ولينا، وبكت هي الأخرى، فقال لنا بسام:

ـ لماذا تبكون؟

أجابت الأم:

ـ إنهم الإسرائيليون يا ولدي.

صمت بسّام، ثم قال بصوت قوي:

ـ لا يهم يا ماما.. لا يهم.. سنقاتلهم.

نظرت إلى بسام فرأيت في وجهه ما لم أنسه العمر كله، صرامة رجل يعرف ويدرك كل شيء، فأحسست باطمئنان غريب غمرني، ثم تذكرت كل الحروب التي عشناها منذ أربعين عاماً حتى اليوم، حروب وهزائم، ثم أجيال تولد وتموت، وأجيال تأخذ البندقية من يد إلى يد. التفتّ نحو بسام وربت على كتفه وسألته:

ـ هل تتذكر ما قاله لك أبو الطيب؟

قال:

ـ طبعاً يا أبي.. طبعاً.. لن أنسى ذلك أبداً..

* * *

ما حصل بعد ذلك كان فاجعاً حقاً، إذ اقتحم الإسرائيليون ومعهم مجموعة من حلفائهم من ميليشيات بيروت الشرقية، أحياء صبرا وشاتيلا والمناطق المحيطة حيث تتكاثر فيها الأسر الفلسطينية وأقدموا على مذبحة هائلة في قسوتها، فقتلوا الشيوخ والأطفال والعجائز، وبقروا بطون النساء الحوامل، وسحلوا جثث القتلى في الشوارع بدون رحمة... حدث ذلك بين ليلة وضحاها، وتصوّر البعض في البداية أنها حملة للبحث عن المقاتلين الذين آثروا البقاء سراً إلى جانب عائلاتهم، ثم سرعان ما انكشف حجم الكارثة: حوالي ألف قتيل رميت جثثهم في الأزقة والشوارع الضيقة، كان معظمها لأشخاص عصبت عيونهم وقيدت أيديهم إلى الخلف. كان معظم الذين قتلوا، قتلوا برصاص من أسلحة كاتمة للصوت، في ظهورهم، وداخل بيوتهم، وحول موائد طعامهم..

وانكشفت الفضيحة عالمياً عبر مصوّرة صحفية إيطالية كانت بالمصادفة هناك، لتكتب تحقيقاً عن أوضاع الأسر التي رحل عنها رجالها، فعاشت الكارثة لحظة بلحظة، واستطاعت الخروج لتفضح المأساة بالصورة والكلمة.

ضجّ العالم بأسره، كما ضجت بيروت، وتذكرت أقوال الدكتور أن الإسرائيليين لا يحفظون عهداً، ومع أن الإعلام الإسرائيلي نفى أن تكون له يد، لكن التواطؤ كان ظاهراً بما لا يقبل الشك.

وكان سبق هذه الكارثة اغتيال رئيس الجمهورية المنتخب، فتصوّر الناس أن ما حدث كان ثأراً وانتقاماً لاغتيال الرئيس، ومع أن المتهم بقتله وقتل رفاقه كان لبنانياً، فان اللعنة هي التي حلت على ما تبقى من العائلات الفلسطينية شيوخاً وأطفالاً ونساءاً.

وجمت المدينة أياماً، فالأحداث التي تعاقبت بسرعة مذهلة جعلت الناس تحس بالخطر الداهم، خطر رهيب ومرعب. فلم يعد أحد يستطيع أن يفهم ماذا يحدث، الإسرائيليون أنفسهم شعروا بهذا الخطر، خصوصاً بعد تلك الحادثة التي كانت الشرارة الأولى للمقاومة، وذلك عندما تقدم شاب في العشرين من عمره من ضابط وثلاثة جنود إسرائيليين كانوا يرتشفون القهوة على رصيف مقهى من مقاهي شارع الحمراء، أخرج مسدسه وأطلق النار على الضابط فأرداه وجرح الجنود الثلاثة ثم ولى الأدبار. وكانت احدى الدوريات الإسرائيلية تجوب شارع الحمراء، فحاولت اللحاق به، وإذا بها تفاجأ بعشرات المقاعد والطاولات وعربات الباعة يلقى بها في منتصف الطريق لعرقلة تقدم الدورية، بل ألقى سكان بنايات الشارع كل ما استطاعوا أن يلقوه إلى

عرض الطريق معرقلين تحرك أي جندي إسرائيلي للحاق بالشاب الذي اختفى في الشوارع الخلفية.

ومنذ تلك اللحظة، لم يعد الجنود الإسرائيليون يجوبون شوارع المدينة فرادى، ولم يعودوا يتنزهون على الكورنيش أو يجلسون في المقاهي، وما أن يسود الظلام حتى يختفوا تماماً من الشوارع، ثم تجوب سيارات المخابرات الإسرائيلية ليلاً، وهي تخاطب السكان في مكبرات الصوت انهم لم يدخلوا المدينة لمقاتلة اللبنانيين، بل لإخراج أعداء لبنان من لبنان، وأنهم سيرحلون قريباً بعد أن يستتب الأمن في أرجاء المدينة. لكن غالباً ما كان السكان يواجهون هذه النداءات بالسخرية أو بإلقاء قاذورات المنازل على تلك السيارات، ولا يعثر الإسرائيليون على أحد من فاعليها.

ظلت المدينة تغلي كالبركان، وحاول الإسرائيليون جمع السلاح من الناس، فجابوا الشوارع يطلبون من السكان تسليم أسلحتهم، لكن أحداً لم يستجب إلاّ القليل النادر، إذ رمى البعض أسلحتهم في الساحات، والبعض رماها محطمة لا يستفاد منها، لكن الأكثرية الساحقة ظلت محتفظة بها، وكنت واحداً منهم، كما أن جميع رجال الحي لم يرموا أسلحتهم التي تركها لنا أبو محمد فيما مضى.

وظل الدكتور يقول:

ـ على الأقل نستطيع أن ندافع بها عن أنفسنا إذا ما توسعت المقاومة ضد المحتلين من جديد.

كنا نعرف أن الإسرائيليين سيخرجون بعد حادثة شارع الحمراء، سيخرجون على الأقل من بيروت، لأن المواجهة

اشتعلت فعلاً في بعض الأحياء، كما أن الضغط الدولي بـدأ يكبر منذ مذبحة صبرا وشاتيلا، في حين أن قوات دولية فرنسية وإيطالية حضرت من جديد وانتشرت في المدينة لمنع أي مذبحة أخرى.

وذات صبـاح، كنـا نقف على رصيف المبنى، أبــو ابـراهيم والدكتور ومنير وأبو زيـاد وأنا، فلمحنـا أبو زهيـر على غير عـادته، محدقاً إلى فراغ ما.

قال أبو ابراهيم:

ــ الله يستر.

أما الدكتور فقال:

ــ لعل هاجساً تلقاه من إخوانه تحت الأرض ينذر بالخطر.

وفيمـا نحن صامتـون، نحاول أن نفض الـطرف عنه، صـاح صيحة وحش مجروح:

ــ وينكم يا رجال.

اقتربنا منه، كان شديد التأثر، وبدا لنا كأنه يرتجف، اعتقدنـا أنه مريض، وانتبهنا أنه حطم كل شيء في كـوخه الخشبي، حتى نرجيلته حطمها. أدركنا هذه اللحظة أن ثمة خللاً قوياً هز أبو زهير في أعماقه. تقدمنا منه، فإذا به يجهش بالبكاء وهو يردد:

ــ لقد تخلوا عني.. تخلوا عني.

وأخذ يضرب الأرض بقدميه وهو يصرخ: لا.. لا.

وعـرفنا جميعـاً ماذا يقصـد، فصمتنـا، حقـاً لقـد تخلوا عنـا جميعـاً. الحرب دمـرت كل شيء والخـراب في كل مكـان. وكنا نود الابتعاد عن أبو زهير إلى مشاغلنا الأخرى لكنه استوقفنا وقال:

ــ هل تريدون أن تروا شيئاً؟

قال الدكتور:

ـ نعم. . ماذا تريد أن نرى؟

فتحرك بضع خطوات إلى الأمام، ثم التفت نحونا وقال:

ـ اتبعوني.

نظرنا في وجوه بعضنا مستغربين، فقال منير:

ـ اتبعوه لنر.

أخذ أبو زهير يهرول على مهل، بسرواله القصير وكرشه المتقدم أمامه، وفيما نستعجل الخطى خلفه، قال أبو ابراهيم:

ـ غريب. . نتبعه دون أن نعرف ماذا يريد أن يطلعنا عليه؟

قال الدكتور:

ـ لن نخسر شيئاً. . لنر. . ماذا يضرنا لو نرى؟

راح أبو زهير يلتفت نحونا بين لحظة وأخرى ليتأكد أننا ما زلنا خلفه، فيستعجل أكثر، وفي الطريق إلى الروشة، كان يلتفت يميناً ويساراً، ثم يلطم جبينه براحة يده، فالمشهد هو إياه، بنايات محفورة جدرانها بقسوة، سيارات مدمرة ومحترقة. والتقينا في الطريق بصاحب محطة البنزين الذي احترقت محطته من الأيام الأولى للغزو، ولكنه ظل يحضر إلى مكانها كل يوم ويبقى حتى المساء جالساً على كرسي وسط دمارها. سلمنا عليه باقتضاب كما في كل مرة، فأشار باصبعه نحو الركام الذي حوله، كنا ندرك حجم الكارثة بالنسبة إليه، فليست المحطة وحدها التي دمرت، بل ابنه الوحيد وعاملان قتلوا بداخلها، ومنذ ذلك اليوم والرجل المسكين لا يفارق محطته. غالباً كنا نراه أما متكئاً على جدار من جدرانها المدمرة، أو جالساً وسطها على كرسيه الوحيد.

وانتشلنا أبو زهير بصراخه ثانية:

ـ اتبعوني.

قال أبو ابراهيم:

ـ هذا الرجل مجنون.. ونحن أجنّ منه.. إلى أين يجب أن نتبعه؟

قال منير:

ـ يا عم.. إذا تعبنا نتركه.. لا بد أنه يريد أن يرينا شيئاً ما..

اقتربنا من الروشة. الدمار أكثر شمولاً. حتى مطعم نصر الذي كان يلاصق الصخور المطلة على صخرة الروشة، كان مدمراً تدميراً كاملاً.

توقّف أبو زهير على حافة الهاوية المطلة على الصخرة، فاقتربنا منه حتى أحطنا به. قال:

ـ أنظروا.

وأشار بيده إلى صخرة الروشة المنتصبة في قلب البحر على شكل جبل صغير ومتماسك، تنبت من قلب البحر وتصعد كتلة صخرة متماسكة، كأن أيدي فنانين مهرة نحتوها على مدى سنين طويلة. ترتفع الصخرة قليلاً عن مساواة الحافة التي نقف عليها، أي انسان لا يستطيع تركيز نظره إلى الأسفل.. وإلّا أصيب بالدوار ويكاد يتهاوى نحو الماء.

كرر أبو زهير كلامه ثانية:

ـ أنظروا.

والتفتنا حيث يشير إلى الصخرة. فقال:

ـ هذه الصخرة هي رأس بيروت.

وردد الدكتور:

ـ نعم يا أبو زهير.. إنها رأس بيروت.

حدق أبو زهير نحونا بنظرات رأينا فيها غضباً هائلاً لم نكن نعهده فيه من قبل، قال:

ــ رأس بيروت هذه الصخرة.

صمت، كدنا نتركه ونرجع، فمن منا لا يعرف أن هذه الصخرة العظيمة هي رأس بيروت؟

لاحظنا أن أبو زهير يرتجف بشدة، ثم تابع حديثه:

ــ يجب أن يعرفوا أنهم لن يستطيعوا قطع هذه الرأس، هذه الصخرة هي بيروت يا أبو ابراهيم.. أنت تعرف ذلك، وأنت يا دكتور تعرف ذلك. تفنى البشر ولا تفنى الصخرة. إذا لم يبق حجر على حجر في بيروت، ستظل هذه الصخرة هنا شامخة عالية، تذكروا ما أقوله لكم. لن تستطيع مدافع اليهود ولا الأمريكان ولا مدافع الذين انتهكوا حرمة بيروت أن يقطعوا رأسها.

قال أبو زهير ذلك وصار يترنح كأنه سكران.

لكن المفاجأة المذهلة داهمتنا على غفلة منا، إذ سرعان ما ألقى بنفسه فوق الصخور. حاولنا أن نمسك به، نحن وجمهرة الناس الذين بالقرب منا، غير أنه أفلت، وراح يتدحرج فوق الصخور الناتئة، ولمحنا دماء تتفجر من رأسه. إزاء هذا المشهد راح أبو ابراهيم يصرخ:

ــ له.. يا أبو زهير.. له.. ليش عملت هيك؟

وما أن لامس جسد أبو زهير الماء حتى ابتلعه البحر، كما لو أن يداً قوية شدته إلى الأعماق.

أصبنا بصدمة، تجمدنا في مكاننا لا نعرف ماذا نفعل؟ أيمكن أن يكون احتجاج أبو زهير.. أبو زهير بالذات على هذا

النحو؟

وما رأيناه بعد ذلك، ونحن نتلفت حوالينا حيارى، كأن البحر الأزرق كله أعلن غضبه، إذ سرعان ما هبت ريح مفاجئة جعلت الأمواج تعلو بصخب وترتطم بالشاطىء.

تراجع الدكتور وهو يكفكف دموعه. أبو ابراهيم أخذ يضرب كفاً بكف. الوجوم على الجميع. أحسست وأنا أتراجع مذهولاً أن أبو زهير كان أكثرنا حكمة.. بل أكثرنا إدراكاً لكل ما كان يحدث وما سوف يحدث.

قال منير وهو يخرج من وجومه:

ــ أتراه أكثرنا شجاعة؟

أما الدكتور فقد أشعل سيكارته بيد مرتجفة ثم قال:

ــ ها هو العالم السفلي يتخلّى عنا أيضاً.. إنها الكارثة يا إخوان.

لا أدري لماذا توقف أبو زياد فجأة عن السير والتفت، فالتفتنا جميعاً نحو البحر، وبدت لنا صخرة الروشة كأنها عملاق متجذر في عمق الأرض. الريح الغاضبة داهمت البحر، والفضاء والشوارع، رائحة البارود هبت علينا من كل مكان. لكن الصخرة العملاقة ظلت مشدودة إلى أعلى.. ويتحد عظيم. ومع شعورنا بأن جسد المدينة كان يرتعش، وأن النار ما تزال تحت الرماد، فقد بدت لنا الصخرة كما لو أنها كل بيروت، بناسها، وماضيها وحاضرها ومستقبلها.

فيما بعد خرجت إسرائيل من المدينة بأسرع مما كنا نتوقع، وتصورنا أن الحرب بدأت بالإنحسار لكن الحقيقة لم تكن

كذلك. . إذ التهبت من جديد حرب الأهل والأشقاء أكثر دماراً ووحشية. إلاّ أن صخرة الروشة، ظلت في أعماقنا رمزاً بأن الحياة أبقى وأقوى.

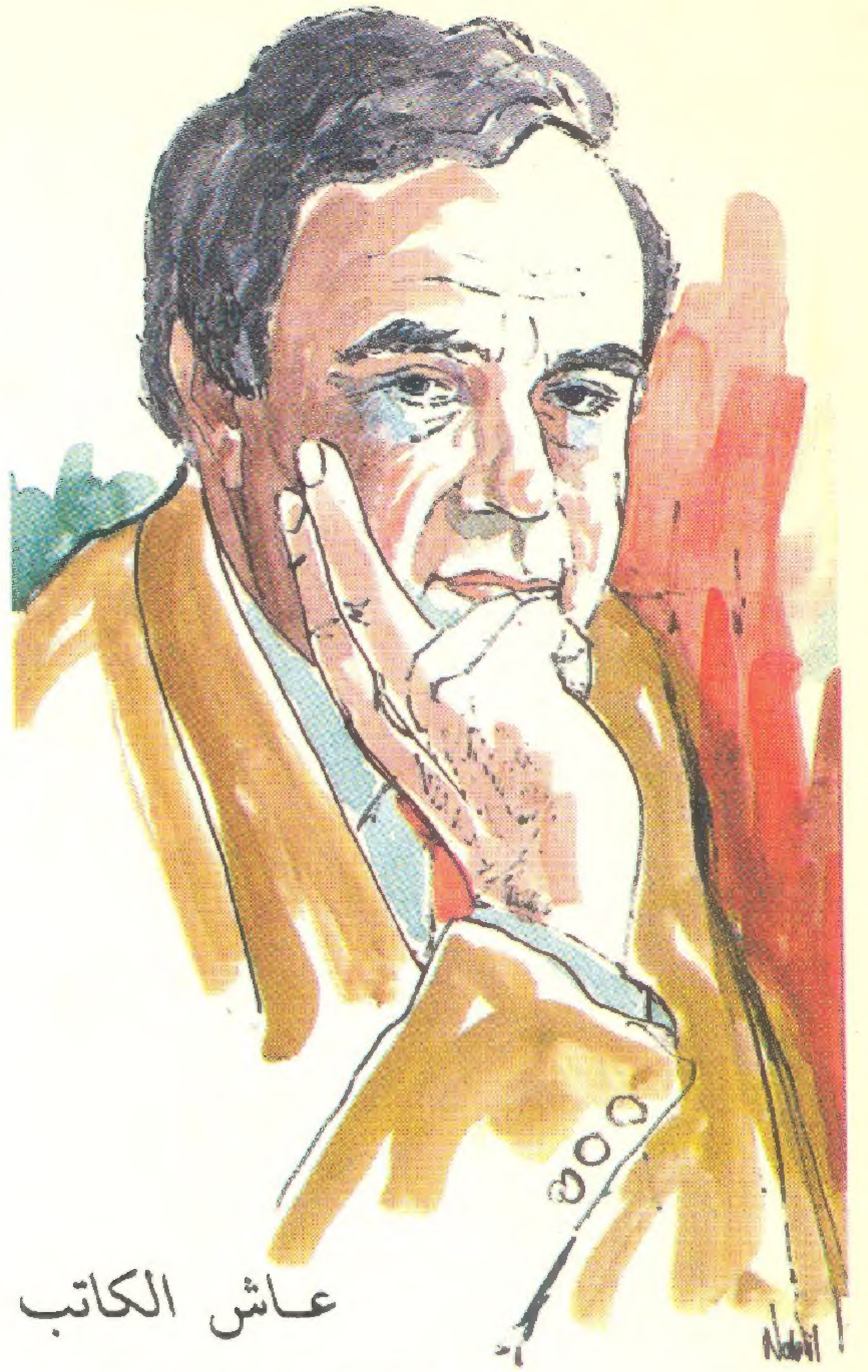
* * *

انتهت

بُدء في كتابتها في ٨٦/١١/١٢
وانتهت في ٩٢/١/٣

للكاتب

- الحزن في كل مكـان (قصص): ط ١ دار الثقافـة ـ دمشق ١٩٦٠ ـ ط ٢ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٨٠.
- جراح (رسائل حب وبوح): ط ١ كتاب الشعلة ـ دمشق ١٩٦١.
- العـالم يغـرق (قصص): ط ١ دار ابن زيـدون ـ دمشق ١٩٦٣ ـ ط ٢ دار النهار ـ بيروت ١٩٨٠.
- العصـافير (قصص): ط ١ دار الأهليـة للنشر ـ بيـروت ١٩٧٤ ـ ط ٢ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٧ ـ ط ٣ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٩.
- لغـة الحب (شعـر): ط ١ درا النهــار ـ بيـروت ١٩٧٦ ـ ط ٢ المؤسســة العربية للدراسات ـ بيروت ١٩٨٥.
- الممــر (روايـة): ط ١ إتحــاد الكتــاب العــرب ـ دمشق ١٩٧٨ ـ ط ٢ المؤسسة العربية للدراسات ـ بيروت ١٩٨٣.
- أنت الحبيبة وأنا العاشق: ط ١ دار المسيرة ـ بيروت ١٩٧٨.
- العصـافيـر تبحث عن وطن (قصص لـلأطفـال): دار المسيــرة ـ بيـروت ١٩٧٩.
- الرجال الخطرون (قصص): دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٩.
- الـورود الصغيـرة (قصص لــلأطفـال): دار المسيــرة ـ بيـروت ١٩٧٩ ـ ١٩٨٣.
- مصرع الماس (رواية): الأهلية للنشر والتوزيع ـ بيروت ١٩٨٠.
- نهر حنان (قصص): المؤسسة العربية للدراسات ـ بيروت ١٩٨٣.
- وردة الأفق (روايـة): هارلكـوين للنشر بسلسلة القصـة العربيـة ـ قبرص ـ اليونان ١٩٨٤.
- دماء بالألوان (رواية): الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٨.
- رفاق سبقوا (مذكرات): دار رياض الريس للكتب ـ لندن ١٩٩٠.
- الحصاة (مختارات قصصية): دار الكاتب العربي ـ تونس ١٩٩١.
- امرأة غامضة (رواية): تحت الطبع.



عاش الكاتب السوري ياسين رفاعية مأساة الحرب الأهلية في لبنان منذ بدايتها، وتركت في قلبه جرحاً لا يندمل، وكان واحداً من المتضررين منها رغم أنه لم يكن له فيها أي دخل. واستطاع الكاتب من خلال الحي الذي يقطن فيه منذ عام ١٩٧٠ (حي رأس بيروت) وقبل أن يرحل في أواخر الثمانينات إلى لندن، أن يسجل عبر هذه الرواية ما فعلته الحرب بأناس وأشخاص لم يشاركوا
كانت أكثر إيذاءً لهم من المشتركين في القتال.
في الأمكنة والأشخاص، وفي المشاعر وا
يسجلها رفاعية بقلمه كي تكون مشهداً آخر
التي ما زالت تعصف بالبلد الجميل: لبنان.

باريس - بيروت